سلسلة أجمل الروايات العالمية

الراقصان والعقد

وقصص أخرى

تأليف
غي دو موباسان

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي

دح
دار الحرف العربي

منحة 2006
SIDA
السويد

الراقصان والعقد

وقصص أخرى

إسم الكتاب:
الراقصان والعقد
وقصص أخرى

تأليف:
غي دو موباسان

إعداد وتحليل وتقديم:
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر:
دار الحرف العربي

للطباعة والنشر والتوزيع
زقاق البلاط - بناية فخر الدين
شارع خليل سركيس
تلفون وفاكس: ٣٦١٠٤٥ / ٠٠٩٦١١
بيروت - لبنان

ef_alarabi@yahoo.com: dar_al_har E-MAIL

الطبعة:
الأولى ٢٠٠٦ م

تصميم الغلاف:
فؤاد سليمان وهبي

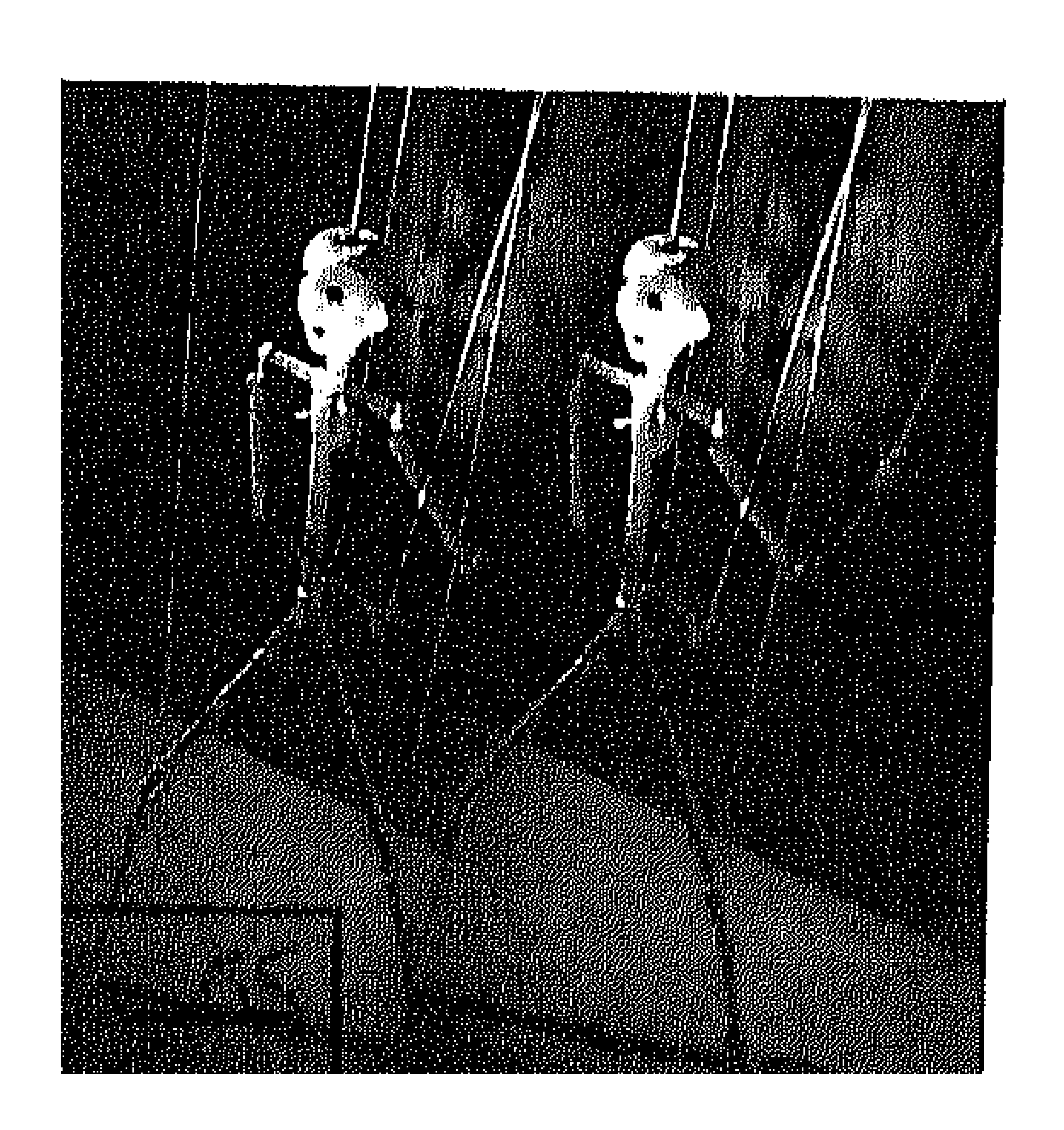
الترقيم الدولي:
ISBN : 9953-449-64-3

الراقصان والعقد

وقصص أخرى

تاليف
غي دو موباسان

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

Printed In Lebanon طبع في لبنان

غي دو موپاسَّان

١٨٥٠ - ١٨٩٣

وُلد هنري رينيه ألبير غي دو موپاسان في قصر ميرومينيل بفرنسا عام ١٨٥٠ في اليوم الخامس من شهر آب/ أغسطس ، وفي تمام الساعة السادسة مساء ، لأب هو غوستاف فرنسوا ألبير ، في الثامنة والعشرين من عمره ، وأم هي لور ماري جنڤياف في العمر نفسه .

ويُعتبر الروائي الفرنسي هذا من أشهر كتّاب القصة القصيرة في العالم أجمع . كان شديد الملاحظة ، ولعله من أبرز الروائيين في هذه الناحية . وقد شُبّه بالعالم الكبير الذي يدرس البشر كما يدرس سواه من العلماء الحشرات ، إلاّ أنّ قصصه التي تعتبر نماذج للكمال الأدبي لا تلذّ قراءتها لتميّزها بالتشاؤم . ويبدو الكثير من عدم التوازن العقلي مسيطراً على القصص التي وضعها في الفترة الأخيرة من حياته الأدبية التي لم تطل أكثر من اثنتي عشرة سنة .


غي دو موپاسان

بدأ حياته كاتباً في البحرية ، وخدم في الجيش الفرنسي . ولمّا انصرف إلى الكتابة والتأليف تأثّر بأسلوب الروائي غوستاف فلوبير ونسج على منواله . وظلّ يتدرب على الكتابة ويتلف مخطوطاته قبل أن يأذن بنشر قصصه . وقد صدرت سنة ١٨٨٠ أولى قصصه «الشحم» وهي تدور حول الحرب الفرنسية -

البروسية (١٨٧٠) فقضت على سمعة امرأة سيئة الطالع هي بطلة القصة . وفي السنة نفسها أصدر موپاسان ديوان شعر ومسرحية .

كان شعاره : «أخف حياتك . . كل ما كُتب عني لا صحة له» . وكان أكره ما يكرهه نشرَ صوره وأخشى ما يخشاه الموت . وقد دهمته الكآبة في آخر سنيّ عمره ، وراحت تكتنفه التخيّلات المقلقة إثر داء أصابه في الدماغ . وتوفي أخ له مجنوناً ، فلمّا ظهرت روايته «الهورلا» ، وفيها وصف لإحساسات رجل على وشك الجنون ، أيقن الكثيرون أن هذا المصير سيكون مصير موپاسان نفسه . وقد أصيب سنة ١٨٩٠ باختلال في قواه العقلية ، ثم بالشلل التام ، فاضطر إلى التخلّي عن الكتابة . وما هي إلاّ سنتان حتى جُنّ جنوناً مطبقاً ، وكان سببه إسرافه في العمل والتمتّع بلذات الحياة .

توفي غي دو موباسان سنة ١٨٩٣ في السابع من شهر تموز/ يوليو في الساعة التاسعة صباحاً ، وعمره ثلاث وأربعون سنة . ودفن في مقبرة مونتبارناس بباريس . ويُذكر هنا أنّ اللوحة النحاسية التي كانت تحمل التاريخ (١٨٥٠ ـ ١٨٩٣) ، والتي وُضعت على شاهد قبره ، سُرقت سنة ١٩٩٣ .

وقد وصفته خادمته بقولها : «كان غريب الأطوار ، ولكنه متواضع ، شديد الحدب على مرؤوسيه . . وكان سباحاً ماهراً . . وقد يكون على شيء من الذكاء» .

يُعتبر موپاسان أحد عظماء كتّاب القصة القصيرة في القرن التاسع عشر ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً ، إلى أي جيل انتموا . ولكن الدماغ الذي أنتج في مدة اثنتي عشرة سنة ـ كما تقدّم ـ عشر مجموعات من قصصه الرائعة ، وأعطى للأدب ، عدا القصص

الطويلة ، روايتين رائعتين هما «بيار وجان» و«حياة» ، ذلك الدماغ المبدع انتهى بصاحبه لسوء الحظ في أحد مستشفيات الأمراض العقلية .

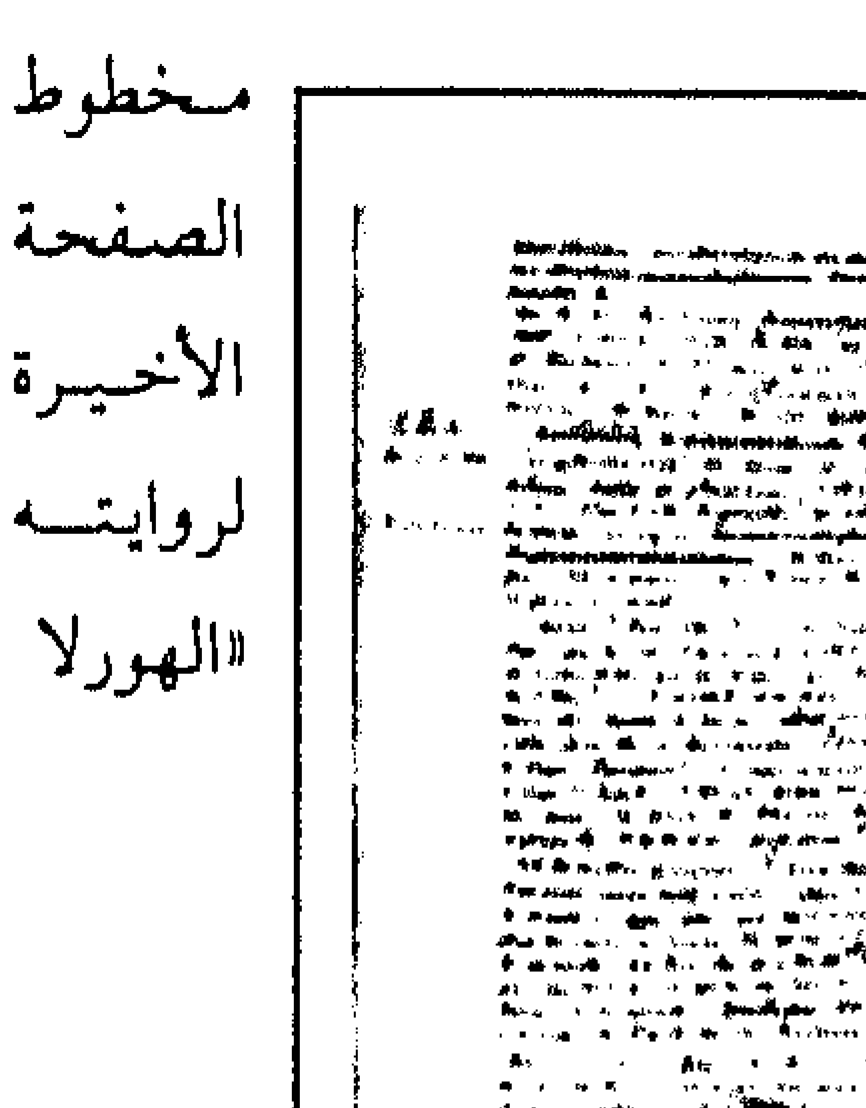
عُرف بالواقعية في أدبه ، أراد أن يصوّر المجتمع بأمانة وإخلاص ، فارتاد الأماكن المشبوهة وانغمس في الفساد . وقصصه ترسم صورة نفسه ، فهو فيلسوف لا تخلو فلسفته من آراء طريفة في ما يتعلّق بالحياة والمرأة . وهو قاس في حكمه على المرأة ، يراها مخلوقاً غادراً قلّما يخلص أو يعفّ ، وهي عنده أداة فتنة وفساد . وقد جمع في إنتاجه كل ما في الحياة من مشاهد وصور قد يمرّ بها الإنسان العادي فلا يجد فيها ما يهزه ، ولكنه يستطيع أن ينشئ منها فنّاً بارعاً .

وسواء آحتفظ دو موپاسان بقواه العقلية حتى النهاية أم لم يحتفظ بها ، فإنّ آثاره ظلّت ، ولعلها ستظل ، منارة هادية تضيء الطريق أمام الراغبين في كتابة القصة القصيرة المميّزة .

أمّا تحفته هذه ، التي قلّدها الكثيرون ، «الراقصان» و«العقد» قد لا تكون أعظم روائعه ، ولكنها ترجمت عشرات المرات وتعد بحق فتحاً مُبيناً في تاريخ القصة القصيرة .



قبر غي دو موپاسان في مونتبارناس بپاريس ، وقد اختفت اللوحة النحاسية عن الشاهد في الصورة إلى اليمين .



مخطوط الصفحة الأخيرة لروايته «الهورلا

الحقّ أنَّ دو موپاسان قاصّ فرنسي عبقري ، فجّر من ينابيع الأدب القصصي ما عجز عنه جهابذة الكتّاب ، وفاض لسانه بما خلب اللبّ وجلب العجب ، وأبان إبانة من سبر القرائح واستخرج الدفائن وخبر الصالح والطالح . ولا جديد نقوم به إن قدّمنا للقارئ العربي هذا الأديب الفذّ ، فهو أشهر من أن يعرّف كقاصّ من الطراز الأول ، تتبّع الأنباء في عالم الزمان ، وكمؤلف سبر غور الإنسان ، ودرس طرق معيشته ، وحدس ما يخامر خاطره ، واكتنه مواطن الضعف في الخلق ، واتخذ منها غاية ومادّة لقصصه .

لقد بحث وحقّق ، وتتبّع الأخبار ، وعرف مذاهب الإنسان ، وتعمّق في تفصيل شعوره ، وإيضاح ما يخالج قلبه ويلامس حسه ، فأبدع الوصف وأجاد التصوير ، وتوخى الصراحة في جميع ما كتب ، فأمتع الأسماع وفتن الأذهان .

بنى قصصه على الأحداث البسيطة التي لا غموض فيها ، فجذب إليه القلوب ، واستعان بالواقع ، أو ما يشبه الواقع ، أو ما يؤدي وظيفته ، فلم يصلد له زند ، أو يجف فكر ، أو تجدب قريحة .

«إنّ الحياة قصة !» ذاك كان شعاره . . و«إنّ الإنسان في ذاته قصة !» لهذا ذاع صيته . . و«إنّ الجنس البشري قصة متسلسلة الحلقات ، متصلة المعاني !» لهذا تبوأ قمة المجد وخلّد اسمه .

في قصصه لم يستخف بالحوادث الطفيفة ، بل اتخذ منها مادة يحوم حولها ، وينسج منها قصصه الظريفة الخالية من التفكّك والتعقيد ، النقية من شوائب الإلغاز والتعمية ، فكانت بمثابة باب إلى المعرفة يلجه كل من يصبو إلى الإلمام بما جبلت عليه النفس من الأثرة والقناعة ، ومن الضعف والقوة ، ومن سلامة الطوية وخبث النية ، وبما

لتحكّم الشهوة الجنسية الطاغية والغريزة الحيوانية الباغية من التأثير البالغ في الألباب والقلوب .

غي دو موپاسان شعلة لا تخبو نارها ولا يخمد أوارها ، فخياله القوي الحفظ ، وحسّه المرهف ، قد نفذا من سجف الظلام ، وخرقا صميم حياة الإنسان ، فتسنّى له بذلك أن يفسّر نضال الجنس البشري وجهاده وكفاح الإنسانية وكدّها في الحياة .

وهو قاس لا يرحم ورحيم لا يقسو ، ولكنه إنسان قبل كل شيء وقبل أن يكون قاصّاً ، لهذا نحن لا نجده يلوم الإنسان أو يعيب عليه هواجسه ووساوسه ، أو يعيره بمخاوفه الناجمة عن الحذر والحيطة أو يحتقره ويمتهن عمله وجدّه من أجل الحياة ، بل هو ينظر بعين الشفقة والرثاء إلى غرور الإنسان وعنائه وتعبه ، وما يُمنى به من فشل ذريع وخيبة مريرة وبؤس مدقع .

وقد وهبه الله أسلوباً أدبياً رائقاً يمتاز بإحكامه ودقّته ورشاقته ، ولا يفتقر أسلوبه الجميل إلى القوة والمرونة والتناسق . أضف إلى ذلك أنَّ اجتهاده ومثابرته وبراعته في التلخيص والتخليص ، ومهارته في الانتقال من طور التفكير إلى طور التنفيذ ، لا يختلف فيها اثنان .

أمّا خياله فخصب ، وأمّا قدرته على إنتاج هذا الخيال ، وصوغه في قالب قصصي جذّاب ، فلا تفوقها مقدرة . فهذا الألمعي المتّقد الذهن كان من حملة مشاعل الأدب ، وكان مفكّراً غزير الإنتاج ، لكنّ الله لم يمدّ في أجله فتخرّمه الموت وهو في الثانية والأربعين قبل أن يكمل رسالة عظيمة اضطلع بها ونيط به أمرها .

هو ذا غي دو موپاسان الرجل الذي أطراه ليو تولستوي ومدحه أناتول فرانس وشاد بفضله أساطين الأدب في الغرب والشرق .

ولا مرية أن حياة رجل وسيرته لا تكتب في صفحات ، ولا سيما رجل مثل دو موپاسان . . فلندع قصصه تتكلّم عنه . . ولنترك فنه يتحدث عن شخصيّته وعبقريّته . . وللقارئ اللبيب الأريب أن يستشف جوهره ويحكم بما يراه .

الإشارة

كانت المركيزة دي ريندون الباهرة الجمال البارعة الحسن لا تزال غارقة في سباتها محلقة في سماء أحلامها ، وقد تلفعت بغلالتها ورقدت وحيدة لا يعكر صفوها طفل بعويله ، ولا يقض مضجعها زوج بغطيطه . . وكانت قد آثرت حياة العزوبة بعد طلاقها من زوجها ، وآلت على نفسها ألاّ تبعل بسواه ضناً باستقلالها ، وإبقاء على نسيم الحرية التي استنشأتها ، وآثرتها على قيود الزوجية ، التي برمت بها وعافتها . .

لكن أصواتاً شديدة منبعثة من قاعة الضيوف الزرقاء ، النفيسة الأثاث الفاخرة الرياش ، نبهتها من نومها ، فتقلبت في فراشها الناعم ، وتململت ثم تثاءبت ومدت ذراعها العاجي فتناولت ساعتها الذهبية الأنيقة ، فألفت الوقت لا يتجاوز التاسعة . . فتسخّطت وعوّلت على صبّ جام نقمتها على من أزعجها وأقلق راحتها . . وأرهفت السمع ، فدهشت وتولاّها العجب ، حالما تبيّنت صوت صديقتها وعشيرتها البارونة دي جرانجيري الحسناء الحوراء المفرغة في قالب الجمال ، المخلوقة من الحسن . . وكان الاصطخاب قد استعر بينها وبين وصيفتها التي اعترضت سبيلها وحالت بينها وبين الصعود إلى مخدع سيدتها . . .

فأسرعت المركيزة إلى الباب فشقت مصراعيه ، وخاطبت صديقتها فقالت :

«عمي صباحاً أيتها العزيزة ، ماذا ساقك إلينا ، وجعلك تبكرين علينا ، والنهار بعد في أوله؟» .

فأجابتها البارونة بصوت خافت :

«حنانيك يا عزيزتي ، لقد ألمت بي نائبة بدلت صفاء حياتي كدراً ، وأنذرت بتقويض شرفي وهدم صرح أملي . . وقد ألقي في روعي أن ألجأ إليك ، فما قويت على اصطبار ، وما طاوعني انتظار ، فأهرعت لأبثك آلامي وأطلعك على أحزاني ، لعلي أجد عندك ما يفرج الهمّ ويصلح الشأن . .» .

فقطّبت المركيزة حاجبيها وقالت :

«أفرخي كربك وأزيلي شجنك . . وتعالي طالعيني بخطبك واكشفي لي سترك . .» .

فذعنت البارونة ودخلت مخدع صديقتها المتضوّع بالطيب ، فتهالكت على مقعد وثير وأجهشت بالبكاء . .

فهرولت إليها المركيزة وعانقتها وضمتها إلى نفسها ، ثم استلقت على فراشها وألقت على صديقتها المفجوعة نظرة حب وحنان وابتدرتها قائلة :

«هيا يا عزيزتي ، حدثيني بما ألمّ بك فمضّك . . وبثيني همك وشجوك ، ففي الحديث شفاء للنفوس ، وفي بثّ الهموم تفريج للكروب . .» .

فتأوّهت البارونة من كبد حرّى ، وقالت وقلبها مكتئب وعينها عبرى :

«اعلمي أن البلية التي صُليت بها فأججت كربي وألهبت حزني وصيرتني حائرة بائرة ، وقلتني على نار الخشية والتوحش ، جعلتني ألوذ بك لأنضو بين يديك همومي ، وأكشف لك عن ضنكي ،

فـأخـفـت بذلك نأمـة حـزني وأخـفـف وطأة غـمي . . هـاتي يدك . . هاتيـها . . ضعـيهـا على صـدري . . تحـسـسي بهـا قلبي . . لترى شـدة خفقته ، وتقطع نبضته . .» .

وأمسكت بيد صـديقتـهـا ، فقـربتـهـا من صـدرها وألصـقتـهـا بذلك الموضع الدافئ المســتــدير النـابض بمخـــتلف المشـــاعـــر والمعـــاني والأحـاسـيس . . والذي يقنـع منه الرجـال بجـمـاله ودفـئـه وإغـرائه ، وبالنشوة المستمدة والمخلفة من النظر إليه ، ولمسه وتحسسه ، ولا يبالون ولا يحفلون مـا يختلج في هذه البشرة الغضـة النـاعمـة من الغايات والمآرب والشهوات . .

وعندما أرخت يد صاحبتها ، أردفت تقول :

واعلمي أن قلة تبصّري سلبتني طمأنينتي . . وأن تهوّري أزال عني دعتي . . حتى إني استحلت في ليلة وضحاها من امرأة مرتاحة البال رافلة بثوب الهناء والسعادة ، إلى امرأة مختبلة العقل شاردة اللب واجفة القلب ، تساورني الهموم وتواثبني المخاوف ، فبئس ما جره عليّ حمقي . .

ففي السـاعـة الرابعـة من بعـد ظهـر أمس ، وبينـا كنت أقطع فراغي بالتـفـرج على جـمـوع السابلـة التي يضـيـق بهم طوار الطريق ، وأمـتّع الطرف بمـا يمتـد حـولي من مناظر شـارع (سـان لازار) ـ وكـان تجـدّد المناظر حولي ، وأشعة الشـمس التي تضيء حجرتي ، والنسيم الرخاء البليل المحمل بعطر الأزهار وأرجها ، يروّح عني وينفّس مللي ويخفف من ضجري ـ إذ علق نظري بشابة قسطها من الملاحة ضئيل ، تلازم النافـذة المقابلة لمنزلي ، وهي ترتدي ثوباً أرجوانياً ينكشف عن يديهـا حتى الكتف وينحسر عن صدرها حتى الثديين . .

وتراءى لي أنها حديثة العهد بالمسكن ، وأدركت ، من مظهرها وملبسها وحركتها ، بأنها داعر طرحت الحياء وتاجرت بالهوى ، وباعت جسمها لكل من ابتغى واشتهى . .

صدمت لأول وهلة ، وداخلني الشعور بالاشمئزاز والنفور . . بيد أنه سرعان ما انفثأ حنقي ، وتبدل اشمئزازي فضولاً وتشوفاً . . فطفقت أرقب العاهرة وأرصد حركتها بعين لا تخفى عنها خافية . .

وكانت الفاجرة متكئة على حافة النافذة ، ترشق الرجال بلحظها ، فيبادلها الرجال النظرات . . وكأني بهم يعلمون بوجودها . . والعجب العجيب أن الواحد منهم ما كان يدنو من بيتها حتى يرفع رأسه فجأة فيحدجها بنظرة تفاهم وتعارف سريع . . ولقد خُيل إليّ أنها تحاورهم بناظريها فتقول : هل تتوق؟ هل تريد؟ . . وأنهم يجيبونها بنظرهم فيقولون : وقتي ضيق . . في يوم آخر . . اغربي عن وجهي أيتها المنكودة . .

فكهت كثيراً ولهوت كثيراً وأقبلت عليها أعجم عودها وأسبر غورها . . وكانت تغادر النافذة أحياناً لتستقبل طالب خنى استجاب فصعد . . !

سحرتني هذه العنكبة بمهارتها في نسج الخيوط ، مع أنها لم تكن ذات جمال يسحر ولا ذات حسن يبهر . . ـ فأين وجهها من وجهي . . وأين قدّها من قدّي . . وأين نظرتها من نظرتي؟ !

وتقت إلى معرفة سرها والوقوف على خبرها والعثور على الوسيلة التي يتسنى لها بها لفت النظر واسترعاء الانتباه . . فهل تضيف إيماءة من رأسها أو إشارة من يدها ، إلى نظرتها؟ !

ولـمّا استعنت بالمكبّر ظهرت عليّ أسرارها وأيقنت أن الأمر هين

بسـيط ، وأنه لا يحتـاج إلى عناء كـبيـر . . وهو عـبـارة عن نظرة . . فابتسامة . . فإيماءة . . إن رد الرجل عليها بمثلها ، علمت بأنه استجاب لها وقبل دعوتها . .

جذبتني هذه الإشارة الخفيفة الماهرة ، وسوّلت لي النفس الأمّارة بالسوء أن أقتدي بحركتها ، وأقتبس منها إشاراتها . . فلمّا قمت إلى المرآة وتزينت وتبرجت ، وصنعتُ ما صنعتْ ، خاطبت نفسي في عجب وخيلاء : «ما أشبه الليلة بالبارحة . !» .

لقد زهاني الكبر واستولى عليّ الغرور . . وعندما أخذت مكاني من النافذة ، وتألقت زينتي ، استرعيت انتباه الرجال ، فتحولوا عنها وأشاحوا بوجوههم عن نافذتها !

ومع أن التكسّب من هذه المهنة أمر كريه تعافه النفس الأبية ويمجه الذوق السليم وتقلاه الروح العزيزة ، إلاّ أنه لا يسعني إلاّ التسليم بأن الثمرة التي تجنى من ممارستها تفوق سواها حلاوة ، لما يكتنف الآخذ بها من المفاجآت الطريفة والمغامرات اللطيفة . . فالرجال خليط وهم من أنواع . . فبعضهم يطيب للمرأة معاشرتهم ومنادمتهم لرقتهم ودماثتهم وحسن سمتهم ، وبعضهم لكثرة مالهم ورخاء بالهم . . !

ولعلّي ذكرت بأن الرجال أعرضوا عنها ، واتجهوا إليّ بعيونهم وأفئدتهم . . وكان منهم الكبير والصغير . . والطويل والقصير . . والبدين والنحيل . . بعضهم أعجبتني فيهم رجولة قاسية . . وبعضهم استرعى انتباهي رقتهم وجمال طلعتهم . . ومنهم من فاق زوجي وزوجك السابق منظراً وسمتاً . . .

وسوّلت لي النفس المضلة أن أعطي أحدهم الإشارة لأرى هل يدرك قصدي ـ أنا المرأة الشريفة المحتشمة؟ !

وتهافتت نفسي ، وحفزتني الشهوة المزلة إلى القيام بهذه المغامرة المذلّة . . وأنت تعلمين الشيء الكثير عن ولعي بالإفلات أحياناً من قيود العقل والأدب . . وعن انسياقي وراء نزواتي التي تلمّ بي في فترات ، فأهجر وقاري ، وألقي عن ظهري ما يدعوني إلى التمسك بالفضيلة ، وأتلهف إلى التعلق ولو ردحاً بالموبقة والرذيلة . . .

وإني لعلى يقين بأن أرواحنا ، نحن النساء ، تمت بصلة وشيجة وثيقة إلى أرواح القردة . . وأعتقد أن روحنا هي صنو لروح القردة . . ولا أزال أذكر قول أحد الأطباء ـ «إن عقل القرد شبه لعقل المرأة . .» فهذا الاتجاه القريب الشبه في الفكر والعمل ، يجعل المرأة ، بحسب ظني ، تكلّف بالمحاكاة وتكلّف هيئة غيرها وفعله وقوله . . فنحن نحاكي أزواجنا في مطلع اقتراننا لأن هيامنا المضطرم المشبوب لم يمر عليه الوقت الكافي لينطفئ ناره ويخمد أواره . . ونحاكي عشاقنا بعد أن نزهد في أزواجنا ونرغب عنهم . . ونحاكي صديقاتنا ومن نعجب بهم من سائر الخلق ، ومن نعترف تلقاءه إن كان قساً حسن الديباجة . . نحاكيهم في تفكيرهم وحركاتهم وإشاراتهم . . لهذا وجدت نفسي عرضة للإغراء ، فتشوقت إلى اختبار جمالي وسبر قدرتي على الإغواء . . وأنا كما تعلمين ، متهورة في بعض الأحيان ، أطيع هوى النفس وأستجيب لنزغات الشيطان ، ولا أبالي بالعاقبة مهما كانت وخيمة وبيلة . . .

وهكذا انتابتني نوبة من نوبات الحرية ، وناجيت نفسي المتلهّفة المتشوقة إلى الإفلات من إسارها : ـ ما عليك لو تشبهت بهذه المومس بالإشارة والإيماء فحسب . . ومع رجل واحد؟ . . فلن يصيبك مكروه ولن ينالك سوء فإنك ستبادلينه الابتسامة الطفيفة والحركة الخفيفة ،

وينتهي الأمر عند هذا الحدّ . . أمّا إذا وقع ما لم يكن في الحسبان ، فليس أهون من التجاهل والإنكار!

وهكذا أطعت دواعي الإغراء ، وبت أرقب الرجال وأتفرس بالواطئة ، وأرسل الطرف يرود لقلبي ما يستحسنه . .

ولاح لي شبح فتى توسّمت فيه ضالتي . . وكان يتبختر في مشيته ويتيه عجباً ، كأنه يملك الخافقين ـ جمال الخلق وكمال الرجولة ـ رنوت إليه ، فتحداني بنظره . . وابتسمت له ، فافتر ثغره . . وأومأت ، فهز رأسه . . وما عتم أن عرج على المنزل . . .

طارت نفسي شعاعاً ، وشاب الندم سروري بالمغامرة وابتهاجي بالظفر . . وأسفت على إقدامي على هذه المخاطرة . . .

سوف يدق الباب ، فيفتحه جوزف ـ وجوزف خادم زوجي الأمين ، بل ناموسه وكاتم سره . . ولن يتأخر عن فضح أمري وهتك ستري . . .

قدحت زناد الفكر ، فارتأيت أن أعجل بالنزول ، حتى لا يفطن إلى القادم الوقاح أحد من الخدم ، فأدخل في روعه بأنه زل بمجيئه إلى حاصن ذات بعل نبيل شريف . .

فهرعت إلى الباب ففتحته وجبهته بقولي :

«لقد ضللت الطريق وأخطأت المقصد . . وإنني ما حييتك إلاّ لاشتباهي بأنك خدن لزوجي . .» .

فاستغرب ضاحكاً وقال مقاطعاً :

«لا حاجة تدعوك إلى سرد قصتك المبتذلة ، لأنني عليم بها . . فأنت في عصمة زوج شريف . . وبعلك غيور مخيف . . ولهذا

تستحقين جعلاً مضاعفاً . . . فاطمئني وثقي بأني كريم سخي !» .

ثم دفعني باستهتار ، ورتج الباب ، وجعل يقبلني ويعانقني ويضمني إلى صدره العريض ، حتى أوشكت أن أختنق ـ والعجيب أن قسوته كانت مخلوطة لطفاً ، وخشونته مشوبة رقة وعطفاً ـ وما برح هذا الجلف يدفعني حتى ألفيت نفسي في قاعة الاستقبال . . فإذا بهره ما رآه من جمال الرياش والأثاث ، قال مشدوهاً :

«ويّ . . إنك لفي غنى عن هذه المهنة . . فهل أصبت بمكروه؟ . . أم دهمتك نكبة فهوت بك من سامق مجدك ، واضطرتك إلى ما يستشينه الحسب؟ !» .

فارتعت والتعت ، وهملت عيناي ، وتوسّلت إليه أن يشفق علي ويرحمني . . وقلت له بضراعة وتذلل :

«اذهب . . أرجوك . . فإن زوجي لا يلبث أن يعود . . أقسم لك أني محضتك الصدق . . فلا تخالني أمثل أمامك دوراً مألوفاً معاداً ، كما زعمت . . .» .

فدنا مني ورفعني بين يديه كما يرفع الطفل الصغير . . وأنشأ يقول :

«كفّي عن الهذر والهراء ، ولا تستمري في اللغو . . أمّا إذا دهمنا زوجك الغيور . . فسأحشو كفه بما يسكت فمه . . !» .

في تلك الآونة دقت الساعة خمس مرات ـ وراؤول كما تعلمين يعود إلى البيت في النصف بعد الخامسة ـ فماذا يكون المصير لو عثر على خيانتي والتقى بهذا الغريب العنيد ، الذي أستجدي منه الاستعطاف ، في منزله . . . وفي مخدع زوجه؟ !» .

ثم ـ ثم ـ فقدت صوابي ـ تماماً . . وفكرت ـ إن أقصى ما أستطيع صنعه ـ هو التخلص من ـ من هذا الرجل اللجوج ـ وبأسرع وقت ممكن . .

ضحكت المركيزة حتى اغرورقت عيناها . . ولـمّا تمالكت نفسها وكفت عن قرقرتها ، سألت صديقتها :

ـ هل هو جميل يروق النظر ويجذب إليه الفؤاد؟

ـ أجل . . إنه حسن الخلق جميل الصورة مفتول العضل . .

ـ ففيم الشكاة إذاً . . وعلام التظلم؟ !

ـ بيد أنه مصمم على الاتصال بي . . فقد قال وهو يغادرني :

«أنت مدهشة يا حبيبتي . . وسوف أعيد الكرة غداً . .» . ويخيفني فيه تصلبه وتشبثه برأيه ، فماذا أفعل؟ أخبريني ماذا أستطيع فعله حتى أدرأ عن نفسي شره وأذاه؟ إن فكري في الغد ، وأخشى ما أخشاه أن يبرّ بوعده . . أو بعبارة أوضح أن ينفذ وعيده . . .

فاستوت المركيزة في فراشها وشرعت تتأمل صديقتها وتشحذ بصيرتها ، ولم تلبث أن قالت :

ـ ممّ الهلع والجزع يا حبيبتي؟ خففي عنك واذهبي على التوّ فبلغي عنه السلطات المشرفة على الأمن ، وهي كفيلة بردعه ورده عنك . .

فشدهت البارونة وقالت مبهوتة :

ـ أبلّغ عنه؟ وكيف ذلك؟ وما هي التهمة التي أرجفها؟

ـ اختلي بمفتش الأمن ، واسكبي الدمع ، وازعمي بأن رجلاً فاقد الحياء فاسد الخلق سليط اللسان لا ينفك يلاحقك ويضايقك وينغص

عيشك . . وأنه تجرأ فهاجمك مهاجمة الأنذال في عقر بيتك . . وسفّهك وطالبك بما لا يطلب مثله من سيدة شريفة في مثل مركزك . . واطلبي أخيراً حماية القانون . . وأؤكد لك بأن المفتش لن يؤخره أمر عن إرسال من يلقي عليه القبض . . !

ـ ولكن . . لو تحدث فذكر ما جرى؟

ـ لن يصدقوه ، لأنك إن أنكرت معرفته ، وأكبرت تهمته ، واصطنعت التأثر والتألم ، وثقوا بك ، فينجح بذلك أربك . . .

ـ أواه يا عزيزتي . . إني أخشى مغبة هذه الخطوة الجريئة . .

ـ لا . . ليس عليك من حرج . . افعلي ما نصحتك به يسلم شرفك ويصفُ عيشك . .

ـ وماذا أصنع إن تهجّم عليّ وأهانني ، أو وصمني بما يفضحني ويثلم شرفي؟

ـ إن أقدم على مثل هذا العمل يرمي بنفسه في التهلكة ، ويضع في متناول يدك قضية قدح وتشهير يؤيدها شهود الحال . . فيتضح أمام الملإ كذبه ونفاقه . .

ـ وماذا يكون عقابه على هذا الذنب؟

ـ يقع تحت طائلة التغريم ، ويقسر على دفع التعويض . . تحرري يا عزيزتي من الشفقة وانزعي من قلبك الرحمة ، واعلمي أنه يخلق بنا في مثل هذه الحالة التي يتوقف عليها مصيرنا أن نتذرع بالشدة والقسوة . .

فتنهّدت البارونة وقالت :

ـ في جعبتي أمر آخر أود أن أراجعك فيه لتشيري عليّ إشارتك

الحسنة . . فإنه قبل مبارحته المنزل ترك على المنضدة أربعين فرنكاً . .

ـ وي . . أربعون فقط !

ـ أجل .

ـ ويحه من أفّاك . . نذل . . هذا مبلغ ضئيل .!

ـ . . . .

ـ وتافه . . حقير . . !

ـ ماذا أفعل به؟ أخبريني . .

فترددت المركيزة الصغيرة قليلاً ، ثم قامت إلى صديقتها فقبّلتها بحنان وقالت :

ـ يا عزيزتي ـ اشتري به ـ بهذا المال ـ هدية صغيرة لزوجك . . ففي تقديم هذه الهدية الصغيرة له معنى من معاني التوبة ، ونوع من أنواع التكفير عن الحوبة !!

روز

بدت المرأتان الصغيرتان الجميلتان كأنهما موؤودتان في مدفن من ورد وزهر . . وكانت العربة التي تُقلُّهما مزخرفة بجميع أنواع الزهر ، مزيّنة بالرياحين والياسمين المشرَب بالحمرة ، والقَرنفُل الأصفر والأبيض والوردي ، حتى ليحسبها الرائي ، لأول وهلة ، باقة كبيرة عظيمة الحجم . .

فقد أفعمت بالبنفسج والنرجس سلتان فخمتان متسعتان ، وتراكم في حجريهما زهر البرتقال والمنثور والزنبق والفل ، فجعل كومة كومة فوق بعضه البعض . . فلم يعد يظهر من المرأتين إلاّ الأيدي العارية البضة والوجهان المليحان الوسيمان . . .

وصنع للسوط قراب من شقائق النعمان . . وزُيِّنت رؤوس الخيل بأكاليل من أزهار الحائط ، واستُبدل المصباحان بباقتين كبيرتين ظهرتا كأنهما عينا هذا الوحش الهائل المندفع إلى الأمام .

اخترقت العربة المثقلة بهذا الحمل الرائع الطريق المحتشد بالخلق وقد عبقت بالرائحة الطيبة وتضوّعت بالشذا الذاكي ، ولحق بها وباراها وجاراها نظراؤها من العربات المزخرفة بألوان النبات المتأرجة بالطيب ، المزدانة بالكواعب المتخفيات ، المزينة برجال في ريعان الشباب تنكّروا جميعاً بمختلف الأزياء والملابس . . فاليوم يوم الزهر الموعود ، أو عيد الزهر المنشود المشهود . .

وَدَفقَت المركبات على المَيْدان الرحب ، حتى إذا اكتظ بها المكان ، انتظمت على جانبيه صفين متقابلين ، فكان المنظر فريداً شائقاً يجهر الناظر إليه ويأخذ بمجامع قلبه . . ونشبت معركة (السلام) ، وتطايرت

الباقات ذات اليمين وذات الشمال ، وسبحت الأزاهير في الفضاء وارتطمت بالوجوه ، وما وقع منها على الأرض وما انتشر في كل صوب ، التقطه الصبية الصغار فرحين مهلّلين . . .

وازدحم الميدان بالجماهير الغفيرة ، فلم يبق هناك موطئ لقدم . . وتزاحم الناس بالمناكب ، وهاجت الجموع وماجت ، كأنّ الأرج الفوّاح قد أثمل النفوس ، وفعل الرحيق فعل الخمر في الرؤوس ، فأوشكت الجموع أن تقتحم الميدان فتختلط بذوي الجَدّ ، لو لم يخفّ إليها رجال الشرطة المتطين صهوات الجياد ، فيحولوا دون امتزاج الرعاع المتطفلين بالصفوة المحتفلين !

وازداد الصياح والضجيج ، وعلت الجلبة والعجيج ، وتجاوبت أصوات المتماجنين . . وما هي إلاّ ساعة حتى خفت حمولة العربات وخوى أكثرها من الباقات ، فسفرت الوجوه وبانت النحور والقدود ، فتعارف القوم ، وتبادلوا أطيب التحيات وتمنوا لبعضهم البعض أعذب الحياة . . .

وشعَّت تلك الوجوه بالبهجة والسرور ، وشاعت ابتسامات الغبطة والحبور ، وتورّدت الخدود وكأنّ الفرح الذي خامر كل قلب لم يجد له متنفساً فصعد إلى الوجنات النضرة . . أو كأن السرور الذي فعم الجو أضاء جوانب النفوس ، كما أضاء القلوب والوجوه . . .

فإذا ما نفدت (ذخيرة) المرأتين ، أوعزت إحداهما إلى الحوذي أن يلوي أعنة الجياد إلى خليج جوان المتاخم للبحر .

وكانت الشمس ساعتئذ قد جعلت تغوص برفق خلف سلسلة من الجبال والهضاب ، وكانت مياه البحر الصافية الزرقاء قد حاذت الأفق الأحمر والأبيض ، والتصقت بالبواخر الراسية في الخليج والتي تشابه

وحوشاً هائلة عظيمة الهياكل . .

وشخصت الصديقتان الحميمتان إلى هذه المناظر الساحرة بعيون ساجية ، وبوجهين ارتسمت عليهما ابتسامة وادعة لطيفة ، تعبّر أصدق تعبير عمّا يدور في خلديهما من الأحلام الزاهية ، وما يجول في مخيلتيهما من صور الحياة البهية ، وما يخامر قلبيهما من الاطمئنان إلى رخاء البال وسعة الحال . . .

وكأنما البهجة التي تمتعتا بها ، والغبطة التي تذوقتا حلاوتها ، قد أنعشتا زهرتي الثقة والأمل في قلبيهما . . .

وتكلّمت إحداهما فقالت :

ـ أي مارغو ! ألا تلذّ لك الصبوة؟ ألا يطيب لك أن تطرحي أعباء الحياة وتُزَجّي أمثال هذا المساء باللهو والترويح عن النفس؟

فأجابتها الأخرى :

ـ كيف لا يا عزيزتي والمرح الحلو هو مطيبة للنفس؟ ! فالتطواف في الميادين والشوارع ، والعكوف على الملاهي والمسارح ، لمن أشهى الأمور وأقربها إلى قلبي . . بيد أني أشعر أن شيئاً ينقصني . . وأن سروري لا يكمل ولا يتم إلاّ متى ظفرت بذلك الشيء . . .

ـ وما هو هذا الشيء الذي لا تكتمل مسرتك إلاّ به يا مارغو؟

ـ إنّه طِلْبةُ القلب ! إنه الحب الذي لا معدى لنا عنه ، ولا معنى لحياتنا دونَه !

وأرسلت مارغو بصرها على سجيته ، وأدارت طرفها فيما يكتنفها ويحيط بها ، وبدت كأنها تستعيد إلى الذاكرة صوراً من صور الماضي ، أو قصة عجيبة غريبة . . ولم تلبث أن استتلت قائلة :

ـ لا أستطيع أن أتخلى عن الحب ، فهذا ضرب من المحال دونه

خرق القتاد . . لأن حياتي متى قفرت من خلجاته وصفرت من لواعجه ، تغدو مملّة مضجرة يضيق بها ذرعي . . وإخال بأني ما وُجدت إلاّ لأحب ولأحب ، حتى ولو كان المحب كلباً ! ونحن النساء على سجية واحدة ، وإننا سواء فيما تجيش به صدورنا يا سيمون . . فلا تكتمي ما في نفسك ولا تحاولي الإنكار !

ـ إن هذا الهراء لا معتمد عليه . . وإن كلامك لمن اللغو . . ولا يسعني إلاّ أن أفند منطقك الخاطل الذي أملاه عليك غلوك في إيثار الحب على كل لذّة عقلية وروحية . . وثقي بأني أفضّل أن لا يهواني أحد على أن يعلق بي غافل خامل لا وزن له ولا قدر . . فهل يخطر في بالك أنني أرضى بحب . .؟ !

واسترعى نظرها الحائر الزرّان المعدنيان اللامعان بظهر الحوذي ، فأتمّت :

ـ بحب سائق عربتي . . مثلاً . .؟

فأجابتها مارغو جادة :

ـ إن في هذا الضرب من الحب لمتعة عظيمة يا عزيزتي ! أن يتعشّقنا خادم أو حاجب . . أن يغرم بنا سائس أو حوذي . . لقد بلوت هذا الأمر وامتحنته أكثر من مرة ، وأيقنت أنهم متى دلّههم الحب ودنّفهم الوجد ، تبدّلت نظراتهم وتغيرت حركاتهم ، وأضحوا في مظهرهم ومنطقهم مثاراً للضحك والرثاء معاً ! ولكن يتحتم عليك كلّما ازداد شغف الخادم بك ، وكلّما تحرق فؤاده من الصبابة والشوق ، أن تكوني شديدة الدهاء وأن تعرضي عنه أمام الناس ، فلا تعامليه إلاّ بالرصانة والصرامة ، وإلاّ صرت عرضة للشكوك والشبهات ، وهدفاً للسخرية والشتم وعيب العيَّاب . . لأنّ أدنى هفوة تبدر منك تهتك سترك

وتكشف سرّك ، وأقل قول يفرط من لسانك من غير روية يصمك بالنقيصة والعار !

أنصتت سيمون مستمعة لحديث صديقتها ، فلمّا انتهت من كلامها أجابتها قائلة :

ـ إن قلب الخادم لصغير حقير تافه . . . وإنه لأضعف من أن يستهويني ويستميلني ويجتذبني إليه . . ولكن . . نبئيني كيف كنت تخبرين خبره وتسبرين غوره وتستشفين مكنون صدره؟

قالت مارغو :

ـ اعلمي أن الرجال لا تختلف أمورهم مهما تباينت رتبهم وتفاوتت درجاتهم . . إنهم سواسية لا فرق بين الحقير والمنظور ، والنبيل والمغمور ، متى تلظت في قلوبهم لواعج الحب . . فإنهم ينقلبون حمقى سخفاء ، يعجزهم العي ويقعدهم الحصر فلا يقدرون على النطق . . .

ـ وبم شعرت أنت؟ هل خفق قلبك خفقة الحب ! هل توردّت وجنتاك كما تتورد الخدود كلما اجتمع الحبيب بالحبيب؟ هل خدعتك النفس الختول فأصبت بالغرور؟ !

ـ كلاّ . . لم يُثر حسي ولم يَشْدُ قلبي بأغاني الحب . . ولكن نفسي كانت تمتلئ بالغرور . . فلا مندوحة لي عن الاعتراف ، ولا سيما ونحن في مقام مناجاة . . فالمرأة خيالية بطبعها وديدنها ، تستفزها أقل الأمور فتندفع ، ويستخفها الزهو كلّما أحبها رجل ، فتشمخ بأنفها كِبْراً وصَلفاً ، وتنأى عُجباً وأنفاً !

ـ أواه يا مارغو إن كلامك ليدخل في روعي أنك من غير طينتي . . وأكاد لا أصدقك . . فهل فقدت الحجى؟ أم أنت تهزلين؟ !

ـ لقد صدقتك القول يا عزيزتي ، وسوف أقص عليك ما وقع لي . . فراعيني سمعك :

منذ أربعة أعوام كنت في حاجة ماسة إلى خادمة حاذقة مدربة ، فجربت خمس فتيات ، لم ترق لي ولم تعجبني واحدة منهن . . فيئست وكدت أقطع الأمل وأكف عن البحث ، لولا اطلاعي مصادفة على إعلان في إحدى الصحف جاء فيه : (فتاة تجيد الخياطة والتطريز ، وتلم بالأصول واللياقة وآداب الحديث ، تطلب العمل) .

فلمّا أرسلت في طلب الفتاة جاءتني صبية متوسطة الطول ، أقرب إلى النحول ، يميل لونها إلى الشحوب ، ويبدو عليها الهدوء والسكون . . وكانت سجواء الطَّرف ، سوداء الحدقتين ، جذابة الملامح . . فما تمالكت عن أن أميل إليها ، وما عتمت أن طلبت منها الدليل على صدق ما ورد في الإعلان . فأبرزت كتاباً من سيدة إنكليزية زعمت أنها قضت في خدمتها عشر سنين . . فقرأت فيه : «إن روز مثال الخادم الأمين ، وقد تركت خدمتي مختارة لأنها أزمعت العودة إلى مسقط رأسها في فرنسا ، وهي حسنة الخلق جمة النشاط . . ولكنها كسائر بنات جنسها ، غنوج ذات دلّ . .» .

أعجبتني الفقرة الأخيرة التي إن دلت فهي تدل على براعة كاتبتها ولباقتها ورقة حاشيتها . وألحقت الفتاة بخدمتي . . وأدركت في نهاية الشهر الأول بأنني ظفرت بجوهرة . . بل حظيت بكنز . . .

فقد كانت ترجل شعري وتسرحه وتضفره بطريقة فريدة . . . وكانت تخطط شريط قبعتي بحذق ومهارة . . وكانت تخيط لي ثيابي كأنها خائطة قديرة . . . حتى أخذ مني العجب كل مأخذ ، ولم أجد لها مجارية في براعتها ومهارتها ، وفي تفانيها وإخلاصها . . .

وأخيراً فوّضت إليها أموري ووكلت إليها شؤوني ، وجنحت إلى الراحة والدعة ، وأنا مرتاحة البال ، واثقة من كفاءة روز ومقدرتها وأمانتها . . .

وأصدقك أني كنت أحس بالنشوة اللذيذة تسري في دمي كلّما ألبستني روز ثيابي أو نَضَتها عني . . فهي تخلع قميصي الحريري فلا تمس يدها بَشرتي . . وهي تنزع «جواربي» فلا تلمس أناملها ساقي . . .

ولطالما تضرّج وجهها بحمرة الخجل إبان قيامها بهذا العمل . . . ولكثر ما ارتجفت شفتاها القرمزيتان في أثناء انهماكها في غسل جسدي ودعك أعضائي وتدليكها بالطيب . . . وتبدّل رأيي فيها . . وتبدّلت نظراتي إليها . . فبعد أن كنت أعاملها كخادمة تافهة حقيرة ، أصبحت أعتبرها صديقة بائسة فقيرة . . .

إلى أن قصدني ذات يوم جندي كان في زمن مضى يعمل في الحجابة عند زوجي . . وأجفلني بقوله :

ـ سيدتي . . إن ضابط الأمن ينتظر الإذن بمقابلتك وجهاً لوجه !

فسألته متطيّرة :

ـ وماذا يروم ضابط الأمن مني؟ !

ـ بوده أن يفتش في البيت !

فتساءلت نافرة مشمئزة :

ـ يفتش بيتي ! ولماذا؟ !

ـ لأنه يظن بأن أحد المجرمين قد لاذ به واختبأ فيه !

فروعت وفزعت ، ودعوت الضابط على عجل ، ورجوت منه أن يطلعني على جلية الأمر . .

وكـان الضـابط دمثـاً أديبـاً ذا ثقـافـة وعلـم ، وقـد خلعت عليـه السلطات الحاكمة وسام جوقة الشرف تقديراً له واعترافاً بفضله . .

فلمّا دخل سلم علي وابتهل إلي أن لا أحنق عليه . . ثم زعم بأن مذنباً فاراً من وجه العدالة قد التحق بخدمتي واتخذ من بيتي كانفة تحجز العيون والأرصاد وحماة الأمن عنه . .

بغـتـتني المفـاجـأة ، حتى كـدت أفـقـد رشـدي ، بيد أني تمـالكت نفـسي ، وأكـدت له بأن داري خلو من المجـرمين . . وشـرعت أسـرد أسماء الخدم فأقول :

ـ هناك بيتر كورتن . . جندي هرم !

ـ لا . . ليس هو . .

ـ وهناك الحوذي فرنسيس !

ـ ولا هذا . .

ـ والسائس ! والحاجب الذي استقبلك ودعاك إلى الدخول !

ـ لا . . إنهما ليسا هو . .

ـ إذاً . . لا مرية أنك خدعت ، وضللت الطريق . . !

ـ إني لعلى يقين من وجوده في بيـتك ، فالهارب من العقـاب لا تدل سيـماؤه على إجرامه . . وأكـون لك من الحـامدين إن طلبت من خدمك المثول بين يديك لأراهم مرأى العين . . .

فلمّا دعوتهم ، حدق في أساريرهم ، ثم هز رأسه وقال :

ـ إنهم ليسوا جميع خدمك يا سيدتي !

فقلت :

ـ المعـذرة يا سيدي ، لم يتـخلّف إلاّ خادمتي الخـاصة ، بل رفـيقـتي الأثيـرة . . وأنت لـو علمت مـا تتـحلى به هذه الفـتـاة من الصـفـات

الحميدة والشمائل الكريمة ، لما عبأت بها أو اكترثت بمرآها . .

قال :

ـ لا يضيرني مشاهدتها فمريها أن تأتي . .

فعجبت من تشبثه بما لا طائلة فيه ، بيد أني امتثلت ما أمر ، وقرعت الجرس . . وظهرت روز . .

فحدّد الضابط نظره في وجهها ، ولم يلبث أن أشار على رجاله ، فأطبقوا عليها وشدوا وثاقها . . !

فانتفضت من مكاني لأدفع عنها الأذى . . وصرخت غضبى :

ـ اتركوها . . اتركوها . . ما شأنكم بها؟ !

فهرع إليّ الضابط وقال متلطّفاً مستمهلاً :

ـ رويدك يا سيدتي ، لا تتسرعي في العذل ، إن الفتاة رجل آثم ، أُدين بتهمة القتل وحكم عليه بالإعدام في عام ١٨٧٩ ، وكان قبل ذلك قد غصب فتاة وزنى بها كرهاً . . . وقد خفف الحكم فيما بعد من الإعدام إلى السجن مدى الحياة . . . غير أنه استطاع الإفلات من السجن ، ولم نزل نتعقبه ونقصّ أثره منذ أربعة أشهر حتى اهتدينا إليه . . .

فلمّا استوعبت حديثه ، عجزت عن التكلم من كثرة الغم والخوف ، وتلبثت أنتظر على مضض وأنا في شك مما سمعت ووعيت . . .

وكأنه تكهّن بما أضمرته في قلبي من التكذيب ، فقال ضاحكاً :

ـ ليس أيسر ولا أسهل من إقامة الحجة والدليل ، حتى يثبت عندك الأمر ويتحقق . . . ففي يده اليمنى علامة فارقة أو وَشْم لا يزول . . . فانظريه . . .

ورأيت الوشم . . . فزال الشك . . . وحصحص الحق . . ! وأردف الضابط :

ـ لا غرو أنك اكتفيت بما رأيت ، وأنه لم يعد هناك من حاجة إلى إقامة برهان ثان على صحة ما ذهبت إليه؟

فطأطأت رأسي وأغضيت عيني ، وصمتّ صمت من أفحم . . .

وانصرف الضابط ورجاله وروز معهم . . .

لم يستحوذ عليّ الخجل لأن رجلاً كان يجردني من ثيابي ويدعك جسدي ، وينظر إليّ عارية كما خلقني ربي . . . ما باليت ذلك وما حفلته . . . ولو اقتصر الأمر على هذا لما اهتممت وما اغتممت . . إلاّ أن ما اعتراني من الاكتئاب والحزن المقرونين بالغيظ والحنق كان لأن رجلاً ماكراً خدعني وسخر مني وعبث بي . . . فديست بذلك كرامتي كامرأة . . وجرحت كبريائي كجميلة بين النساء . . وذللت . . وامتهنت . . وأهنت . . أتفهمين؟

ـ لا . . لا أفهم ما تعنين . . !

ـ فكّري قليلاً ـ لقد حوكم هذا الرجل وأُدين لأنه اغتصب عرض امرأة وأكرهها على ما كانت به ضنينة . . . وهذا ما كربني وقهرني . . . أتفهمين الآن؟

فلم تجبها سيمون ، وطفقت تنظر إلى الزرين اللامعين وقد اختلجت شفتاها ، وتورّدت وجنتاها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة غامضة تجلى فيها ما ارتسمت صوره في ذهنها ، وما هجست مآربه في فكرها . . . وتوقدت عيناها وتنوّرتا . . . وكأنهما تنطقان بما عزمت على قصده !

الحاجب

ازدحمت المقبرة بالضباط على اختلاف رتبهم ، وكانت ملابسهم المبرقشة ، المتعددة الألوان ، تضفي على المكان منظر روضة ذات أزهار متنوعة . . وكانت الأضرحة منبثة في كل ناحية ، وقد رُجمت بالصلبان المنشورة الأيدي ، حتى لكأنها سواعد الحزن والأسى منبسطة فوق جنس تلاشى وامحى وأضحى أثراً بعد عين . .

وتجمّع الضباط على قبر يحفر لزوجة الكولونيل ليموزين الحسناء الغضة الإهاب التي لم يشفق البحر على شبابها ، أو لعله افتتن بملاحتها ، فاحتضنها إليه وضمها إلى صدره ، ولـمّا قضى منها وطراً ، عاد فلفظها ، بعد يومين ، جثة هامدة خامدة . .

وبعد أن انتهت مراسيم الجنازة ، غادر المشيعون المقبرة ، وبقي اثنان من الضباط مع زميلهم الكولونيل المفؤود القانط الذي ما برح يحملق في قبر زوجته ، ويطيل النظر إلى الجدث الذي أودع فيه نعشها ، حتى كاد ينهار فوق الحطام ، ويحط إلى اللحد ، ليشارك حبيبة قلبه في الحيز الضيق الذي أصبح مثواها وسكناها !

وكان الكولونيل كهلاً طويل القامة صلب العود مهيب الطلعة ، وكان قد اقترن بابنة صديقه الكولونيل سورتس عقب وفاة هذا الصديق منذ ثلاث سنين ، لكي يذود عن الفتاة المسكينة شرّ التفرد بالحياة ويدرأ عنها مرارة الحرمان من الأهل والمال .

وحاول الضابطان اللذان لازما الكولونيل المرزوء أن ينأيا به عن الضريح ، ولكنه ما تزحزح من مكانه ، بل خاطبهما وهو يسبل الدمع

الغزير بقوله : «اتركاني ناشدتكما الله حتى أقضي بجوارها فينة أخرى . .» وعاد فرنا إلى اللحد الذي خُيل إليه أنه هوة سحيقة عميقة لا قرار لها . . وأنه أودع في جوفها قلبه وحياته . !

واستبطأه الجنرال أرمونت فرجع أدراجه ، وما زال به يسرّي عنه ويأسوه ويصبره على الجائحة القاصمة ، حتى ذعن له فغادر رمس حليلته ، ودبّ إلى مسكنه دبيب المدنف المشرف على الهلاك .

وعند وصوله انتبذ حجرة المكتبة وتهالك على المقعد من الوجد وشرع ينتحب .

ولـمّا انقطعت دمعته وانفثأت لوعته ، حانت منه التفاتة ، فأخذ طرفه رسالة تبيّن منها خط زوجه الراحلة ! فوجب قلبه وشحب وجهه ، ولكنه تمالك روعه واستعاد رباطة جأشه وفضّ الرسالة فإذا فيها مكتوب :

«يا أبت . . اسمح لي أن أدعوك أبي كما كنت أفعل قبلاً . . إنني سأبوح لك بسري المغلق المكنون ، ولكنك لن تطلع على باطن أمري ، قبل انتقالي من عالمكم هذا إلى عالم مجهول غير منظور . !

«ولست متطلعة إلى رحمتك أو غفرانك ، ولا طامعة في عطفك أو حنانك ، ولا متشوفة إلى استثارة شعورك الطيب ، لتعذرني وتبرّر ضعفي ووهني ، وتغضي عن زلتي ، وتصفح عن هفوتي !! لا . . ولا أحاول التنصّل مما اجترحت . . وإنما أتوخى إطلاعك على الحقيقة الكاملة . . فأعلمك بإخلاص امرأة ستفارق الحياة بعد حين ، بمأساتها التي جعلتها تؤثر الموت وتفضله ، وتفصم حبل حياتها بيدها !!

«يوم استفزك حنانك وشفقتك ، وحثتك أخلاقك الكريمة وسجاياك النبيلة على اتخاذي حليلة ، سررت بذلك ، لأنني شعرت ، بعد وفاة

والدي ، بالذل والاستكانة ، ووددت من صميم الفؤاد لو تزوجني رجل شريف محترم ، ليضعني تحت كنفه ويحافظ عليّ ويكلأني برعايته .

«فلمّا اقترنت بي وهبتك نفسي ، وأحببتك بجميع قلبي وحسي - أحببتك كما كنت أحب أبي . . أجل كما كنت أحب أبي . . وفي ذات يوم ، وبينما كنت جالسة على ركبتك القوية ، وأنت تدللني وتداعب خصلات شعري ، وتقبّلني كما يقبل الأب فتاته ، إذ زل لساني فدعوتك أبي - وهذا وأيم الحق هو نداء القلب والشعور ، لأني لم أعثر لك في مهجتي على أجمل من هذا الاسم أسميك به ، ولا أفضل من هذا اللفظ أطلقه على شخصك - ندمت لأول وهلة على ما فرّط به لساني ، وسُقط في يدي ، وأخذتني الشفقة عليك ، لأنه وقع في خلدي أنني طعنتك طعنة نجلاء في صميم كبريائك ورجولتك .! ولكن سرعان ما تبددت هواجسي ، وزالت مخاوفي ، حينما استغرقت في الضحك وقلت وأنت تهدهد خدي : إن نفسي لتطيب بهذا النداء . . . وإن هذا الاسم ليضيف إلى سعادتي بك نشوة طافحة جديدة لم يسبق أن سبرتها . . .

«وارتحلنا عن الريف وشخصنا إلى المدينة ، ومكثنا فيها ردحاً مديداً - واغفر لي يا أبي - فقد وقعت في شرك الهوى ! آه . . ! لقد قاومت وناضلت وكافحت . . وبذلت جهدي حتى آمن العثار . . ومضى حول وتبعه آخر . . ولكن . . تلاشت عزيمتي أخيراً ، وانهارت مقاومتي ، واستجبت لنداء العاطفة المشبوبة المتقدة . . ورضخت لسلطان الحب القهار . . وأطعت الهوى غافلة عن الشرف . . وأصبحت امرأة ساقطة . . !

«أمّا هذا الذي تيمني حبه فلن تعلم عنه شيئاً . . فهو ضابط من بين اثني عشر ضابطاً ، حاموا حولي وأحاطوا بي إحاطة الهالة بالقمر ـ على حد تعبيرك ـ لن تعرفه يا أبي . . وأرجوك أن لا تبغضه وتشنأه فهو لم يفعل إلاّ ما يفعله أي رجل سواه . . وقد أحبني ومحضني وده وإخلاصه . .

«وثم أمر آخر أود أن أنبئك به وأطلعك عليه . . ففي أحد الأيام كنت على ميعاد مع خليلي في جزيرة بكاسي الصغيرة القريبة من هذا المكان ، فبادرت إلى الجزيرة وسبحت هذه المسافة القصيرة والتقيت به تحت شجرة تأخذ بين المشرق إلى المغرب بظلها الظليل . وما كاد الحبيب يطويني بين يديه ويرشف رضاب شفتي ، حتى انحسرت الأغصان الكثيفة عن وجه حاجبك فيليب . . فروعت لمرآه وتخاذلت قوتي ، وخلت أني خسرت حياتي وفقدت مستقبلي . . فصرخت صوتاً مزّق حجب السكون . . ومزّق نياط قلب حبيبي الحنون . . إلاّ أنه رجاني أن لا أرخي العنان ليأسي ، وأنشأ يقول : خففي عن نفسك أيتها الحبيبة ، وهدئي من روعك . . . وارجعي إلى منزلك واتركيني مع هذا الرجل . . فغادرته وقفلت راجعة . وأشرفت على الغرق مراراً لولا بقية من قوة وبقية من أمل ، حفزتني على مصارعة الموج ومغالبة اليأس ومكافحة الموت ، والوصول في النهاية إلى شاطئ السلامة . .

«وبعد ساعة من الزمن التقيت بفيليب في الدهليز المؤدي إلى قاعة الاستقبال ، فدنا مني وبادرني بصوت منخفض : إنني أطوع لكِ من بنانك يا سيدتي . . وخادمك المخلص الأمين . . فمري أنفذ كلَ ما تبتغين . ! فأدركت أنه باع نفسه . . وأن عشيقي دفع ثمناً باهظاً

لتغاضيه وسكوته . . !

«وتوالت الأيام ومرّ شهران كاملان ، كان فيليب في خلالها مثال الخادم الأمين ، والبريد الحريص على الرسائل المتبادلة . . فأفرخ روعي ووثقت به وأمنت جانبه ، كما كنت تثق به أنت وتأتمنه على أسرارك وأعمالك . !

«ولكن جرى ما لم يكن في الحسبان . . . وتلا الهدوء والاطمئنان فزع واضطراب جاشا في الصدر كما يجيش البركان . . ففي الجزيرة نفسها تراءى لي ، في أصيل أحد الأيام ، شبح فيليب الرجيم مستذر بالأيكة المختارة . . فجزعت وفرقت ، ونكصت أبغي الفرار ، بيد أنهّ تصدى لي واعترض سبيلي وخيرني بين أمرين لا ثالث لهما ـ إمّا أن أهبه نفسي وجسدي ، وإمّا أن يفشي سري ويطلعك على رسائلي . ! !

«طارت نفسي شعاعاً . . . وخفت كما لم يخف إنسان . . خفت منك لأنك شريف ثلمت شرفك . . . وكريم كافأتك على سمو نفسك بالخيانة الكبرى ! ! وخفت عليه ـ على حبيبي ـ وخشيت أن تسقيه كأس الردى ! أغدقت العطاء وسخوت في البذل ، وتضرعت إليه ورجوته أن يشفق على ضعفي . . . فلم تلن له قناة ، ولم يرق له شعور وظل يراودني عن نفسي وجسمي . . لأنه ـ كما قال ـ أحبني وتعشقني واشتهى جسدي . . !

«ونحن النساء ضعيفات الإرادة ، سقيمات التفكير ، سرعان ما تحطمنا الصدمات ، وتتركنا أشلاء ممزقة . ... ونحن النساء عندما تسقط إحدانا تتردى بسرعة البرق ، وتستمر في السقوط ، حتى يصل بها فسقها ودعارتها إلى الدرك الأسفل . . . وهكذا انغمست في حمأتي تنتابني الأفكار المربدة ، وتقض مضجعي الأحلام المروعة . . .

حتى أيقنت في نهاية الأمر بأنه لا بد لواحد منا نحن الثلاثة أن يمضي ويزول . . !

«واعلم يا أبي بأني لا أحاول التنصّل من هفوتي ، فإنني بمحض اختياري خلعت العذار وسعيت إلى المعاصي . . . واعلم كذلك أني كنت قصيرة النظر كليلة البصر ، واهنة البصيرة . . . فقد حدث بعد أن رضخت لهذا الوحش ، ما لم أحدسه أو أتنبأ به . . لأنه طفق يقسرني على ما لا طاقة لي عليه ، ويهددني بالنميمة ويتوعدني بالسعي إلى الفضيحة كلّما صادف مني إعراضاً . . ! فكرهت نفسي . . وكرهت الحياة . . ولم أعد أطيق العبودية التي فرضت على جسمي وعقلي ! ولكنه العقاب . . . وأي عقاب أصرم منه وأشد إيلاماً . . . يا أبي ؟ !

«وكثر ما عادني شوق إلى حياة الاستقامة والشرف ، ولكن . . أنّى لي ذلك ما دام قلبي يتنازعه عاملان متناقضان متضادان ـ سلطان الحب الجبار الذي استولى عليه فسلبه الحول والطول . . . والهلع من فيليب المخيف الذي أذله وسامه الخسف . . . !

«لقد انتهى إذاً كل شيء . . . يجب أن أموت . . . فالموت ينقذني من غرام كساني الخزي والعار . . . ولأني إن ظللت حية ، لا أجرؤ على مكاشفتك بخبيئة أمري ، والاعتراف لك بجريرتي . . . فإلام أستمر على غيّي وحتّام أتناهى في دعري؟ لقد لطخت جسدي بالفجور ، ودنست روحي بالزناء ، ولن يغسل أدراني أو يطهر روحي الملوثة بأقذار الرِّجس والنَّجس إلاّ الموت الزؤام !

«سوف أذهب إلى البحر . . . ولن أرجع . . . وسوف أبعث برسالتي هذه إلى خليلي ليستلمها بعد أن تتلقفني اللجة ، فيوصلها إليك تنفيذاً لرغبتي الأخيرة !

«الوداع يا أبي . . . الوداع . . لقد بحت لك بقصتي مع حبيبي المجهول . . . وقصة حاجبك فيليب . . . فاحكم بما يجب . . . واصنع ما يليق بك . . . واصفح عني ، وعفواً على ما اجترحت !» .

تندى جبين الكولونيل من العرق ، وشعر بهم برّح به استعارهُ ، غير أنه كتم ما اختلج في صدره ، واستعاد هدوءه الذي كان يتذرع به وهو يقتحم المهالك إبان الحروب . . . ثم قرع الجرس لخادمه الذي ما كاد يظهر على عتبة الباب حتى أمره أن يستدعي فيليب .

وما عتّم أن ولج الحجرة جندي كبير الجثة ، فارع الطول ، أحمر الشعر والشارب ، تلمع في محجريه عينان تمضان بالاحتيال والمخاتلة ، وتنمان عن مكر صاحبهما وخديعته . . . فلمّا مثل بين يدي الكولونيل ، حدد هذا نظره فيه وقال : «أصدقني القول يا فيليب . . من هو عشيق زوجتي؟» .

فارتعد الرجل فرقاً واضطرب هلعاً ، غير أنه تجلّد وأجاب الكولونيل قائلاً : إنني . . . إنني . . لا أعرف . . . ماذا تقول . . . يا سيدي؟

فانتضى الكولونيل مسدسه وصوبه إليه وقال : أسرع ! أسرع فه باسمه ! فأنا لا أمزح ولا أهزل !

فقال : ما دام سيدي يصر على معرفته ، فهو الكابتن سان ألبرت . . !

ما كاد فيليب يلفظ الحرف الأخير من الاسم ، حتى ومضت بين عينيه شعلة انكفأ بعدها على وجهه . . . فقد اخترقت جبينه رصاصة من مسدس الكولونيل ، استقرت في جمجمته !

يوميات مخبول

وافاه الأجل ، فقضى نحبه كرجل من خيرة الناس ، حكم وساس ، وترأس محكمة العدل ، فنزّه نفسه عن القبيح ، وصانها عن المُنكر ، وعفّ عمّا لا يحلّ قولاً وفعلاً .

وحيوه تحية التبجيل والتعظيم ، وطأطأوا رؤوسهم وعطفوا إلى نعشه بضراعة في القلب وخشوع في الجوارح . ، وتمثّلت لهم تقاطيعه الجميلة وملامحه النبيلة ، فترحّموا عليه وعلى علمه وكفاءته ومقدرته .

لقد مارس القضاء ، فحارب الجريمة وعاقب المجرمين ، ووقى الضعفاء وصان المساكين ، واقتص من الطغاة والعابثين بالأمن والمستهترين .

خافه اللصوص والمختلسون ، وفزع منه القتلة والسفاحون ـ فهو القَرْم العنيد ، والجبار الشديد ، والعالم العارف بخفايا الصدور ، الملم بالنيات والضمائر والسرائر ، السابر غور ذوي الأكباد الغليظة ، المتربص بكل نفس حَوْباء أمّارة بالسوء . .

غير أن كل أجل له ميعاد ، وكل جسد مهما طال به الأمد مُعاد ! وهكذا حان حَين القاضي العادل ، فمات مأسوفاً عليه ، مبكياً على أفعاله ، فحزن عليه الشعب وبكاه ، وكرمه الشعب وخلد ذكراه . . . ومشى في جنازته جنود في لباس أحمر ، ورجال في زي أسود . . وقد سكبوا على قبره دموع اللوعة والحسرة التي تمخض عنها شعورهم بفداحة الخسارة .

ولكن . . . أصخ إلى ما ورد في وثيقة عظيمة الأهمية غريبة الموضوع ، عثر عليها مسجل العقود المشدوه عند مراجعته لأوراق القاضي الراحل الخاصة بالجناة العتاة . . وقد عنونها :

لماذا؟

٢٠ حزيران/ **يونيو ١٨٥١** : غادرت منصتي منذ هنيهة بعدما ناقشت «بلوند» الحساب ، وبعثت به إلى شفرة المقصلة .

لِمَ قتل هذا الرجل أولاده الخمسة؟ سؤال حائر يتبادر إلى كل ذهن ، فلا يلقى سوى الحيرة والارتباك ، ترتسم خطوطهما في صفحات الوجوه المتجهمة المشمئزة .

ربّ إنسيٍّ تلتذ روحه بالقتل ! فهل للقتل لذة؟ وهل في ممارسته نشوة؟

أجل ، أجل ، إنها لذة فائقة لا شبيه لها . . فالقتل كالأكل ! ـ لتصنع وتلاشي . . لتبني وتهدم . . هذه الكلمات تشمل تاريخ الأرض وما عليها . . القتل ! ألا يسكر كما يسكر الخمر؟ ألا يثمل كما تثمل الصهباء؟ !

٢٥ حزيران/ **يونيو** : مخلوق يعيش ويمشي . . مخلوق ! ما هو المخلوق؟ كائن ذو حياة ، يحمل في ذاته قواعد الحركة ، ويتمتع بإرادة متحكمة بهذه القواعد مسيطرة عليها . . . إنه بُرّة الحياة ، وهو الحياة المتحركة الكادة الكادحة . . . وحقيقة هذه البُرة مجهولة وهويتها مطموسة ! وإتلافها هين يسير ، ومن أراد ذلك دان له التوفيق ! فتزول وتدول؟ وينتهي بها المصير إلى العدم والاضمحلال التام !

٢٦ حزيران/ **يونيو** : أنا آسف على تهويل الناس لهذه الغريزة

وتشنيعهم لأمرها وشنهم الحرب عليها! فالقتل سنّة الطبيعة! وكل كائن يقتل ليعيش ويعيش ليقتل! فالوحش يقتل ما شاء له القتل، والإنسان يقتل ليطمئن خلده إلى البقاء ـ ليقيت جسده وإحساسه ـ لقد ابتدع الصيد واتخذه ملهاة يزجي به أوقاته . .

والطفل تطربه الإبادة، فيقتل متعمداً جذلاً ما لا يحصى من الحشرات والعصافير!

ولكن هذا لا يبدد شوقنا إلى إزهاق الأرواح . . فقتل الحيوان لا ينقع الغليل ولا يشبع الرغبة الجامحة . . ولا يخمد ذلك الأوار المستعر في قرارة النفوس إلاّ بقتل من حظر قتله! وعلى هذا أعلنّا الحروب المبيدة المهلكة، فقتلت أمم بأسرها، ونحرت شعوب بكاملها! واحتفلنا بذلك، وشدونا بالنصر الذي ظفرت به الغريزة، وجعلنا منه عيداً قومياً وطنياً ـ عيد الدم . . عيد الجنون . . عيد الجيوش التي أخذت برأسها سورة القتل . . عيد المدنيين الذين يطالعون بلهفة واشتياق قصة المجزرة الآدمية الدامية!

ثم ننصّب للقادة أقواس النصر، ونزين الميادين احتفاء بهم، وننثر الأزهار في طريقهم، ونكرمهم ونخلد أسماءهم وأفعالهم، ونحلي صدورهم بالأوسمة، ونضفي على أسمائهم الألقاب الضخمة! كل ذلك لأنهم عرفوا كيف تسفك الدماء وتمزق الأشلاء . . . فإن رأيتهم ألفيتهم يتيهون فخراً ويختالون كبراً، ويجررون سيوفهم على طوار الدور، فينظر إليهم المتسربلون بالسواد والمتلفعون بأثواب الحداد نظرات الإعجاب والحسد . . لأنهم استباحوا الذمار وحضوا على القتال، ورضخوا لقانون الطبيعة الجبار المنسكب في كل قلب ـ غريزة جميلة رائعة تعيش ما عاش الإنسان، وتنتقل إلى غيره كلما انطلقت

روحه من إسارها ، وانفلتت من محبسها ! .

٣٠ حزيران/ يونيو : القتل هو القانون ! لأن الطبيعة تحب الصبا والخلود ! وإخالها تهتف في غفلتها في أثناء قيامها بأعبائها : «أسرع ! أسرع ! أسرع !» وكأنها تجدد ذاتها كلما أمعنت في الإتلاف وبالغت في الإفناء !

٣ تموز/ يوليو : لا غرو أن القتل لذة النفس القصوى . . فواهاً لك ثم واهاً لو وضع أمامك كائن حيّ مفكر ، لتثقب في جسده ثقباً ينبثق منه سائل أحمر اللون ـ هو الدم . . هو الحياة ـ ولتجده من بعد كومة من بضيع رخو بارد فاقد الحس والتفكير . .

٥ آب/ أغسطس : أنا . . أنا الذي قضيت السنين أعاقب المجرمين ، وأقاضي من نكب عن الطريق القويم . . وأقتل بكلمة . . أقتل بالمقصلة من قتل بالخنجر . . ماذا لو اقتديت بالسفاكين؟ ونسجت على منوال من سقيتهم كأس المنون؟ أنا ، أنا ، ـ هل يميط اللثام عن سري أحد؟ هل يسبر غوري إنسان لو أنا مارست بدائع الشرور وسعيت إلى المعاصي ، وقتلت من لا أفيد من موته؟ !

٢٢ آب/ أغسطس : طغت عليّ التجربة ، فانهارت مقاومتي . . فقتلت . . ! إن خادمي الصغير جين يملك حسوناً جميلاً ، وهو يحبه ويعنى به . أرسلت جين في مهمة ، ثم أخذت العصفور من قفصه ، فسمعت ذكذكة قلبه وشعرت بدفء جسده . . سعيت إلى غرفتي والعصفور في قبضتي ، فأخذت أعصر الجسم الضعيف ، فاشتد خفق القلب . . فبهتّ وذهلت وشعرت بشناعة ما أنا صانع . . وتلذذت . . ولكني لم أر الدماء ، فقطعت بمطواة مسنونة عنق العصفور في ثلاثة مواضع ، ففتح منقاره ألماً ، وكافح من أجل الحياة ، وانتفض يحاول

الإفلات ، وشعرت في تلك الدقيقة بأنني قادر على قتل كلب عقور لا عصفور ضعيف مبهور . . ورأيت الدم يَتَحَلّب ويَنِزّ ، وكانت قطراته القليلة قانئة حمراء . . !

وكما يفعل المجرم العريق في الإجرام ، غسلت المطواة وأزلت آثار الدم ، ثم حملت الضحية إلى الحديقة ، فدفنتها تحت إجاصة ـ إن الحياة جميلة باهرة الجمال ، وإنها هنيئة سائغة متى عرف الإنسان كيف يعيش وكيف يتمتع بالحياة !

٢٥ آب/ أغسطس : يجب عليّ أن أقتل إنساناً ! أن أزهق روحاً ! أن أطفئ حياة !

٣٠ آب/ أغسطس : وفعلت ما استوجبت ، إنه لأمر تافه يسير ! لقد قصدت ضحى اليوم غابة ڤرن . وفيما أنا أتخلل أشجار الغابة ، أبصرت غلاماً يطعم الخبز والزبد ، فلمّا عرفني ألقى عليّ تحية لطيفة مؤنسة . . فخفق قلبي بشدة عجيبة . . . وحثّتني فكرة رهيبة . . . هل أقتل؟ هل أقتل هذا الغلام؟ !

وقلت له متلطّفاً : «هل يممت الغابة وحدك يا فتى؟» .

فأجابني بسذاجة : «أجل يا سيدي الرئيس !» .

فدنوت منه متئداً ، وقبضت على عنقه بغتة ! فارتعش الجسد الصغير واهتز كما تهتز ريشة تحتها نار متلهبة ! وما هي إلاّ دقيقة حتى سكنت خلجته وسكتت نأمته ، وتراخى جسده ! فطرحته في حفرة كثيرة العشب ، وقفلت راجعاً وقد ذهب بي المرح كل مذهب ، فأقبلت على الطعام ألتهمه بشهية ورغبة شديدة ! ولكنني لم أبصر دماً . . . فكيف أكون مرتاح البال مطمئن القلب؟ !

٣١ آب/ أغسطس : عثر على جثة الغلام . إنهم يحققون في الجريمة .

١ أيلول/ سبتمبر : ألقي القبض على عابرَي سبيل . . . ولكن أنّى للنيابة البراهين والأدلة المثبتة؟

٢ أيلول/ سبتمبر : هرع إليّ الوالدان المفؤودان ، وقد لوعتهما المصيبة وأحرقت كبديهما الفاجعة ، فانتحبا وذرفا الدمع الهتون . . !

٦ أيلول/ سبتمبر : فشل المحققون ، وثبط الفشل عزائم المسؤولين ، وعُزيت الجريمة إلى متشرد مجهول . . . أواه ! لو رأيت الدم مهروقاً ، لكنت الآن أشعر بالسعادة والبلهنية . . !

١٠ تشرين أول/ أكتوبر : قتلت رجلاً ! فبينما كنت أسير على ضفة النهر ، رأيت صياداً قد استذرى بصفصافة ، واستظل بظلها . استرقت النظر إليه ، فألفيته نائماً وبجانبه معول مغروس في الأرض . . . وخيل إليّ أن الحظ يسّره لي . . فاقتلعته من مكانه وهجمت نحو النائم فأهويت على رأسه بالمعول ، فشدخ وتفجرت منه الدماء وسالت على الحصباء كجدول صغير واختلطت بماء النهر ! غادرت الحطام متزن الخطى ثابت القلب رابط الجأش !

٢٥ تشرين أول/ أكتوبر : أثارت الجريمة ضجة صاخبة . . وقد حامت الشبهات حول ابن أخيه الشاب . .

٢٦ تشرين أول/ أكتوبر : حبك قاضي التحقيق خيوط الاتهام بما لم يدع مجالاً للشك في أن الشاب هو المجرم العُتُل الزنيم !

٢٧ تشرين أول/ أكتوبر : بدا الشاب المتهم متخاذلاً مضعضع الحواس ، فأساء إلى نفسه ، وعزز دفاعه الضعيف السقيم قوة الاتهام ! قال : «إن الجريمة وقعت إبان غيبته ، وأقسم على صحة قوله ، وزعم

بأنه انطلق إلى القرية ليشتري خبزاً وجبناً . . .» فمن يصدق مزاعمه؟ من يصدق اختلاق هذا الخرّاص؟ !

٢٨ تشرين أول/ أكتوبر : أقرّ المتهم واعترف بما جنى واقترف ! لقد أكرهوه على الاعتراف . . ولا شك أنهم أفقدوه عقله ، وسلبوه حجاه وفطنته . . !

١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر : الدلائل قوية ، والبراهين لا تدحض ، فهو وريث عمه الوحيد ! أُحيلت إليّ القضية ! سأترأس هيئة المحكمة عند نظر القضية !

٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٥٢ : إلى الموت ، إلى الموت ، لقد قضيت بالموت على المتهم . تكلّم النائب العام فأجاد وكان عادلاً ، لقد دافع عن الحق العام وحث على اجتثاث شجرة الجريمة . آه ! مخلوق آخر يوسع الخطى نحو الموت . . سوف أشرف على التنفيذ !

١٠ آذار/ مارس : انتهى أمره . . . فصلت سكين المقصلة رأسه عن جسمه ! مات ميتة رائعة . . . فشعرت بالرضا والسرور ! ما أجمل الموت ، ما أروع صوره ، لشد ما يبهر بصري منظر رأس مقطوعة !

سأنتظر الآن ، ففي طوقي الانتظار !

*

فلمّا فضح المعمّى ، وعرف فحوى الوثيقة ، واطلع على نُكر القاضي ، أُحيلت الصحائف الدامية إلى رهط من النطس المتخصصين بالأمراض العقلية ، فاجتمع رأيهم ، بعد مماراة ومجادلة ، بأن في الدنيا خلائق باطنهم يباين ظاهرهم ، وحذقهم يستر قبحهم ، ومهارتهم تخفي فحول ضمائرهم . ! وأن أمثال هذا العَيّاث توجد مدسوسة بكثرة مع الصالحين ـ تَمثُل وتنكل وتفسد في الأرض الطيبة !

الخيال

اجتمعت في مساء أحد الأيام برهط من الأصدقاء والأخوان ، فطفقنا نتفكه بالحديث ونفجر ينابيع النكت والنخب ، حتى انتهى بنا الأمر إلى البحث عن الأشباح والأخيلة ، وأقبلنا نستخرج خيار الحكايات عن الأرواح ـ وهذا البحث شائك عسير ، فقد اختلف الناس في الروح ، فمنهم من زعم بأنها جوهر فرد ، ومنه من ادعى بأنها جسم لطيف هيولي كالبخار ، ومنهم من قال إن الروح هي الهواء ، أو إنها الدماء ـ فشرع كل واحد منا يروي ما تعيه الذاكرة ، ويحفظه الذهن ، حتى تنحنح رجل ذو لحية كثة ، فرنونا إليه ، فإذا به المركيز دي لتور سمويل ، الشيخ الذي يناهز العمرين ، فأنصتنا إليه وقد شاقنا أن نخبُر خُبره لما نعلم من سعة اطلاعه وحسن أدائه . . . قال :

الصدق أيها الأخوان حقيق أن يستمع ، وسأكون صادقاً فيما أقول ، وسأتوخى الحقيقة الدقيقة فيما أسرد ، فأصيخوا إليّ وأصغوا إلى حديثي . . .

فقد وقع لي حادث مفجع موجع ما زال يتمثّل بجلاء ووضوح في ذهني منذ ست وخمسين سنة ، فيرمضني ويعذبني ويمثّل بي . . وبالرغم من تصرم هذه الأعوام الكثيرة ، فإنني لا أزال أعاني العذاب المر من جرّاءه . . . فكلّما لفني الليل بوشاحه المظلم الموحش ، وانتجعت الفراش طلباً للهجوع ، ألّمت بي الأحلام ورأيت الرؤى وطوّفت بي الأخيلة . . . حتى إنها تركت في عقلي وقلبي آثاراً هائلة من آثار الخوف والفزع والرهبة ترتعد منها فرائصي وتصطك أسناني . .

وإنني لأرتجف فرقاً كلّما فجأني صوت غير منتظر أو بغتتني ضجة ليست متوقعة . . . وإنني لأشعر بحافز يحفزني إلى الفرار والهرب كلّما أبصرت في بهيم الليل شيئاً لا أتميز كنهه أو لا أعرف خيره من شره . . . ومختصر القول أني أستعيذ من الليل وظلامه ، ومن السهد الذي تكتحل به أجفاني حالما تفزعني أحلامي . . .

ولكنني ما كنت لأجاهر بهذه الخلة المرذولة الخسيسة لو لم أبلغ أرذل العمر ، وأنتظر أن يتخرمني الموت في كل لحظة . . .

وكثر ما أقلقتْ بالي هذه الحادثة وكدرت عليّ عيشي ، وسأقصها على سمعكم الآن ـ ولأول مرة ـ كما حدثت دون أن أوضح لكم ألغازها ، لأني أعجز من أن أبيّن ما اعتور هذه المأساة من إبهام وما اكتنفها من غموض . . . !

ففي أحد أيام يوليو (تموز) عام ١٨٢٧ ، وبينما كنت أطوف في ميادين روان ، تقابلت وجهاً لوجه برجل ظننت أني أعرفه ، ولكن لم أذكره . فوقفت في مكاني أرقبه وأشحذ الذهن لعلّي أتذكره . ولحظ الرجل تردّدي وارتباكي ، فالتفت إليّ ، وما عتم أن أقبل عليّ يهرع ، فصافحني وعانقني . . وسرعان ما تحوّل الشك يقيناً ، فعرفته ، وعرفت فيه صديقاً حميماً من أصدقاء الصبا ، تعاشرنا وتخالطنا ثم افترقنا ، فغاب عني شخصه خمس سنين ، لهذا شدهت ساعة رأيت علامة الشيخوخة تسمه بسيمائها ، وأمارة الوهن والضعف تلوح على جسمه وحركته . . فقد كان وقتئذ في رَيّق العمر ومقتبل الشباب ، إلاّ أنه بدا الآن محدودب الظهر ، مغضن الوجه ، وَخَطَ الشيب شعره ، ورسم الهمّ خطوطه على جبينه .

وكأنه أدرك ما تسلّط عليّ من الشداه والحيرة ، فربَّت على كتفي

واندفع على التوّ يطلعني على باطن سره ، ويبثني دفين أمره . . قال :

«تعـرّفت على فـتاة حـسنة الخُلُق والخَلْق ، فـبهـرني مـا رأيت من جمالها ، وراعني ما شاهدت من دماثتها ورقة طبعها ، واعتبرت نفسي أسعد الناس يوم اتخذتني بعلاً لها . . وعشت معها لا كما يعيش أهل الأرض . . عـشت في دنيـا من الأحـلام الزاهرة . . وأحطتـهـا بحـبي وحناني . . وأضْفَت عليّ حبيبتي ، من حبهـا وحنانها ، فيضاً زاخراً صيّرني عاشقاً وصيّرها معشوقة .

لكنها قضت نحبهـا ـ ويا ليتني مُت أنا ـ ماتت بداء السكتة بعد مرور عـام على زواجنا . . فغـادرت قصري وأقمت في روان . وعشت في هذا الطور لا كـما يعيش الأحياء ، بل كما يعيش من ينشد الموت فيتهرّب منه ، ومن يطلب الفوت فيتزاور عنه . .

ثم توسّل إليّ أن أعـينه في قضـاء حاجـة لا يستطيع أن يقـضيـها بنفسه ، فـأذهب إلى قصره فأجلب له من درج مكتبته الموجـودة في مقصورة النوم أوراقاً خاصة به . . قال :

«ولا يمكنني الاعتماد على الخدم في أداء هذه المهمة ، لأن الحرص والكتمان والأمانة هي من مستلزماتها ، ولأنه ليس في مقدوري أن ألج هذه المقصورة التي أجهزت على سعـادتي ، وسأعطيك مفتاح المقصورة ومفتـاح الجارور وورقة إلى الحـاجب كي ينفذ أوامرك» ثم دعـاني إلى تناول طعـام الإفطار على مائدته ، فلبيت دعوته ، وقصدت بيته في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي .

ولـمّـا فرغنا من تناول الطعـام ابتـهل إليّ أن لا أحنق عليه إن هو بهظني بطلبه . . فلاح لي من سياق الحديث بأنه يغبطني على تفردي بزيارة عش غرامه ومحراب سعادته وهنائه . .

وأخيراً كشف لي عن طلبه وأماط اللثام عن مأربه ، فعلمت أنه يريد مني أن أحضر إليه من درج مكتبه ثلاثة ظروف تحتوي على أوراق ورسائل خاصة به وبحبيبته الراحلة ، ورجاني بصوت متهدج ولسان متلعثم أن لا أقرأ ما في الرسائل والأوراق !

فتوغّرت غضباً لهذه الإشارة المهينة ، وأخبرته بفظاظة أني لست في حاجة إلى مثل هذا التنبيه الذي إن دلّ على شيء ، فهو يدلّ على قلة الذوق وانعدام الإدراك !

فشحب وجهه وقال مرتبكاً مستغفراً : «اصفح عني . . واغفر عن إساءتي . . فأنا أتألم من كَلّ الأيام . .» ووكف دمعه . .

وعند الظهيرة امتطيت جوادي ودلفت إلى القصر عدواً . وكان الجو قد راق وصفا ، وبدت المروج الخضراء ، التي تفصل بين روان والغابة التي يتوسطها قصر صديقي ، متسربلة أزهى حللها . . وكنت طيلة الوقت ، أتسمع لتغريد البلابل وزقزقة الطيور ، ورنين حسامي المنظوم وتوقيعه الرتيب على المهماز . . ولمّا استقبلتني الغابة واحتضنتني أشجارها ، كبحت جماح جوادي وقلّلت من سرعته ، وأخذت أغصان الأشجار تداعب وجهي ونسمات الربيع تنعش نفسي وحسي . وازدهاني شبابي ، واستخفني خلوّ ذرعي من الهم ، واستفز طربي امتلاء خزائني بالعين ، فشرعت ألتقط بفمي أوراق الشجر فألوكها وأضرسها . . وما عتمت أن رفعت عقيرتي بالغناء فشاركت الطبيعة صداحها . . والشجر إنشاده . . والطيور سقسقتها . .

وعند وصولي إلى القصر تناولت من جيبي رقعة الحاجب ، فاتضح لي بأن صديقي حرص على ختمها حتى لا يتسنى لي معرفة ما جاء فيها . . فاستهجنت عمله ، وهممت بالرجوع ، ولكني استقبحت

العودة وتريثت أفكر ـ لِمَ ألوم هذا الحميم المسكين ، وقد غشيه من الهم والغم ما أفقده اتزانه وسلبه رشده وفطنته؟ ! ـ فآليت أن أتغاضى عن هذه الهفوة ، وتقدمت فولجت البيت من الباب الحديدي المتداعي ، فابتدرني رجل علته كبرة ، وقال وقد عرته دهشة : «ماذا يريد السيد الغريب؟» فسلمته الرقعة ، فما كاد يطلع عليها حتى صعّد فيّ نظره وسألني : «وماذا تبتغي من دخولك القصر يا سيدي؟» فأجبته باقتضاب : «هذا ليس من شأنك . . إنما واجبك أن تدلني على الطريق إلى مقصورة سيدك ، تنفيذاً لأوامره . .» فظهرت على محياه البغتة والذهول وقال : «فأنت تنوي دخول غرفتها إذاً؟» فقلت وقد أضجرتني لجاجته : «أفٍّ من عنادك أفٍّ ! أسرع في العمل ولا تسترسل في كلام لا طائل تحته . .» فقال وهو لا يزال مضطرباً : «إني رهن إشارتك . . بيد أن المقصورة لم يدخلها إنسان منذ وفاة صاحبتها ، وعلى هذا فهي تحتاج إلى التهوية والتنظيف . .» فقاطعته وقد غلى مرجل غضبي : «عجل أيها العجوز المكثار ، ولا تظنني أبله تجوز عليه الحيل . . فولوج المقصورة لا بدّ منه ، أمّا أنت فيتعذر عليك ذلك ـ كما تعلم ـ لأنك لا تملك لبابها مفتاحاً . .» فقال : «أنت وشأنك ، هذه طريقك واضحة ، فسر إلى الأمام ثم عرج إلى اليمين ثم انحرف إلى اليسار ، تصل إلى السلم ، فاصعد درجاتها . .» .

لم أنتظر منه أكثر من هذه المعلومات ، فانطلقت إلى القصر فولجته ، وعبرت بالمطابخ المهملة المتروكة ، وما لبثت أن مررت بغرفتين يشغلهما الحاجب وزوجه ، ورَقيت السلّم ثم عطفت إلى اليمين فواجهتني قاعة متسعة فسيحة ، وانعرجت نحو الشمال ، فعثرت على باب موصد علمت أنه باب المقصورة . .

فتحت الباب بسهولة لم أنتظرها ، ووقفت على عتبته ، وحدقت بالظلام ، فلم أر شيئاً . فلزمت موقفي وقد امتلأ أنفي برائحة العفونة والرطوبة الكريهة المنبعثة من المقصورة المقفلة ، ولـمّا ارتاض بصري على الرؤية في هذا الظلام الضارب بجِرانه ، استطعت أن أتبيّن المقصورة الرحبة المفروشة بالطنافس ، وقد غلبت عليها الفوضى وخلت الأرائك من الملاءات وألقيت عليها الوسائد . وتبيّنت على إحداها أثراً عميقاً لمرفق أو رأس آدمي اتكأ عليها أو توسّدها . . ثم هبت على وجهي نسمة باردة نبهتني إلى وجود باب منفرج أيقنت أنه يؤدي إلى غرفة الزينة . .

حاولت أن أفتح مصراعي الطاقة ، فلم يتح لي ذلك ، فقد صدئ الرتاج وتماسك المزلاج ، فضقت ذرعاً ورجعت أدراجي إلى مائدة المكتبة ، وعولّت أن أبحث عن ضالتي ولو أجهدَ نظري قلة الفضاء ، وأثقلَ أنفاسي عفونة الهواء . .

فانتقلت من الوقوف إلى القعود على كرسي المكتبة الكبير ، وسحبت الدُّرج الذي عينه لي صديقي ، فألفيته مكتظاً بالأوراق والملفات ، فأخذت أبحث عن الظروف المنشودة ، فقلّبت الأوراق وقرأت العناوين ، حتى اهتديت إلى الظَّرْف الأول ، فارتاحت نفسي ، وانهمكت في بحثي ، فداخل حسي بأني أسمع حفيفاً خفيفاً خلف الكرسي . . ولكنني لم أعر الأمر اهتماماً ، ولم أتوقف عن التنقيب إلاّ بعد أن تنبّهت مشاعري على حركة ثانية أشد وضوحاً وأكثر قرباً من سابقتها . . فاقشعر جسدي ، وقفّ شعر رأسي . . ولكني تمالكت نفسي وأفرختُ رُوعي ، وأبت عليّ كرامتي أن أبدو بمظهر الجبان المستخذي . . فلم ألتفت خلفي . . !

ووجدت الظرف الثاني . . ولم أكد أباشر في البحث عن الثالث والأخير ، حتى صَخَّ سمعي آهة عميقة أرسلت الدماء باردة في عروقي . . وجعلتني أثب من مكاني كالمخبول ! واستدرت بجسمي كلمح البصر ووضعت يدي على مقبض حسامي ـ والحق الذي لا مرية فيه أني لو لم ألمس سيفي براحتي في تلك الآونة لأسلمت ساقي للريح ، كالجبان الخسيس ـ ورأيت . . رأيت امرأة منتصبة القامة ، متسربلة بالبياض ، واقفة خلف الكرسي الكبير الذي كنت أحتله منذ لحظات ! !

سُمِّرت في مكاني ، وارتعدت فرقاً وارتجفت هلعاً ـ وهل يقدر من لم يعانِ ما عانيت في تلك الدقائق الهائلة أن يدرك كنه شعوري ، ويقدر مَبلغ ما جاش في صدري من الخوف الصاعق - حتى تبلّد ذهني واضطرب لبي وشلت حركة جسمي؟ !

ولست ممن يؤمن بالأرواح ، ومع ذلك فقد استسلمت للرعب القاتل ساعة قابلت الموت وجهاً لوجه ! لقد تألمت كما لم أتألم قط . . بل إن ألمي وعذابي في تلك الدقائق المعدودة فاقا آلام حياتي الماضية وعذابها متجمعة ! !

ولعلها لو لزمت الصمت ولم تتكلم في تلك اللحظة ، لكنت هويت على وجهي هُوِيّاً وخررت إلى الأرض فاقد الحياة ! ولكنها تكلمت . . تكلمت بصوت حلو ناعم كأنه نغمات موسيقية هادئة . . .

ولا أجرؤ على الزعم بأني استعدت هدوء أعصابي واسترجعت رباطة جأشي ، وغدوت سيد نفسي وحسي . . . فقد بلغ مني الخوف درجة لم أعد أعرف معها كيف أتصرف . . . ولكن بقية باقية من

شعور باطني خفي بالكبر والاعتزاز ـ كانت قد زرعته في قلبي تمارين الجندية ، وبثته في صدري مشاهداتي في المعارك الحربية ـ جعلتني أبذل ما في طاقتي حتى لا أبدو بمظهر الضعيف الذاهب العقل . . .

قالت : «هاه . . بوسعك أن تخدمني أجلّ خدمة ، فتنقذني من وَصَبي ، وتريحني من بُرَحائي ، وتشفيني من وجيب قلبي !» .

أردت أن أرد عليها ، ولكن الكلام احتبس في حلقي ، ولساني اعتقل في فمي ، فلم أنبس ببنت شفة . .

واستتلت : «هل تفعل؟ قل ! هل تفعل؟ أنا أتألم . . أواه ! كم أتألم؟» ثم تهالكت على الكرسي ، وهي لا تنفك ترمقني بطرفها الذي خيل إليّ أني أرى الهَيولى من خلاله !

فقلت : « . . . بإيماءة . . . أجل» لأن الكلمة التي أزمعت أن أفوه بها التصقت بلساني فتكوّنت إشارة من بناني وإيماءة من هامتي ! !

فناولتني مشطاً مصنوعاً من صدف السلحفاة وقالت : «امشط لي شعري . . امشطه ورجِّله تزل أسقامي وتبرئ أمراضي ! انظر إلى شعري . . . انظر إلى رأسي . . . كم أتألم !» .

لماذا تناولت المشط منها؟ ولماذا أمسكت شعرها الحالك المسترسل الذي خيل إليّ بأنه لم يُضفر ولم يُعقص منذ زمن طويل؟ لماذا؟ لا أعرف ! وسيظل هذا السؤال حائراً بلا جواب . ولكنني أعلم جيداً بأني قلبت شعرها الكثيف بين يدي ، فشعرت كأنني كنت ألمس براحتي حية سامة مخيفة ! .

ومشطت الشعر الفاحم الطويل ، وسرحت خصله الناعمة المثلوجة . . . ووقفت عن كثب ، وأخذت أتنفّس الصعداء من الكرب والضيق . .

وما عتّمت أن تنهدت بارتياح كمن سرّي عنه وقالت وهي تخطف المشط : «شكراً لك . . شكراً لك . .» وكلمح البصر تلاشت ولم تعد تبصرها عيناي !

شعرت مثلما يشعر المنتبه من كابوس وقع عليه جُثامه فعذبه وعصر فؤاده . . . ولما تسنى لي الإفلات من هذا الرباط والتحرر من هذا القيد الذي عقلني به هلعي ورعبي ، اندفعت إلى الطاقة فركلتها بقوة عظيمة فانفتحت ، ثم هرولت نحو الباب المنشق ، فألفيته مغلقاً بالمزلاج !

واستحوذت عليّ رغبة الهرب من تلك المقصورة اللعينة المسكونة . . . كنت أشبه بجندي أحاقت به شياطين الهلاك ، وضاقت في وجهه سبل الخلاص ، فرغب في الفرار لينجو بنفسه من الموت والبوار . . . وهكذا أنا ، فقد نبشت الجارور فعثرت على الظرف الثالث . . فحملت الظروف جميعاً وعدوت إلى الخارج كمن به مسّ من جنون ، وامتطيت صهوة جوادي ومرقت من الغابة كالسهم ، لا آبه بغصن يصدمني في وجهي ، ولا أكترث بشجرة تعترض سبيلي ، أو بعقبة تقف في طريقي .

ولـمّا وصلت روان خلوت مع نفسي وطفقت أفكّر فيما ألمّ بي . حاولت أن أقنع هذه النفس بأن جميع ما حدث كان من قبيل الهوس . . وأنني كنت ضحية نوبة عصبية جعلتني أنظر إلى الأخيلة والأوهام نظري إلى الحقائق الملموسة والوقائع التي لا شك فيها . .

بيد أني ما كدت أتوصل إلى هذا الحل الذي أزاح عني ثقل همي ، وما كدت أتطلع بمحض المصادفة إلى صدري ، حتى تداعى حَدْسي وانهار ما منيت به نفسي من خَدْع البصر والبصيرة . . فقد علق

بأزرارقميصي شعيرات فاحمة طويلة . . فالتقطها شعرة إثر شعرة ، وألقيتها من النافذة بأنامل مرتجفة مرتعشة . . .

ثم أعطيت خادمي الظروف المشؤومة ، وأمرته أن يسلمها لصديقي ، ويخبره بأن المرض المباغت ألمّ بي فأقعدني عن زيارته . .

وعولّت أن أفضي له بما جرى ، فسرت إليه في صبيحة اليوم التالي ، فلم أجده . وأعدت الكرة عند الظهيرة ، فعلمت أنه غادر البيت ولمّا يرجع . . . فانتظرت أوبته على أحر من الجمر . وانقضى أسبوع كامل . . فأوجست خيفة من هذه الغيبة الطارئة التي امتدت ـ على غير عادة ـ كما أخبرني خادمه . . .

وناجاني الفكر بوقوع الشر ، فأخطرت الشرطة بالأمر ، فطفقوا يقصّون آثاره ويبحثون عن معالمه وأخباره ، حتى أثبط الفشل عزائمهم . . . فسلم رئيسهم الأمر إلي ونفض من صديقي يديه . . . فواصلت الجهد ، ولم أزل أنشده في كل مكان ، وأستخبر عنه كل إنسان ، إلى أن قيل إنه دخل قصره ولم يزايله ولم يخرج منه . فهرعت إلى القصر بصحبة رجال الأمن ، فأجرينا البحث الدقيق والتفتيش المحكم في جميع الحجرات ، ففشل المسعى وخاب الأمل ، ولم أجده هناك أو أعثر للمرأة على أثر . . . ولم أجد مندوحة في نهاية الأمر عن إسدال الستارة على هذه المأساة . . .

واحتملت عبء ست وخمسين سنة أخرى ، ونؤت باثنين وثمانين شتاء ، ولم أعلم شيئاً عن السر المغلق المبهم ـ سر حسناء القصر ذات الشعر الفاحم المسترسل ، وسر الصديق الذي ما كاد يحظى بالظروف الثلاثة حتى اختفى وكأنه تلاشى !

الموسوم

إنّ لله في خلقه شؤوناً . . وإن بعض الناس ليخلقون وسليقة التسلّط والتغلب متمكنة من مشاعرهم ، راسخة في حواسهم . . وعندما تنطلق أفواههم بالنطق وتبدأ ألبابهم تكوّن الفكر وتؤلف الرأي ، تتحرك في قرارة نفوسهم هذه الغريزة الجبارة العاتية . . .

فالسيد كيلارد كان من هذا النوع . . وقد لازمته منذ نعومة أظفاره فكرة واحدة ، وداعبت خياله أمنية ما فتئت تقلق راحته وتنغص عيشه وتكدر حياته . . وهذه الأمنية هي الحصول على وسام يحلي به صدره ويميزه عن سائر الخلق ! حتى إنه كان في صغره يرتدي وساماً زائفاً مصنوعاً من المعدن ، ويشبه في شكله ومنظره وسام جوقة الشرف ، فيمشي بجانب أمه وهو يتيه عجباً ويختال زهواً !

إلاّ أنه أخفق في دراسته وسقط في امتحان العالمية للفنون الجميلة ، فكرَبه الأمر واشتد عليه الغم ، فعالج اضطرابه وحيرته باقترانه بحسناء جميلة في وسعها أن تنفق من ماله الغزير ما شاء لها تبذّخها وتنعّمها أن تنفق . .

وعاش الزوجان في پاريس مدينة الفتنة والإغراء ، كما يعيش أغنياء الطبقة الوسطى ، واختلطا بكثير من المترفين . . وازدهاهما الغرور حالما أخذ أحد الوكلاء الموعودين بالوزارة الكاملة يتردد عليهما . . وكذلك يوم زار مسكنهما قائدان عظيمان لهما وزنهما وأهميتهما في المجتمع وفي الأندية السياسية !

ولكن السيد كيلارد لم يستطع التحرر من ربقة فكرته التي استولت على شغافه . . فكان يشعر شعور من عثر جَدّه وجَدَب طالعه ، ما دام

لا يحلي صدره الشريط الأحمر أو الوسام البراق الذهبي . وداخل ظنه أن حياته مرتبطة أوثق ارتباط بالأوسمة والشرائط ، حتى إنه كان يغادر مسكنه مساء كل يوم ليشاهد أولئك المحظوظين الذين أنعم عليهم بأرفع الرتب وقلدوا أعظم المناصب . . وما أكثر ما لسعته عقارب الغيرة والحسد ، وراح يخاطب نفسه بنبرة حادة ولهجة يعتورها السخط والحنق : «تباً لهم . . هل يزرعون الأوسمة ويبذرونها في كل مكان؟ ليت شعري ، لقد قابلت ثمانية ضباط وسبعة عشر فارساً في ذهابي . . فكم سأقابل منهم في إيابي؟ ! !

وكان ملماً بالأمكنة التي يؤمها ويقصدها ويتجمع فيها أهل الحظوة والمكانة . . فكان يقصد تلك المواضع فيلتقي بفئات محترمة منهم ، يتيه أفرادها في مشيتهم ويعترضون السابلة ببطء حركتهم . . فيفتتن بعظمتهم وكبرهم ويناجي نفسه : «إنهم ضباط كبار . . جديرون بكل تبجيل . .» ويود لو رفع قبعته احتراماً وتهيباً . . فهم أهل لأن يكرّموا . .

كان يعلم أن الفرق شاسع بينهم وبين الفرسان حتى بطريقة مشيتهم وعبورهم الطرق ، فقد كانوا يرفعون هاماتهم ويختالون في مشيتهم وينظرون من علٍ إلى كل إنسان . . ولا عجب فهم عِليُ القوم ومن أرباب الدولة والصولة !

على أن شعوره بالمرارة والخيبة كان يُوَغّره عليهم . فكان يؤوب من جولته كل يوم وهو أشد ما يكون سخطاً وحنقاً ، وأشبه ما يكون برجل بائس ساغب وقف على دكان بقّال تكدست فيه أشهى المأكولات . . فهو يلتهمها بنظره ولا يستطيع أن يمسها بيده أو يدنيها من فمه . . وكان يتساءل بسخرية واستهزاء وبصوت مرتفع : «متى يا ترى نتخلص من هذه الحكومة الخرقاء الجاهلة التي ران عليها حب

الذات وآثرت مصلحة الأفراد على مصلحة المجموع؟ !» .

وكان يخرج بعد العشاء فيمر على الدكاكين المعروض فيها الأوسمة والنياشين ، فيتفحصها ويرمق نقوشها بعين الخبير العارف . . ويود لو تقلّدها جميعاً ومشى مختالاً في رأس موكب حافل ، ليخطف بريقها الأنظار ويخلب القلوب ، ويسعد بالإصغاء إلى همس المعجبين ولغط المذهولين وهمهمة المقدّرين . . !

ولكنه يعلم جيداً بأنه يتعذّر على أمثاله الفوز بالوسام المنشود ، لأن مادة علمه لا تؤهله لمثل هذا الشرف ، ولأنه لم يكن موظفاً كبيراً أو مأموراً خطيراً . . فماذا يضيره لو أنه حاول أن يحظى بعضوية دار العلوم ، فيسهل عليه حينئذٍ بلوغ أربه وتحقيق منيته؟

بيد أنه عندما خاطب زوجته بما راود فكره ، أنشأت تقول : «وماذا قدمت من الخدمات العلمية والأدبية أيها الحبيب حتى يكرمك المسؤولون ويكافئوك ويضموك إلى دار العلوم؟» .

فرمقها شزراً وقال : «إنني أعرف ما أقول أيتها الحمقاء . . . ولكني عزيز أربأ بنفسي عن انتهاج الطريق التي يسلكها غيري !» .

قالت : «أصبت يا زوجي العزيز . . . إنني في بعض الأحيان سخيفة الرأي تافهة التفكير . . .» .

وبينما هو يعمه في حيرته ، ألمت برأسه فكرة ما عتم أن بثّها لزوجته فقال : «ما لنا لا نتصل بـ«روسالين» الوكيل فهو حبيبنا وفي وسعه إرشادنا إلى سواء السبيل . . ! كلميه أنت يا زوجتي . . . فإنني عاجز عن مجابهته بهذا الأمر . . ولا تثريب عليك إن فعلت ، لأنك سيدة ، والرجل الشريف يصغي لربات الحجال ويعمل على مرضاتهن !» .

فلمّا فعلت ما أمرها به زوجها وعدها السيد روسالين خيراً . .

إلاّ أن كيلارد شرع يتردد عليه فيذكره بوعده ، حتى برم بلجاجته ، وضاق ذرعاً بصفاقته . . وأوعز إليه أخيراً أن يطلب بصفة رسمية الانتساب إلى دار العلوم .

وسُقط في يد كيلارد ، كيف يقدّم هذا الطلب وهو صفر من العلوم مفتقر حتى إلى درجة العالمية للفنون؟

بيد أنه لم تثبط له همة ولم يعتوره الونى ، ونشط يكتب ويؤلف . . وطفق يدبج رسالة بعنوان «حقوق الشعب الثقافية» ولكنه لم يتمها ولم ينجزها لجدوبة أفكاره وندرة آرائه . .

وانتقل إلى موضوع آخر ، فخط رسالة إضافية في «إرشاد البنين بوساطة العين» طلب فيها من السلطة الحاكمة أن تشيّد ملاعب مجانية في مختلف أنحاء البلاد ، وفي الأحياء الفقيرة الحقيرة من پاريس ، ليؤمها البنون ليطلعوا بوساطة الفانوس السحري على أفكار الإنسان وتخيلاته . . وأوصى بتنظيم الأسلوب والطريقة . . وبهذه الوسيلة يثقف النظر العقل . . وتبقى الصور والمشاهد راسخة في الذهن ماثلة للعيان . .! وزعم أنها أولى طريقة يلقن بها النشء العلوم . . فمن طريقها يتجلى العلم للأطفال بصورة هينة سهلة الهضم تستسيغها عقولهم الصغيرة المحدودة . .

وطبع رسالته ووزعها بسخاء ، وأرسل أعداداً كثيرة منها إلى رئيس الجمهورية وإلى الوزراء والوكلاء والنواب ، وإلى الصحف والمطابع ودور العلم ودور التربية ودور النشر . .

وأتبع رسالته هذه ببحث مسهب مستفيض تحت عنوان : «مكتبة الشارع السيارة للإيجار والإعارة» طالب فيه السلطات التنفيذية بصنع عجلات شبيهة بعجلات الفاكهة ، تشحن بالكتب الثقافية ، فيكون لكل مواطن حق استعارة عشرة كتب كل شهر ، مقابل جُعلٍ تافه لا

يُعتدّ به . .

«فالناس» ، كما جهر السيد كيلارد ، منغمسون في لذائذهم وشهواتهم . . وما داموا لا يبالون بالعلم والتثقيف . . وما دامت أسواق اللهو تموج بهم ، وأسواق العلم تقفر منهم ، فأحرى بالعلم أن يذهب إلى الناس فيفرض عليهم نفسه فرضاً !

وبالرغم من جهود كيلارد المضنية ، لم يُكتَب لرسائله ومقالاته النجاح اللائق بها ، إلاّ أن فشله لم يمنعه عن إرسال طلبه إلى دار العلوم . .

وانتظر كيلارد طويلاً . . واصطبر كثيراً . . وطال عليه الأمد واشتد ظمأه إلى الوسام . . .

ولكنه لم يحظ بضالته . فسعى إلى الوزير ، فهشّ له أحد الموظفين وبشّ ، وقابله بوجه طلق ، وقربه من مجلسه ، وأظهر له كل ضروب الحفاوة والإكرام . . وفي الوقت ذاته تعمّد أن يكشف له عن أهمية شخصه ومركزه بالقياس إلى سائر الموظفين وباقي البطانة . . فشرع يستدعي السعاة ويرسلهم في حاجاته . . ويطلب الموظفين الذين يلونه في الدرجة ، فيلقي إليهم بأوامره . . ثم انقلب إلى السيد كيلارد وقال : «أرى أن تُقصر عن المجيء إلى الوزير وتقتصر على تأليف الرسائل وإنشاء الفصول» .

ويظهر أن السيد روسالين عاد فأعار مسألة صديقه كيلارد كثيراً من اهتمامه . . فأسدى إليه النصح ودله على ما فيه الفائدة والمنفعة . وكانت الحكومة في المدة الأخيرة قد أنعمت على روسالين بوسام جوقة الشرف . . ولم تعرف الخاصة ولا العامة ماذا صنع حتى غدا أهلاً لهذا الشرف العظيم !

وفي أمسية من إحدى الأمسيات العديدة التي كان روسالين يجتمع

فيها بكيلارد وزوجه على مائدة الطعام ، بدهه بقوله : «أبشر يا كيلارد ، لقد دنا اليوم الذي تبلغ فيه أربك ، وإنني لكي أعجل هذا اليوم أوعزت إلى لجنة الآثار التاريخية أن تعهد إليك بإجراء الأبحاث اللازمة لها ، فتجوب البلاد وتبحث في دور الكتب والمعاهد . .» .

فطرب كيلارد ، وذهب به الفرح كل مذهب ، ولم يعد يعرف كيف يأكل وكيف يشرب .

وفي اليوم التالي غادر باريس . . وانطلق مجداً وطفق يعوج على المكاتب ، فيثقل على أصحابها بإلحافه ، ويرهقهم بتطلبه . . وما زال يجوب البلدان حتى حلّ في مدينة روان ، فاستشعر الحنين إلى امرأته ، وحفزه الشوق على اجتلاء طلعتها . . وسوّلت له نفسه أن يسري إليها . . فاستقل قطار المساء ، ووصل مسكنه عند منتصف الليل . . فدخل الدار من باب خاص به ، وصعد إلى مخدع الزوجية بهدوء وسكون ، وهو مزمع أن لا يفسد من روعة المفاجأة التي ادّخرها لزوجه الحبيبة الوفية . . !

وأدار مقبض باب المخدع فألفاه مرتجاً . . فتولاّه العجب ، ولم يجد مندوحة من قرع الباب ، فدقه مراراً ولكنه لم يفتح ! فاستولت عليه الحيرة ، فأخذ يحض زوجه على الإسراع ويحثها على فتح الباب دون إبطاء . . فشوقه قد برح به وأضناه !

غير أنها ما استجابت له وما لانت لاستعطافه . .

وأرهف أذنيه لاستراق السمع فخيل إليه أنها خائفة مذعورة من وهلة المفاجأة . . وتراءى له أنها تقفز مبهورة الأنفاس . . وهي تتمتم بكلام غير مفهوم . . وتروح وتجيء كأنها تنضد بعض الأمتعة أو ترتب الفراش . . ثم سمعها تفتح باب غرفة الزينة . . وتغلقه . . إلاّ أنه شعر بالاطمئنان حالما سألته بصوتها الحبيب . . «أهذا أنت يا كيلارد؟» .

فأجابها : «نعم . . نعم . . ومن تظنين غير كيلارد يأتي إليك في هذه الدُجنّة . . افتحي الباب . . عجلي . . فشوقي مستعر متأجج . .» .

وفتحت الباب ، وارتمت على صدره تقبله بلهفة وتقول : «أواه . .لقد أخفتني كثيراً . . ولكن حبوري بمقدمك طغى على فزعي ورعبي . . . فحبذا قربك لو بكرت !» .

فعانقها بوله ، وقبّلها بهيام ، وشرع ينضو عنه لبوسه . . وفيما هو آخذ في الاستعَداد للنوم بصر بسترة ملقاة على صوان الثياب فحملق فيها ، وفي الشريط الأحمر المعلق في عروتها . . . ما هذا؟ ما هذه السترة؟ من صاحبها؟ ! وتناولها بيد مرتجفة ، ولكن امرأته انتزعتها منه وقالت : «لا . . لا . . لقد أخطأت . . لقد أخطأت . .» .

فقال : «لا أفهم . . لمن هذه السترة؟ قولي . . أجيبي . . أسرعي !» .

فارتجفت فرقاً وأحسّت بقواها تخور ، بيد أنها تجلّدت وأنشأت تقول : «لا يجب أن تعرف . . إن هذا سر مكنون لا أستطيع أن أبوح به . .» .

فأنقلب سحنته وبَرَق متوعداً وصاح : «أريد أن أعلم كيف وصلت هذه السترة إلى مخدعي !» .

فأجابته وقد استمدت من الضعف قوة : «إنها لك أيها المغفل الغبي . . إنها لك . . غير أني تعهدت أن أكتم عنك الحقيقة ، حتى ميعاد إذاعة الخبر . . ولكنك أصررت على معرفة جلية الأمر ، وألحفت على اكتشاف سر السترة والشريط فاعلم إذاً بأنك موسوم !» .

شدهته المفاجأة ، فترنّح وتمايل ثم تهالك على فراشه ، وقال متلعثماً : «غدوت صاحب وسام؟ أحقاً ما تقولين؟ !» .

فقالت وقد سرّي عنها : «أجل . . لقد أغدقوا عليك هذا الشرف

الرفيع . . فأعددت لك هذه السترة الجديدة ، وعلّقت بها الشارة والوسام . . وتعهدت على نفسي ، بل أقسمت للسيد الطيب القلب روسالين ـ الذي يعود إليه الفضل ـ ألاّ أطلعك على أمر الإنعام قبل أن يعلن رسمياً بعد شهر . . .» .

فانبسطت أسارير وجهه وقال : «لقد داخل حسي ونبأني حدسي بأن صاحبنا روسالين دبر الأمر . .» . ثم وجم عن الكلام ، وسبح في عالم الأحلام ، وما عتم أن قال لها : «إنني شديد الظمإ يا عزيزي ، فهلاّ أعطيتني ماء مثلوجاً أبلّ به حلقي؟» . فجاءته بما طلب ، فلما روي وشبع تلفت حوله ، فلمع على الأرض بطاقة خُط عليها بحروف بارزة غليظة «روسالين ، وكيل وزارة» . فقالت وقد رأته يحدق بالبطاقة وعلمت ما هجس في أفكاره : «هذه بطاقة روسالين الصديق الحميم أيها الحبيب . . وقد أرفق الوسام بها !» .

فصاح صياح من انتفى ما رابه : «واهاً لك ما أعظم حبك ! لقد صدقتك . . لقد آمنت بك . . فاصفحي عني !» . وقام فعانقها ونام ملء جفنيه !!

ولِمَ لا ينام قرير العين مسرور القلب منشرح الصدر ، وقد أصبح «موسوماً» !

وصدرت الجريدة الرسمية بعد أسبوعين ، وجاء فيها أن السيد كيلارد أُنعم عليه بوسام جوقة الشرف نظراً لخدماته الممتازة الجليلة !!

الذئب

حكى هذا الحديث المركيز دو أرفيل الهرم المسن بعد أن طعمنا طعام العشاء في قصر البارون دو رافيل ، وكانوا قد قنصوا وعْلاً في ذلك اليوم ، إلاّ أن المركيز لم يخرج معهم ، في ما سبق له أن زاول الصيد أو ساهم في الطرد .

ودار كلام المدعوين في أثناء الطعام حول الصيد والقنص ، واشترك النساء في الحديث ، وأصغين بانتباه شديد إلى القصص الدامية المروعة التي تفنّن الرجال في سردها ، وأضفوا عليها من خيالهم الخصيب ما صيّرها بعيدة الاحتمال بعيدة التصديق ! وكانوا يؤدون من الحركات والإشارات ما يثير الدهش والتعجب ، وكانت أصواتهم ، وهم يصفون الكرّ والفرّ والنزال والقتال ، تحاكي هزيم الرعد وجلجلته ، وترغم المرء أن يضحك ساخراً مستهزئاً . . .

وتكلم المركيز فأجاد سياق الحديث ، ونمّق كلامه بأسلوب تمثيلي رائع ، ووشّى حكايته بزخرف من التبجح والمبالغة والغلو . . وهضل الكلام من فيه ، كأنه يقرأ قصة من ظهر قلب ، فلم يتمهل ليفكر كلّما سرد طائفة مختارة من الجمل المنتقاة التي كسا بها ووشى كل صورة من صور قصته العجيبة . . قال :

أيها السادة . . اقتديت بأبي فلم أتخذ من الصيد ملهاة لي ، كما أن جدي لم يمارسه أسوة بأبيه وجده . أمّا الأخير فقد كان أبوه رجلاً أغرم بالصيد وأولع بالطرد ، وسبق الأوائل والأواخر في تعلقه بهذا النوع من الرياضة إلى أن قضى نحبه سنة ١٧٦٤ . . وأنا الآن في سبيل إماطة اللثام لكم عن الكيفية التي مات بها .

كان اسمه جون ، وقد تزوّج وأنجب من زوجته جدَّ جدي ، وعاش مع أخيه الأصغر فرنسيس في قلعة الأسرة الكائنة في أُجم لورين .

وكان الأخوان صاحبي قنص لا يعيقهما عن مزاولة الصيد عائق ، وقد أغرما بالصيد ، ولم يفهما إلاّ الصيد ، وعاشا من أجل الصيد . . حتى إنه عندما ولد جدّ جدي ، وكان والده جون يتعقب ذئباً ، لم يمنعه ذلك من استئناف الصيد ، ولكنه قال وهو يهز رأسه متذمّراً : ـ أف للشيطان الصغير ، كان الأحرى به أن ينتظر صدور «صرخة الموت . .» .

أما شقيقه فرنسيس فقد كان كأنه في يوم هيج . . فأول ما يبدأ به من الأمور ، عندما ينتشر ضوء النهار ، وترسل الشمس خيوطها الذهبية ، هو أن يتفقّد الكلاب والخيل ، ثم يرمي عدداً من الطير ، وينطلق إلى الغابة بعد ذلك ، فيقضي سحابة نهاره في الصيد والقنص . . .

وكانا عظيمي الهامة ، غزيري الشعر ، ضخمي الجثة ، صاحبي سطوة وبأس ، وقوة ومراس . وكان الأصغر أطول الاثنين قامة ، وأجهرهما صوتاً . . ويقال إن صيحته العظيمة كانت تميد لها الأرض وتتزعزع الجبال وتضطرب أوراق الأشجار وتتساقط . .

وكان منظر هذين الجبارين ، وهما فوق جواديهما المطهمين ، رائعاً فخماً يدخل الرهبة إلى أقوى القلوب وأثبتها . .

واشتدت وطأة البرد في شتاء ١٧٦٤ ، فهرأ الأجسام وفرى المهج ، وضريت الذئاب وقد ضوّرها البرد وعضها الجوع ، فطفقت تغير على من غلس أو أدلج ، وتحاول الفتك بمن يخرج في بعض غدواته وروحاته . . وعلقت تحوم حول البيوت وتسطو على الدواجن . .

فروّع الناس وجسّم الخوف الأخبار ، فذاعت الشائعات وانتشرت انتشار النار في الهشيم ، وفشت القصص الغريبة عن ذئب كاسر كبير أبيض اللون ، حُشي بشر وغدر ، وأكل طفلين ، والتهم يد امرأة ، ويطش بجميع كلاب الحراسة ، وأمسى يدنو من البيوت ، ويغشى الشوارع والأزقة ، ويحتك بالأبواب الموصدة ، حتى إن الكثيرين من الأهلين زعموا أنهم شعروا بنفسه يهب على المصابيح المضاءة داخل البيوت ، فتضطرب ذوائب نورها وترتعش !!

وذُئبَ الناس واستولى الفزع على ألبابهم ، وأمسكوا عن مبارحة منازلهِم حينما يغلس الليل ويرخي الظلام سجوفه . . وبات كل ظل محضوراً بخيال هذا الوحش . . .

ونفد صبر الأخوين ، واجتمع رأيهما على أن يورداه موارد الهلكات ، فاستجاشا الصيادين وحرضاهم على إنجادهما . . وخرجا في أصحابهما فتفرقوا طرائق وأغاروا على الذئاب في أحجارها ومكامنها فقتلوا منها خلقاً كثيراً ، إلاّ أنهم لم يجدوا الوحش المخيف . . ولعله تعمد إظهار استخفافه بهم ، فهاجم المدجين واعتدى على المواشي . .

حتى إذا كان ليلة من الليالي الدامسة المحلولكة ، ترقب غفلة القوم ، وانسل خفية إلى حظيرة الخنازير في قلعة الأخوين ، فأكل خنوصين من أجود الأنواع وأرسخها أصلاً . . .

فكظّمها الأمر ، وضاقا بالذئب ذرعاً ، واعتبرا عمله إساءة مقصودة . . ولم يعتما أن اصطحبا أشرس كلابهما وتوجّها بها نحو الغابة . وكانا خبيرين بوعثها ، ملمين بخباياها ، فجاسا في خلالها ، وطافا في طرقها ودروبها ، واستمرا يبحثان في أغوارها وكهوفها من

الفلق حتى الغسق ، ففشل مسعاهما وخابت محاولتهما . . . ولما ثبط الإخفاق عزيمتهما ، وفلّت الهزيمة من تصميمهما ، كرّا راجعين ، فسلكا مضيقاً تظلله الأشجار النامية على جانبيه ، وسارا مطرقين صامتين ، وقد شدهتهما مهارة الذئب وشعرا بخوف مبهم غامض لم يحدسا له علة . .

وقال أكبر الأخوين : إن المكر والخديعة في هذا الذئب . . وإن حيله ، تجعلني أؤمن بأنه وحش آدمي ، أو أنه وحش له عقل الإنسان وتفكيره . . .

فأجابه الآخر قائلاً : لا محيد لي عن مشاطرتك ظنونك وهواجسك يا أخي ، وأرى أن نوجّه إلى ابن عمنا المطران طلباً ليدعو لنا بالتوفيق وليبارك الرصاصة المردية المخصصة لهذا الشيطان المريد . . أو أن نرجو من الكاهن أن يتلفظ بالتعاويذ التي من شأنها أن تكلل مسعانا بالنجاح والفلاح . . .

وصمتا ، واستغرقا في الفكر ، ثم قال جون وهو يمد في الفلك بصره : انظر إلى السماء إنها حمراء كالدماء ، مضرجة كأن النيران توشك أن تندلع منها . . وأشعر بالطيرة والتشاؤم . .

وبغتتهما حركة خفيفة ، فأجفل جواد جون ونكص إلى الوراء ، ووثب جواد فرنسيس ، وعدا شديداً . . وفي اللحظة نفسها شاهدا ذئباً أبيض هائل الحجم مخيف المنظر ، يبرز من دغل ملتف ، فيرميهما بنظرة يتطاير منها الشرر ، ثم يروغ روغة يختفي على أثرها في غيابة الغابة . .

فصاحا بصوت واحد صيحة الأمل والفرح ، ونخسا فرسيهما بالمهماز ، فأغار الجوادان ، وانطلقا يستبقان الريح ، واشتد عدوهما ،

حتى لكأن الفارسين الصنديدين ارتفعا بهما عن الأرض ، وحملاهما بقوتهما الهائلة وطارا بهما !

واجتازا العقبات العديدة التي اعترضت سبيلهما ، وانحدرا في الحفر والأخاديد ، وطفقا يرتفعان تارة وينخفضان أخرى . وبينا هما يوغلان في مطاردتهما ، إذ اصطدم جدّي بغصن ضخم غليظ فانشدخ رأسه وتكسّرت جمجمته . .

فكبح فرنسيس فرسه ، وترجّل عنه ، وهرع إلى أخيه المطروح فاحتضنه بلهفة وحنان ، وأخذ يتفرس في رأسه المهشم المندلق منه الدم ، فتأجّج كربه ، وتفطّر قلبه ، وبرح به الهم والغمّ . وما لبث أن قعد القرفصى ، ووضع الرأس المخضب بالدم المعفر بالتراب على ركبته ، وحدّد نظره بالأسارير الشاحبة والوجه الممتقع ، فوجب قلبه وجيب الهلع والخوف ـ خاف من الظلال والأشباح . . من الوحدة والعزلة . . من غدر الذئب ومكره . . ومن أخيه الساكن سكون الموتى . .

واسودّت الظلال ، وغيمت الأشباح ، وصوتت الأفنان من شدة البرد كما تطقطق حوافر الدواب على الحصباء . فنهض من مكانه ، وأخذ يسرح لحظه فيما يحيط به ويكتنفه ، فلم ير شيئاً ولم يسمع حساً أو ركزاً ـ فالسكون مطبق شامل والهدوء مخيم ضارب بجرانه ـ فاستشعر الخور ، وسلط عليه الوهم ، ولكنه استجمع قواه المتفرقة ، فحمل جثمان أخيه فألقاه على رحالة الفرس ، وركب صهوته ، وسار إلى القلعة ، وهو مهيض الجناح خاثر النفس مُثقل الفكر بالخواطر القاتمة ، وقد رسمت الفاجعة الأليمة في ذهنه صورة بشعة دميمة من صور الكرب والأسى . .

وبينما هو مستغرق في الفكر الحزين المرمض ، مرق من جنبه ، مروق السهم ، خيال هائل مخيف . . فارتعدت فريصته ، واصطكت أسنانه ، واقشعر بدنه ، وجعل يستخير ربه ويرسم علامة الصليب على وجهه . . وحانت منه التفاتة إلى الجثة الهامدة ، فاستحالت رهبته غضبة مضطرمة ، وخشيته نقمة متأججة ، وأطلق العنان لفرسه وحفزه لكي يلحق الذئب الماكر المخاتل . . ولم يعبأ إلاّ بتلك البقعة البيضاء الصغيرة المتحركة قدماً ، والتي أخذت تتضاءل وتغيب عن ناظريه . .

ثم غاب الشفق ومضت من الليل ساعة ، وتكاثف الظلام ، ولبث الجواد يعدو عدوه السريع ، ولعله استمد من التعب قوة ، ومن العناء اقتداراً ، فضاعف من سرعته حتى لكأنه يسابق الريح . . وكانت الجثة ، الفاقدة الحياة ، ترجحن وتهتز ، وتحتك بالعوسج فيعلق بناصيتها الشوك ، وتصطدم بالجذوع فينتثر من رأسها فتات من اللحم والدم والشعر . .

وانصلت الفارس من الغابة ، واندفع في ممر ضيق تكتنفه الصخور والحجارة ، وكان القمر في تلك الآونة قد بدأ يصعّد في السماء ، ويبزغ في تؤدة وتثاقل من وراء التلال . . وكان الممر الضيق مغلقاً في نهايته بسلسلة من الصخور الناتئة المتراكمة ، فلم يجد الذئب مندوحة عن النكوص . . فما كاد فرنسيس يراه قاصداً نحوه حتى تهلّل وجهه بشراً ، وخيل إليه أن الحظ واتاه أخيراً وأسعفه ، فانتضى خنجره ، ووثب عن ظهر جواده ، فأبصر عدوه مُقعياً على ذنبه ، وقد رفع صدره ومد إليه بصره . وفي أسرع من ومضة برق ، حمل أخاه فأقعده على شرف من الأرض ، ووسّده حجراً ناعم الملمس ، ثم زعق زعقة مدوية وقال :

ـ انظر يا جون ! انظر !

وهمّ بالذئب المتنمّر وهو يشعر بأنه قادر على زعزعة الجبال وزحّها عن موضعها !

وحاول الوحش الكاسر أن يسبقه إلى غايته ، فينشب مخالبه في أعضائه الحيوية ، بيد أن فرنسيس قبض على مخنقه قبضاً شديداً ، وشرع يضغط ويشدد الضغط . . ولم يشأ أن يغمد خنجره في قلبه ، ولكنه استمر يعتصر روحه حتى دلع لسانه وتقطعت أنفاسه ، وعلت حشرجته . ولمّا بطلت مقاومة الذئب وتراخت عضلاته ، ضج فرنسيس بضحكة مجلجلة وخاطب أخاه بصوته الجهوري فقال :

ـ هاه يا جون . لقد انتقمت لك وأهلكت خصمك !

وما عتم أن طوّح بجثة الوحش عند قدمي أخيه ، واستأنف يقول :

ـ إنه هنا يا صغيري . . إنه هنا . . تحت قدميك . . .

ولمّا لم يسمع جواباً ، رفع الجثتين فألقاهما على السرج ، وركب وراءهما واتجه صوب القلعة وهو لا يفتأ يرفع عقيرته بصيحة النصر ، ويزفر زفرة الوجد . . ويتنفس الصعداء ، ويذرف الدمع المدرار وينتف لحيته ، وينادي أخاه ويندبه ويرثيه . .

وأُخبرت بأنه كان كلّما عادته صورة المأساة ، وتمثّلت في ذهنه المصيبة التي قضت على أخيه ، يتجهم وجهه ويتنهد من كبد حرّى ويقول وهو يسكب شآبيب دمعه :

ـ أواه ! لو أبصر جون . . لو أبصر الوحش يتلوى في قبضتي ، لرأى ما يملأ عينه قرّة ولمات هانئاً قانعاً !

أمّا الأرملة المرزوءة ، فقد كرهت نفسها الصيد ، فأدخلت في روع

ابنها شعور الخوف منه . . ليتنقل هذا الشعور من الأب إلى الابن ، فيتوارثه الخلف عن السلف ، إلى أن آل أمره إليّ أخيراً . .

صمت المركيز دو أرفيل وأمسك عن الكلام ، فحُدج بالأبصار ، وسأله أحدهم :

ـ هل قصتك أسطورة مستمدة من الخيال ، أم حقيقة واقعة؟

فعبس المركيز وأجابه قائلاً :

ـ لقد قلت سدداً . . فلا تقرفني بالمغالاة ، فإني محضتكم الصدق فيما قصصت !

وهتفت سيدة جذابة الملامح بصوت حلو ساحر :

ـ طوبى لمن يختلج قلبه بهذه المشاعر الإنسانية السامية . . . وواهاً لهذه العواطف المؤسسة على النبل . . واهاً لهذه المناقب التي يتميز بها صاحبها عن سائر الخلق !

هل هو حلم؟

أحببتها بجنون

لماذا يحب المرء؟ لماذا يحب؟

يا لشذوذ الإنسان! أعجب به من كائن تعمى عيناه فلا يبصر إلاّ مخلوقاً واحداً في دنياه، ولا يدور في خلده إلاّ خاطر واحد، ولا يختلج في قلبه إلاّ رغبة واحدة، ولا تتردد شفتاه إلاّ باسم واحد.. اسم لا ينفك يغلي ويجيش في حشاه، ثم يفور ويصعد من أعماق الروح إلى الشفة - كما تفور الماء وتنبع من الأرض - لينطق به اللسان، ويردده في كل آن، ويهمس به همسات المتعبد وهو يتمتم بالصلاة، أو المجتهد وهو يهضل بالأوراد!

وسوف أخبركم بقصتنا، فالحب له قصة واحدة لا تتغيّر ولا تتبدّل..

عرفتها.. فكلفت بها، وران هواها على قلبي، وعشت على حنانها ورقتها، وعلى دلالها وغنجها.. وعشت بين ذراعيها وفي ملابسها، وعلى كلماتها ونغمة صوتها.. وارتبطت بها ارتباط الروح بالجسد، وامتزجت معها امتزاج الماء بالراح.. وأصبح الليل والنهار سيان في نظري.. والموت والحياة متوازيين في رأيي.. ما دمت أحيا بقربها، وأنشق نفحة رياها، وأتنسم نسمها المتأرج، وأمتع طرفي بمنظرها المبهج!

وفجعني الدهر بها.. ولا أدري كيف ماتت، فقد ذهلت بعد موتها وتبلّد ذهني.. ولكني أعرف أنها رجعت في ليل قمطرير، دجنه غزير، وقد بلل المطر ثيابها، وأصبَحَت وبها سعال شديد ألحّ عليها وضيّق أنفاسها، ثم وعكتها الحمى فسلبتها صحتها..

وكنت في أثناء مرضها موزع الفكر مضطرب البال ، أرى فلا أدرك ، وأسمع فلا أعي . . وكان الأطباء يروحون ويغدون ، فيصفون هذا الدواء أو ذاك العقار . ولم تنتج عقاقيرهم وأدويتهم عافية حسنة ، وما برحت الحمى تلهب جسدها ، حتى لمعت عيناها الحزينتان ، وكأنهما وقدتان مشتعلتان متلظيتان .

ولكنها ملكت صوابها حتى النهاية ، فقد كانت تجيبني على أسئلتي ، وترد على كلامي . ولا أذكر ما كان يدور بيننا ، فقد أضرمت الكارثة نار تباريحي ، وصيرتني غافلاً ساهياً لا أفقه أمراً .

وماتت . . . وإني لأتذكر حشرجتها الواهنة وهي تجود بأنفاسها . . وإني لا أزال أحفظ في ذهني صورة الممرضة وهي تحدق بالميتة الشاخصة ببصرها ، وأذكر صوتها الحزين المرعوب وهي تقول : «آه !» .

لقد فهمت . . فهمت . . واختبل عقلي وخارت قوتي وغامت الدنيا في ناظري . . وعلقت أخور كالوحش الهائج . . . وساعة قال القس : «محظيتك» بلغ مني الغيظ أقصاه ، فصحت به محنقاً ، وطردته شرّ طردة . . فهو قد أهانها وحقرها ، ولا يحق لكائن أن يثلبها أو يصمها بعد موتها بما يشينها ! وأقبل عليّ قس آخر ، فكان لطيفاً مهذباً ، وتكلّم معي فأوصاني بالأناة والصبر ، وتكلم عنها فرفق بها وطلب لها المغفرة والرضوان . واستخرطت في البكاء وسكبت شآبيب الدمع !

وحدثوني عن الجنازة ، فلم أعقل ما يقولون . . وشاوروني ، فلم أشر عليهم بما يفعلون . . وعندما حملوها ليسجّوها في النعش ، حملقت فيهم كالمعتوه ، وتململت في مكاني وتلدّدت ، ثم صرخت من كبد حرى : «أواه . . يا إلــهي ، يا إلــهي» .

ودُفنت . . دفنت في حفرة ضيقة موحشة . . ولـمّا هالوا فوقها التراب ، غلب عليّ الكرب وغشيني القنط ، فانثنيت عن المقبرة لا ألوي على أحد ، وهمت على وجهي في شوارع المدينة وأحيائها المكتظة ، حتى إذا أقبل الليل ، وكلّت رجلاي من السير ، قفلت راجعاً إلى مسكني ، وقد برّح بي الهم والغم . ورحلت في ضحى اليوم التالي عن العاصمة ، ولبثت بعيداً عنها مدة كابدت في خلالها كل شدة وزَجّيت أياماً قاتمة مربَدّة . .

وعُدت البارحة إلى پاريس ، وما كدت ألقي نظرة عابرة على غرفتنا وأمتعتنا ورياشنا وفراشنا ، حتى خثرت نفسي وأصابها الشَجَب ، ومضني ما مثل في مخيلتي من أطياف الأمس القريب ، وغمرتني موجة عاتية من الشجن ، وحفزتني رغبة هائلة بأن أقفز من النافذة لكي أستريح من هذا العنت المهلك ، وأنجو من هذا العناء المقيم !

فهل أقدر على ملازمة هذه الأمتعة؟ وهل أقوى على البقاء بين هذه الجدران التي آوتها ، والتي لا تزال تحتفظ بألف ذرة من جسمها وصدرها ونفسها؟ !

واختطفت قبعتي لأفر من هذا الجحيم ، ومررت بالمرآة التي كانت تطيل النظر فيها ، وتتأمل قوامها في صفائها ، فوقفت منها غير بعيد ، وأنشأت أرمقها بنظري ، وأفكر في هذا الزجاج الذي انعكست فيه صورة حبيبتي الراحلة آلاف المرات . . . ولعله يكون قد احتفظ بهذه الصورة لكثرة ما انطبعت في صفحته ! وارتعشت من التأثر والانفعال وأنا أتأمل الزجاج الصقيل المجلوّ الذي احتواها وضمها إليه . . كما حزتها أنا واحتضنتها وضممتها إلى صدري وقلبي . . . وأحسست

بأني أحب هذه المرآة الجامدة ، فمررت عليها بأناملي المرتجفة ، فاضطربت من برودتها ، وأخذتني القشعريرة ! فَواهِ من الذكريات ! وأف أف لهذه المرآة ! وواهاً للرجل الذي يصمد في وجه الخطوب والملّماتِ ، فينسى الجزء الذي فات ، وينسى كل ما حاق به وأحاط ، وينسى كل شيء مرّ به . . كل شيء نظر نفسه فيه ، أو انعكست صورته في شعوره وميله ، وفي حسه وهواه !

أنا . . أنا الشقي العاثر الحظ . . لشد ما قاسيت وتعذبت !

وغادرت البيت ، فساقتني قدماي إلى المقبرة . ولم أعتم أن سعيت إلى جدثها فشاهدت صليباً من المرمر قد غرس في ترابه وكتب عليه هذه الكلمات :

أَحَبت . . وأُحبَّت . .

وماتت .

إنّ هذه الحفرة الضيقة تضم رفاتها وعناصرها المنحلّة . . .

وسجدت متطامناً وأطلت السجود . . . وأطلقت العنان لمشاعري فانتحبت وذرفت الدموع . ولزمت مكاني حتى أغبس الليل . ونازع قلبي فكر مجنون . . . وخالجه رغبة عاشق مدنف يصبو إلى قضاء الليلة الأخيرة بجوار خليلته يبكيها ويرثيها ويندب شبابها وجمالها !

ولكي لا يكتشف القيِّم على المقبرة أمري ، نهضت من مجثمي وطفقت أمشي في مدينة الموتى ـ لكم تبدو صغيرة هذه المدينة إذا قيست بمدينة الأحياء التي نعيش فيها؟ ! ولكم تحفظ من العظام المندرسة والرمم المنطمسة؟ ! إن عدد من حوتهم هذه الأرض الصغيرة لا يقع تحت حصر . . . إنهم يفوقون من يسكن المدن ، ويقطن البيوت ذات السموق ، ويسعى في الشوارع العريضة ، وينهل من الينابيع

الجارية ، ويعتصر الخمر من الكروم الواسعة ، ويصنع الخبز من حنطة المروج المترامية !

أمّا الموتى . . أولئك الذين قضوا منذ آلاف السنين ، فليس لهم شيء . . . فهم إلى الأرض يرجعون ، وفوق بعضهم البعض يلحدون ، ثم يصبحون نسياً منسياً لا يُذكرون !

ووصلت إلى الجزء القديم من المقبرة ، حيث الأجداث العافية والرفات البالية ـ رفات الذين اختلطت عناصرهم بالرغام ، أو صارت إلى الرغام ـ وقد امتلأ ذلك الجزء العتيق بالأزهار البرية ، وبأشجار السرو العظيمة ، فبدا أشبه بحديقة حزينة تستمد حياتها من العظام ، وتجدد قوتها من عصارة الأجسام . !

وعُجت إلى شجرة كَثيفة الأغصان ، فربضت تحتها ، حتى إذا كثف الظلام ، تركت مكاني وشرعت أمشي مُرْفِقاً ، وأخذت أجوس في خلال المقبرة المقفرة إلاّ من الموتى ، وأطوف في ممراتها الضيقة ، وأجول في شعابها المتعرجة . ولكني لم أفض إلى لحدها ـ فالظلام دامس والقبور عديدة ـ ولبثت أعثر بالحجارة فأقع ، ثم أقوم لأواصل السعي ، فأسير على غير هدى ، وأخبط خبط عشواء . . فيا لها من ليلة ! يا لها من ليلة مريعة هائلة !

ووجف قلبي وارتعدت فرائصي ـ أنّى سرت ارتطمت بالقبور . . قبور منتشرة في كل مكان . . . قبور ، قبور ، قبور . . أمامي وخلفي وعلى جانبيّ ـ وشعرت بالضعف والتخاذل ، فجلست على أحدها ، وكان السكون مطبقاً والهدوء ضارياً بجرانه ، إلاّ أني سمعت وجيب قلبي ، وسمعت شيئاً آخر ! ماذا؟ ما هذا الصوت المضطرب؟ أهو الوهم؟ أم هو صوت من الليل؟ وهل لليل صوت مثل هذا الصوت؟

أم هو منبعث من التراب المشتمل على كل غامض خفي ـ هذا التراب المطبق الفم المزروع بالجثث؟ !

ولا أستطيع أن أحدس كم من الوقت مضى عليّ وأنا في مكاني هذا ، فقد شلّ الذعر حركتي ، وجمّد الرعب أطرافي ، وخبلني الهلع فأوشكت أن أصيح وأصرخ ، واشتهيت الموت ففيه خلاصي من هذا السعير !

وبينما أنا أتخبط في غمرة هواجسي ، إذ ببلاطة الرخام التي أجلس فوقها قد تقلقلت ! وشعرت كأنها تحركت قليلاً وارتفعت ! فقفّ شعر رأسي ، وقفزت قفزة هائلة علوت بها قبراً آخر . . . ورأيت ، أجل رأيت البلاطة تتحرك من مكانها ، والميت يبرز من تحتها ، فيرفعها بظهره المقوس ! رأيته بوضوح بالرغم من الظلام الحالك ، واستطعت أن أتبيّن على الصليب هذه الكلمات :

«هنا يرقد جاك أوليفانت الي مات عن خمسين حولاً . وكان قد أحبّ أهله وأكرم الغريب وجاد على القريب . وتعوّد عمل البر . ومات طاهراً ورعاً» .

وقرأ الميت هذه الكلمات ، ثم التقط حجراً مسنوناً فنحت به الأحرف وقشرها . ولـمّا تمّ له ما أراد ، نظر بتجويف عينه إلى مكان الكلمات التي أزالها ، وخط بطرف العظمة التي كانت سبابته فيما مضى هذه الجملة :

«هنا يرقد جاك أوليفانت الذي مات عن خمسين حولاً . وكان جحوداً كنوداً ، عقّ أباه وعذّبه حتى الموت ليرثه وينعم بماله . وقد اضطهد زوجته وكلّفها المشقة . وقسا على أولاده وسامهم الخسف . وختل جيرانه . وسرق واختلس . ومات شقياً عاصياً» .

ولـمّا فرغ من الكتابة أخذ يتأمّل الأحرف المشعة . وما هو إلاّ

كلمح البصر حتى أبصرت جميع الموتى يخرجون من أجداثهم سراعاً ، فيقبلون على ما كتبه الأهل والأصدقاء يزيلون معالمه ويستعيضون عنه بالحقيقة التي كتمها الأحياء . . . فعلمت أنهم جميعاً أصحاب شرور ، وقد أفرطوا في الذنوب وكذبوا وتخرصوا ، وخدعوا جيرانهم ، وتهافتوا على الموبقة ، وفاضوا بالغدر ، وتوغرت صدورهم بالحقد ، وكان ديدنهم النفاق والرياء والدس والوشاية والنميمة . . هؤلاء الآباء الصالحون . . . والزوجات الوفيات . . . والبنون المطاوعون . . . والبنات العفيفات . . . والتجار الشرفاء . . . هؤلاء الرجال والنساء كانوا يكتبون في وقت واحد على عتبة مساكنهم الأبدية عيوبهم التي جهلها الناس أو حجزهم عن إظهارها خوف أو حياء أو شفقة !

هالني الأمر وعظم عليّ ، وتاقت نفسي إلى أن أبطن دخلة حبيبتي وأعرف سيرتها معي . فانطلقت مهرولاً بين النعوش المنكشفة ، والرموس المنفتحة ، والهياكل المنبثة في كل مكان . . . وما زلت أبحث عنها حتى اهتديت إليها ، فعرفتها دون أن أرى وجهها المحجب بالكفن المشدود عليه . . . وتطلعت إلى الصليب الذي كتب عليه «أحبت وأحبت وماتت» فقرأت مشدوهاً منبهراً : «غادرت مسكنها في يوم بارد مَطير وقد نوت الزلّة والخيانة ، فقرّسها البرد وعاجلها الموت» .

فجرت في جسمي رعدة شديدة ، وظللت أحملق في هذه الأسطر المضيئة ، ثم تراخيت وترنّحت !

*

وحين تنفس الصبح وأشرق ضوء النهار ، وجدوني مغشيّاً عليّ فوق الضريح !!

جنون الحب

جلس الرجل المعروق العظام على كرسي مصنوع من قش ، وهو بادي الكمد مكفهرّ الوجه ، يحدق في حائط الزنزانة العاري ، ويصعد طرفه من آن إلى آخر فيثبته في الكوة الضيقة المشبكة بقضبان من الحديد .

ولـمّا غشينا زنزانته شملنا بنظرة غامضة غاضبة ، ثم ازورّ عنّا وشرع يحرّق على الأرّم .

وكان طمره خلقاً متسعاً ينبئ عن وهن فادح وداء واضح ، وقد تغيّرت حالَته من الشباب إلى الشيب قبل الأوان ، وعلته الكبرة قبل أن يهرمه الزمان .

ولاحت على محياه أمائر الحزن والأسى ، فأيقنت أن المسكين ضحية للهواجس والأفكار المظلمة التي تمضّه مضضاً شديداً ، وتعيث في جسده وعقله كما تعيث الدودة في الفاكهة الناضجة .

وكان جنونه بدعة . . . بل فكرة . . . كمنت في رأسه وتجمّعت في ذهنه . . . واستحالت ، مع الوقت ، عناداً وتشبثاً مبيدين مهلكين التهما صحّته ، واعتصرا عافيته ، وسلباه حجاه ، وأفقداه صفاته كإنسان! وهذا الوهم ، أو هذه الفكرة الخيالية التي لا تدرك ولا ترى ، نخرت جسده ، وامتصّت دمه ، وأخمدت جذوة عقله!

فما هذا السر الغامض المحيّر؟ وما هذا اللغز المبهم المربك؟ وعلام يقتل هذا الرجل من أجل فكرة؟ أو . . . لماذا تصرعه فكرة؟

إنه عرضة لعوامل الخوف والفزع ، والحزن والهلع . فكم من حلم

مريع مميت سكن جبين هذا المخبول؟ ورسم فيه هذه التجعدات العميقة ، والتغضنات الغامضة التي لا تنفك تتغير خطوطها وتتبدل تعاريجها من حال إلى حال؟ !

أخبرني الطبيب بأنه يصاب بنوبات حادة من الهياج الشديد ، وأن خباله نادر المثال قلّما عالج عارضاً مثله . . . وهو من النوع العشقي الغزلي الذي يتجمع في المخيلة ويستعر بنار الشهوة ، فينقلب المبتلى به إنساناً محطم الإرادة مسلوب الرشاد ، تتحكم به نزغات الشيطان ، وتسيّره الأوهام ، وتستهويه الرؤى الباطلة والأحلام . .

وقد أنشأ كراسة ضمنها قصة حياته أو قصة خلله . . . ومنها يستطيع المرء أن يقف على كنه علته ويسبر حقيقة مرضه . . وأضاف الطبيب قائلاً : «فإن شئت الإحاطة ورمت الاستزادة ، فهلم معي لأطلعك على الكتيب الذي وضعه هذا المعتوه» .

فتبعته إلى غرفته ، فقدّم إليّ كراسة الرجل البائس وقال : «اقرأها بتمعّن ، وأخبرني بعد الانتهاء من تلاوتها عن رأيك فيها وفي كاتبها . . .» .

وقرأت الكراسة ، وهذا نصها :

ناهزت الثانية والثلاثين ، ومرت عليّ هذه الفترة ، من العمر ، وأنا خلي البال ، مرتاح النفس ، مرح الفؤاد ، أعيش بيسر وهناء وبلهنية .

أحببت الدنيا ، وأحببت كل شيء فيها . . ولكنني لم أتعلق في ريّق عمري وموعة شبابي بشيء واحد تعلقاً من شأنه أن يحيل الدعة إلى اضطراب ، والاستقرار إلى اصطخاب ، والاطمئنان إلى قلق . . .

كنت أحب الحياة فأستيقظ كل صباح من رقادي ، لأفعل ما يسرني

ويشرح صدري ، وآوي كل مساء إلى فراشي واثقاً من الغد مطمئناً إلى المستقبل . . .

ولم تخل حياتي من النساء ، فقد أطعت دواعي الحب في أول الشباب ، وأحببت النساء وعاشرتهنّ . . . غير أن قلبي بقي سليماً لم يمزقه الشوق ولم يحطمه الحنين . وكذلك روحي ظلت في عليائها نقية خالية من الشوائب والأقذار . . . ومع ذلك فإن هذا الحب الذي بلوت طرفاً منه ، إن هذا الحب الذي عرك الناس فذاقوا حلاوته ولذته كما ذاقوا صابه وعلقمه ، يعد شيئاً تافهاً حقيراً إذا قيس بما مرّ عليّ فيما بعد . . . فإن الحب الجارف المنقطع النظير الذي اجتاح مشاعري واستولى على شغافي ، كان حبّاً عنيفاً هائلاً اضطرم في أحشائي بصورة غريبة شاذة لا عهد للناس بمثلها ، ولا قبل لهم بها !

كنت في بحبوحة من العيش ، فأقبلت على جمع التحف الأثرية القديمة . . . وكثيراً ما فكرت بالأيدي المجهولة التي لمست هذه التحف . . . وبالعيون التي رمقتها . . . وبالقلوب التي كلفت بها ـ والإنسان ميال بطبعه إلى كل ما يكتنفه الغموض ـ فكم من وقت قضيته وأنا أحدّق بساعة ذهبية صغيرة ، فأتفرس فيها وأتفحص ما نقش عليها ، وأصيخ لدقتها الرتيبة التي ما برحت تنبض منذ عشرات السنين . . . لقد استمرت تحيا حياتها الآلية ، رغم السنين الطويلة . . فمن هي الغادة التي حملتها في صدرها ، وأخفتها في طيات ملابسها ، ليخفق قلبها الآلي بجانب قلب صاحبتها الإنساني؟ !

لكم تمنيت أن أرى صاحبتها ، وأن أعرفها . كم تمنيت أن أعرف المرأة التي اختارت هذه التحفة النفيسة الرائعة من دون النساء جميعاً . . ولكنها . . ميتة !

لقد تمكنت من قلبي هذه الرغبة ـ رغبة الاستيلاء على نساء الماضي السحيق ـ فأصبحت أحب جميع من أحب في الماضي البعيد! وأصبحت قصص الغرام، وملاحم الحب والفروسية، تملأ قلبي أسفاً وحسرة ولهفة! آه للحب.. آه! الجمال.. الابتسام.. العناق.. الأمل.. يجب أن تخلد.. يجب أن تعيش.. يجب أن ترتسم صورها وظلالها في صفحات القلوب، فتنطق بمعانيها كما لا ينطق إنسان، وتتحدث كما لا يتحدث لسان!!

رب ليلة قضيتها أذرف الدمع السخين على المرأة الجميلة الحلوة التي طواها الموت منذ قرن من الزمن، والتي خلق فمها للضم والتقبيل.. فكل قبلة من ثغرها أزلية، وكل رشفة من شفتيها أبدية! إن القبلة خالدة.. إنها تنتقل من شفة إلى شفة.. ومن قرن إلى قرن.. ومن جيل إلى جيل! والرجال يأخذونها ويعيدونها.. ثم يموتون!!

الماضي يجذبني إليه، والحاضر يخيفني، لأن المستقبل هو الموت. وأتأسف... أتأسف لما فات.. وأذرف الدمع على من عاش ومات.. وأود من صميم قلبي لو استوقفت عقرب الساعة... وقبضت على الوقت... حتى لا يمر الزمن ويمضي.. فأنتقل أنا معه من طور إلى طور، مع الثواني والدقائق والساعات، إلى أن يؤول بي الأمر إلى العدم والانحلال!!

فالوداع يا امرأة الأمس.. إني أحبك!

على أنه لا يجدر بي أن أمالئ روحي وحسي على التذمر من الحياة الخالية من المعاني التي يبتدعها الحب، ويخلف لها آثاراً لا تبلى في العقول والقلوب، لأني وجدت ضالتي المنشودة.. أجل! وجدتها

بعد البحث الطويل . . فتذوقت اللذة العظيمة ، وتنشقت أرج العشق وعبيره . . .

فبينما كنت أجوّل في شوارع باريس ذات يوم ، وأنا عامر الفؤاد بالهناء والمسرة ، إذ أبصرت في دكان قديم قطعة أثاث إيطالية يرجع عهدها إلى القرن السابع عشر . فبهرني جمالها ، وخلبتني دقة صنعها . فجعلت أتأملها بشغف وأتمنى لو كانت ملكاً لي . . بيد أني غالبت شهوتي وسرت في طريقي . . لكنني ما عتمت أن رجعت أدراجي ووقفت تلقاءها ، وقد زيّنت لي نفسي أن أبتاعها ـ والتجربة إحساس عجيب . فالمرء ينظر إلى تحفة أو حلية ، فتستهويه هذه التحفة فيشتاق إلى اقتنائها ، وتغريه هذه الحلية فيتهافت عليها ، وتؤثر في مشاعره تأثيراً عميقاً فيشتريها بأغلى الأثمان . . . . وهذا السحر يكمن في شكل الشيء ولونه ودقة صنعه . . .

وهكذا ابتعت هذه القطعة الرائعة وحملتها إلى مسكني ـ وإني لأرثي لمن لا يمارس جمع التحف القديمة ، لأنه يجهل اللذة الفائقة التي يتمتع بها كل من فاز بقطعة فنية فريدة ، فيغدق عليها من عطفه وحنانه ورقته ما يبخل بمثلها على الأحياء ! فهو لا يفارقها إلاّ ليعود إليها . . ولا يفتأ يفكر بها . . وأنّى ذهب يلاحقه خيالها . . وعند الإياب وقبل أن يخلع قفازه من يديه ، وينزع قبعته عن رأسه ، يهرول إلى حِرزه ليمتع الطرف بسحر قنيته ! !

لقد عشقت هذه التحفة وكلفت بها ، وبذلت طاقتي لكي أتعرف على خفاياها وما يلابس تركيبها من الغموض . وما زلت أفتح مصاريعها وأدراجها ، وأحاول اكتشاف ما لم أتوصل إلى اكتشافه من جودة صنعها وإتقان تركيبها ودقة أجزائها المتداخلة بعضها في بعض ،

المختلطة بطريقة غريبة مذهلة ، حتى اهتديت مصادفة إلى مخبإ سري ، حينما أولجت وتداً رقيقاً في ثغرة ضيّقة فخرج من موضعه لوح خشبي ، ظهر خلفه جارور صغير شاهدت فيه ـ ويا لعظم ما شاهدت ـ ضفائر من الشعر الحريري ، نسج بعضه على بعض ، وألقي به على بطانة من قطيفة سوداء !

رفعت الضفائر الذهبية الناعمة الملمس المقصوصة من الناصية ، ففاحت منها رائحة الطيب ، وعبقت الغرفة بشذا المسك ، وانتشرت خصلها الحريرية فعاجت في يدي وماجت ، ثم أفلتت من بين أناملي فسقطت على الأرض ، فانبعث من مثانيها بريق باهر ، متلألئ كالكوكب الدرّي المتوقد . .

سدرت في أفكاري المتضاربة : لمن هذا الشعر؟ وكيف؟ ولماذا؟ ومتى خزن في هذه الخزانة؟ ما هي القصة أو المغامرة المرتبطة بهذا التذكار؟ من قدّه من رأس صاحبته؟ أحبيب في يوم فراق؟ أم زوج مخدوع انتقم لشرفه المثلوم؟ أم لعلها امرأة بائسة يائسة عاثرة الحظ ، جزّته واختزنته في هذه التحفة ، ليذكرها الناس بجمالها الآفل وحسنها الذابل؟ أم هل احتفظ بهذا التاج الذهبي حليل أو خليل مفؤود حزّه قبل أن يهيلوا التراب على جثمان حبيبته ، وادخره لكونه الشيء الوحيد من جسدها الذي يستطيع أن يقربه إليه ويدنيه منه ، فلا تمتد إليه يد البلى؟ !

أمسكت بالضفائر وأنا شارد اللّب ، وشرعت ألفّها على أناملي ، وألفّع بها ذراعي ، فشعرت كأني ألمس الموت ! فتأثرت وتألمت ، وودت لو بكيت وانتحبت ! أبقيت الشعر في يدي طويلاً ، فخيل إليّ أنه أثّر في إحساسي ، فألهب عاطفتي وهيج شهوتي . . وكأن بقية من أنفاس

صاحبته لا تزال تختلج فيه ! أو كأن روحها لا تفتأ تنفخ في طياته الحياة !

أرجعته إلى مكانه ، وخرجت إلى الطريق لأفكّر . . ولأحلم . . وطفقت أجوس في خلال الدور ، وأسير على غير هدى ، وقد مضضت مضضاً شديداً ، وهصر قلبي الحزن ، وشعرت بالوجد الذي تخلفه قبلة الحب الأولى ! وخيل إليّ بأنني سايرت ذلك الزمن وسعدت بمعاشرة تلك المرأة ، صاحبة هذا الشعر . . وترنمت بأبيات «فيلون» الشاعر الذي تساءل فيها عن مصير الكائنات ومصير الطبيعة بالذات . . فقال :

«أين الحسان؟ وأين الجمال الفتان؟ أين الغناء الذي رددته حناجرهن؟

«أين البسمات المرسومة والدموع المنهمرة؟ أين القبلات المأخوذة والقبلات المعطاة؟

«أين الأنهار ذات الخرير ، والثلوج الناصعة البيضاء؟ أين ذهب جميع هذا أين ذهب؟ !» .

جعلت أردد كلماته وأتنهّد من كبد حرّى ، وأزفر وأسكب الدمع الهتون !

وحفزني إلى الشعر شوق جارف ، فعدت مسرعاً إلى بيتي ، وأخرجت كنزي من مخبئه . . وناجيته ، فأحسست برجفة تتمشى في جسمي ! وخفق قلبي خفقاناً شديداً ، كمن أضناه الحب ولوعه الهيام ! فواهاً لهذا الشعر ! وواهاً على صاحبته التي عفا أثرها ، ولم يبق منها إلاّ رائحتها المنبثقة من شعرها !

وانقضت أيام أخرى ، لم يتغير عليّ شيء إبانها . . ولكن الشعر الحبيب لم يعد ذكره يبارح مخيلتي . . فكنت كلّما أنجزت أعمالي أهرع إليه ، لأخلو معه فأناغيه وأغازله وأبثه أشجاني . . وأبقى سواد الليل بقربه ، وأنا أتهجّد وأصلي وأسبح !

وعندما كنت أرجعه إلى مخبئه ، كنت إخاله كائناً حياً . . أو حياة غامضة مخفية مسجونة . . . فيعاودني الحنين ، فأخرجه من موضعه لأطفئ به عاطفتي الملحة العاتية التي أشعر كأنها تحثني على لمسه وضمه . . ولا ألبث أن أحس بضرورة تجريد نفسي وحواسي من يقظتها وقوتها ومضائها حتى تخضع لهذه النشوة العذبة والهوى المحموم !

ومضى شهر أو أكثر ـ لا أعلم ـ وأنا أعيش معه وله ، وعقلي يفكر فيه ويحوم حوله ! كنت هانئاً سعيداً . . وكنت شقياً معذباً ! كنت كالعاشق الصب الذي ينتظر بتلهف وتحرق معانقة الحبيب ، ورشف رضابه ، بعد المجاهرة بالهوى ، والتصريح بما خامر الصدر من خلجات الحب والولع !

وتفرّدت بالشعر وخلوت إليه ، وفعلت معه ما يفعل الحبيب مع حبيبه . . فقبلته وعانقته ودفنت شفتي في خصله . . ! ونثرته على وجهي وأغرقت عينيّ في موجاته الذهبية ، وأصبحت أرى الحياة «المذهبة الشقراء» من ورائه ـ حياة من فتنت القلوب . . . وفتنتني ! !

لقد أحببته ! أجل أحببته ! وكان حبي خلاصة الحب ، بل جوهره . . !

وعشت وحيداً وانقطعت عن الناس . . وكنت أشعر دوماً بأن شخصاً آخر يشاركني خلوتي ويقاسمني غرفتي . . !

وقضّ مضجعي الفكر ، واستل الكرى من جفني خيال واحد يلمّ بي في الليل ، ويتشبه في اليقظة والحلم في صورة صاحبة الشعر الحسناء وشخصها . . !

وبرمت بالأرق ذات ليلة ، فغادرت الفراش وأقبلت على الشعر لأمتع الطرف النّهم بالعقائص الذهبية ، فبدت في نظري أجمل منها في أي وقت مضى ، وأروع منها في أي زمن فات . . !

هل يرجع الموتى؟ !

لقد لثمت الضفائر آلاف المرات ، بيد أن القبل هذه الليلة فشلت في إدخال المسرة إلى قلبي المفتون ! فنقلت حبيبي إلى فراشي ووسدته وسادتي ، وألصقته بشفتي ، كما يفعل الرجل مع محظية أو عشيقة ! !

لقد رجع الموتي !

رجعت هي . . أجل رأيتها . . ولمستها . . وحزتها كما كانت . . حزتها كما كانت وهي حية في ريّق العمر ونضارة الشباب ! ! ـ حزت هذه الحسناء الملداء بجسمها اللدن ، وجيدها الرّخص ، وصدرها الناهد الكاعب ! !

أجل حزتها كما كانت . . وطفقت أتحسسها وأمرّر أناملي على جسدها ـ من العنق الغضّ اللين إلى ما بين الثديين الكاعبين . . . إلى الخصر الضامر . . إلى الفخذين . . إلى الركبتين . . حتى القدمين الدقيقتين ! !

لقد حزتها واستوليت عليها . . كل يوم . . كل ليلة ! !

لقد رجع الموت ! الموت الجميل الفاتن الغامض المجهول ، رجع كل ليلة ! !

وغشيني من الفرح والمرح ما لم أستطع كبته أو ضبطه . . . ووجدت بقربها من الابتهاج ما لا تضاهيه بهجة ، ومن المسرة ما لا يقارنها سرور . . وهنئت بها هناء يفوق الوصف والتقدير . . . وغمرتني نشوة هائلة جارفة ساعة ملكت هذا الموت ـ المجهول ـ الخفي ـ غير الملموس ـ ولا المرئي ـ وساعة امتزجت به امتزاج الماء بالراح !!

ولم أعد أطيق فراقه أو أصبر على بعده . . فألغيت احتراسي وحملته معي أنّى ذهبت . . وصار مرافقي إلى الملاهي ودور التمثيل والمطاعم العامة . . كما يرافق المرء خليلته أو حليلته !!

ولكنهم أبصروه معي ـ ففطنوا للأمر ـ فقبضوا عليّ ، وطرحوني في غيابة السجن كشرير لئيم ، وكمجرم نذل زنيم ، وكمعتد جانٍ أثيم . . وأخذوه مني . . وحرموني منه . . فهدّوا بذلك صروح أحلامي ، وكدروا عليّ لذتي وهنائي !!

*

ما كدت أطّلع على الكراسة وأقضي الأرب منها ، حتى دوت صرخة كصرخة الحُبلى ، وعولة كعولة الثكلى ، وتلا ذلك زمجرة غضب تدعو بالويل والثبور . . .

«اسمع . .» قال الطبيب : «اسمع صوت الخائر المسكين ، الذي لا يفتأ يصخ آذاننا صباح مساء . . وقد ألزمتنا حالته ، واقتضانا جنونه ، أن نُغَطّس في الماء القار هذا الفاحش المقبوح أكثر من خمس مرات كل يوم . . . إنه الشاويش برتراند الرجل الذي تعشق الموت . . .» .

فقلت وأنا لا أزال مبهوراً مبهوتاً مما رأيت : «والشعر ، أين الشعر؟» .

فقام الطبيب من مقعده وأخرج من خزانة ، تغص بالأدوية والآلات ، لمّة من شعر ذهبي معقوص بخيوط لجينية ، فتطايرت ضفائره كأَنها طيور من ذهب ساعة رماه إلى ناحيتي . . . وارتعدت أوصالي حالما لمسته أناملي . . . وجاش في صدري شعوران مختلفان متناقضان ـ الاشمئزاز . . والرغبة . . ـ الاشمئزاز الذي نشعر به عندما نلمس شيئاً يتصل بالجريمة . . والرغبة التي يَخْلِفها الإغراء لتذوق لذة شائنة فاضحة . . .

وهز الطبيب رأسه وأضاف : «إن عقل الإنسان قادر على كل شيء . . !» .

الأعمى

واهاً للشمس ! إذا أشرقت فتألقت ، فصفا شعاعها ، فأضاءت الأرض وغمرت الكون بنورها الفياض الباهر ، ارفضّ الهمّ وارتفع الغمّ واجتاحت النفس البشرية موجة من المسرة والجذل . وساعة ترسل أشعتها المذهبة كأنها حبال مقبلة على الإنسان ، تقوى النفوس اللاغبة ، وتشتد القلوب الضاوية ، وينقلب اليأس أملاً ، والتشاؤم تفاؤلاً ، والشقاء سعادة ، وتفعم الأفئدة بالهناء والحبور ، وتعمر بالغبطة والبشر ـ فالسماء زرقاء صافية ، والمروج خضراء مُخضَلّة والدور بيضاء ناصعة ـ أمّا أبصارنا المفتونة المأخوذة بهذا الرواء ، فإنها تنهل من هذه الألوان الطبيعية الزاخرة بالبهاء والجمال ، فتنتشي النفوس وتثمل الأرواح ، ويشعر الإنسان بالرغبة في أن يضحك ويرقص ويغني . . كما أنه يشعر كأنّ حملاً ثقيلاً قد انزاح عن عاتقه ، فيرتاح باله ويصفو تفكيره .

أمّا من ابتلي بالعمى ، فقد قبر الظلام الدامس الذي يعيش في ديجوره شعوره بجمال الطبيعة ، فهو لا يبصر ما يراه غيره ، وعلى هذا تبقى الحجب الكثيفة منسدلة فيما بين شعوره الخامد وبين الرونق المتجلي في أبهى حلله . . . فيسترسل في جموده ، ولا يتذوّق تلك اللذة التي يَسبُرها المفتّحون .

فإذا آبوا في الطَفَل يقودهم دليلهم الصغير ، وإذا هتف الغلام الغَرير «أعجب به من نهار جميل وهواء بليل وشمس مشرقة دافئة !» يجيب «أجل ، أجل ، إنه ليوم رائع ، وإلاّ لما استمر كلبي يلعب ويلهو !» .

عـرفت واحـداً من هـؤلاء المظلومين ، كـان يعيش في جـحـيم من الحياة ، وكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الألم الممض والشقاء المرمض ، فـهـو أقـرب مـا يكون إلى أولئك الشـهـداء الذين عـذبوا واضطهدوا ونُكّل بهم أفظع تنكيل !

كان أبواه من فلاحي نورماندي ، فلم يعبأا به ، ولكنهـما لم يهـملا أمره ، وكان ألمه في أثناء وجودهما على قيد الحياة مقتصراً على عماه وعـجـزه عن السـعي ، فلمّا مـات أبواه ، فقـد تعلّتـه وانطفـأ بصـيص رجائه ، فـشعر بـالذل والهوان ، وأضحى حـائراً مهَيض الجناح محتاجاً إلى من يعـوله ، ولم يجـد مندوحة عن اللجوء إلى بيت شقـيـقتـه المتزوجة . . .

وسرعان مـا تعرّض لجميع ضروب الامتهـان والاحـتقار ، فـازدراه الجمـيع ، وعـاملوه بالعسف والجـور ، وأغلظوا له القول ، وكـأنه شـحاذ متسول يأكل خبز غيره . .

ومع أن طعـامـه الـدائم كـان المرق الرخـو الـذي لا يقـيم الأود ولا يقيت الجسد ، فإنه لم يحصل عليه إلاّ مصحوباً بالإهانة والتجريح . . فإذا قدموا له صحيفته طعنوا فيه وأكثروا من أذاه . . . وإذا صمت ولم يجب لم يسلم من التهكم والاستهزاء ، ومن الأسمـاء المضحكة المزرية المعيبة يطلقونها عليه وينادونه بها .

أمّا زوج شـقيقته فقـد استولى على حصته الإرثية في تركة والده ، بيد أنه اتبع هواه فلم يعطه ما هو أهله ، بل أعطـاه قليـلاً من كـثـير ، وأخـذ ينتقـصـه ويهـجنه كلما رآه يحسو مـرقه أو يزدرده ويسـرع في ابتلاعه إن استبد به الجوع والسغب . . .

وفـضـلاً عن ذلـك فإنه لـم يصب حناناً من لدن أحد من الناس ،

ولم يجد الشخص الحادب الراحم الذي يرق له ويشفق عليه . . فأمه قبل وفاتها لم تعن بأمره وترفق به إلاّ مجاملة وانسياقاً وراء شعورها بالواجب تجاه ابن ضامه دهره وظلمه وقهره ـ فأهل القرى يحتقرون الضعيف لضعفه ، ويزدرون الذي لا منفعة لهم منه لعجزه . . ولولا ما حظّره القانون من القتل لقتلوه أسوة بالدجاجة التي تقتل فراخها الضعيفة المريضة ! لأنه في رأيهم ، ليس حقيقاً أن يترك بالحياة !

وكان صاحبنا يلزم باب الدار في أثناء الصيف أو يلوذ بالموقد يصطلي بنارها إبان الشتاء ، فتنقضي الساعات وهو قابع في مكانه متطامن منكس رأسه لا يتحرك منه إلاّ طرفه المظلم ، ينقله في كل مكان ، فلا يبصر إلاّ الظلام الكثيف . . فما الذي يفكر فيه؟ وما الذي يدور في خلده؟ هل تطوف في رأسه الأفكار؟ هل يشعر كما يشعر سائر الخلق؟ هل يشعر بوجود ذاته؟ ما عبأ به أحد وما حفل إحساسه وفكره إنسان . . فهو أتفه من أن يؤبه به أو يكترث بأمره !

وتعاقب الليل والنهار ، ومرت الأعوام ، ولم يتغيّر عليه شيء . فمرقه يتناوله كل صباح ، ومقعده يجلس فيه بلا انقطاع ، وحياته المملة المضجرة لا يتخلّلها شيء جديد . . إلاّ أنّ عجزه وضعفه وشعوره الغامض المبهم ، أحفظ أهل قرابته وأوغر صدورهم عليه ، وحفزهم إلى التنكيل بشخصه القانط ، ثم حرشوا غيرهم على العبث به وجلب الضرر إليه ، فتضافروا جميعاً على تعذيبه وتحميله ما يكرهه ، حتى أضحى هدفاً لكل من ينشد الإيلام ويأخذ من التعذيب ملهاة !

واستمرأوا مرعى بغيهم ، فساموه الخسف ، وأخذوه بالبأساء والضراء ، وعيّروه وسلقوه بالكلام ، واتخذوه لهواً ولعباً . . كأنهم

شاءوا أن ينتقموا لأنفسهم منه . . أو كأنهم أرادوا هلاكه بمكرهم وسوء خلقهم ، فأحالوا من أوقات طعامه ساعات لهو وترفيه لهم ، وساعات عقاب لهذا الضرير البائس !

وكان الفلاحون يقصدون إليه من الدور المجاورة فيتجمّعون عليه ويزدحمون حوله ، حتى إذا أقبل على طعامه يتناوله ، وضعوا أمامه كلباً صغيراً . . فيدنو من صحيفته متلصّصاً ويَلَغُ من المرق . . فإذا تنبه للأمر ابتدر الكلب بالملعقة يضربه بها فيروغ منها الحيوان ويقفز ملتمساً النجاة . .

ولا تسل عن حالة الموجودين فإنهم يستغربون في الضحك ، فتدمع عيونهم وتهتز خصورهم ويفحصون الأرض بأرجلهم . . ولكنه يتجاهلهم ويستمر في ازدراد مرقه ، وقد أحاط صحيفته بإحدى يديه ليدرأ عنها الكلب أو القط !

وسدروا في غلوائهم ، فدسوا له في طعامه قطعاً خشبية صغيرة . . كما أنهم لم يتورّعوا من خلط مرقه بالقاذورات والنفايات !

ولـمّا ملّوا هذا النوع من التعذيب ، عمد زوج شقيقته إلى أساليب أخرى جديدة ، وأنشأ يضربه ويصفعه . . واقتدى به الآخرون ، فأوقعوا به ضرباً وصفعاً ، حتى اعتاد على إبقاء ذراعه مرفوعة يحمي بها وجهه الشاحب الناحل المكتئب . . وأخذت أهدابه الطويلة تتلجلج وتهتز كلّما صفعه إنسان ، وكانت هذه الحركة المضطربة كفيلة بإثارة أعظم الحزن في القلوب ، لو كان هناك قلوب إنسانية رحيمة . . . !

ثم رماه قريبه بثالثة الأثافي ، فقسره على التسوّل ، وأكرهه على قضاء ساعات النهار على قارعة الطريق ، يطلب الصدقة والإحسان . . . فكان كلّما مرّ به إنسان يقول : «جودوا على

المسكين . . . أحسنوا إلى الأعمى الفقير !» . ولكنه لم يتصدّق عليه متصدّق ، فالفلاح مجبول على الشحّ مفطور على التقتير والبخل . . . فآحنه قريبه وحقد عليه . . . ومات بعد قليل ، وكان موته مأساة ، ولكنه استراح مما هو شرّ من الموت المريع ! وسأروي لك كيف كان مصرعه . . .

في صباح يوم بارد قمطرير ، ساقه قريبه رغم تساقط الثلوج إلى ناحية منعزلة وأمره أن يستجدي الأكف ، وتركه ورجع أدراجه . فلمّا أظلم الليل وأقفرت الطرق من السابلة ، زعم الرجل بأنه لم يعثر للأعمى على أثر . . . وأضاف قائلاً : «ولكن لا خوف عليه ، فلعلّه لجأ إلى بيت قريب فاستضافه أصحابه أو أشفقوا عليه فآووه . . ولن يلبث أن يعود غداً ليلتهم طعامه كسابق عهده !» .

ولكنه لم يرجع . . .

فبعد ساعات طويلة من الانتظار ، جمّد البرد أطرافه ، فشعر بأنه صائر إلى الموت إن لزم مكانه ، فطفق يمشي على غير هدى ، وقد بلغ من قلبه الحزن ، فيتخبط في الثلوج ، ويقع في الحفر ، ويسقط في الأخاديد ، فلا يصيح ولا يستغيث . . . وكانت جل أمنيته أن تقوده قدماه الكليلتان إلى مكان دافئ يستدفئ فيه من القرّ الشديد فلا يقضي عليه الدنق . فلما أيس من ذلك ، خارت قواه وأصابته الثَلجَة وغلب عليه التعب ، فوقع لا يستطيع حراكاً ، في حقل متسع مكشوف . . .

واستمرت السماء تندف ، والثلوج تعلو وترتفع حتى غاب في طياتها ولم يعد يظهر منه شيء . . .

وأوهم أقرباؤه الناس بأنهم يبحثون عنه ويقصّون أثره . . .

وتظاهروا بالحزن والأسى . . . ورثوه وتباكوا عليه !

وكان شتاء تلك السنة قاسياً طويلاً ، فتأخّر ذوبان الثلوج . وفيما كان الأهلون في طريقهم إلى الكنيسة في يوم أحد ، شاهدوا جماعة من الغربان تحلق فوق الحقل ، ثم تنحدر فجأة ، فتقع على جانب ضيق منه فتزدحم به وتلزّ بعضها بعضاً ، كأنها تجتمع على قطعة من اللحم . . .

وكذلك شوهدت الغربان في الأسبوع التالي تحوم في السماء كطائر واحد على المكان نفسه ونعيقها يملأ الأسماع فتبدو الأرض المكسوة بالثلوج كأنها رقعة بيضاء منقطة بالسواد . . . ولاح للأهلين بأن الغربان تحفر في الثلج كأنها تطلب شيئاً . .

فأثار هذا الأمر فضولهم ، ورغب أحدهم في الفحص عن شأن الطيور الجائعة ، فذهب إلى المكان الذي اجتمعت فيه ، وما عتم أن اكتشف جثة الأعمى ، وقد تأكّل نصفها ، واختفت عيناها الباهتتان . . .

*

أصبحتُ كلّما انقشع الغيم عن السماء ، وصحيت الدنيا ، وأرسلت الشمس أشعة أنوارها تغمر بها الكون ، وتشغف قلوب الناس حباً بالحياة ، أتذكّر الأعمى فيأخذني الوجد ويكتنفني الهم والكرب ، ويمثل في ذهني شبح ذلك البائس الجادب الحظ الذي حرم السعادة والهناء ، وحرم المتعة ولذة العيش . . . فلمّا قضى نحبه طابت نفوس ذوي قرابته بهلاكه ، وقرّت عيونهم بموته !

خدعة

جلس الطبـيب الكهل وزائرته الحسناء يصطليان بنار الموقد ، ويتجاذبان أطراف الحديث . ولم تكن الغيداء الملداء تشكو مرضاً عضالاً أو داء عياء ولكنها كانت تبث الطبيب شكاتها من الخور الطفيف الذي استشعرته ، والوهن الخفيف الذي ألمّ بها عقيب زواجها ، فقض مضجعها وكحل عينيها بالسهاد . وقد طمأنها الطبيب وأكد لها خلوّ جسدها من وعكة الحمى ، وأخبرها بأن ما ينتابها هو دلال العروس بعد مرور شهر على زفافها ، متى خصها الله بالبعل الكفء الذي قدح زناد الحب ، وسبر جوهره ، وعرفه كنه المعرفة !

فلمّا أفرخ روعها وغاض جزعها ، أقبلا على الحديث ، يمخضان زُبْده ويستخرجان خياره إلى أن قالت :

ـ كلاّ يا سيدي الطبيب ، لن يتسنّى لي فهم امرأة تزوغ عن المحجة ، وتخون زوجها . . حتى ولو سلمنا بحكم الضرورة بأنها لا تهواه ولا تقيم وزناً لوعودها وعهودها ، فهل يطاوعها قلبها لتخلع العذار؟ وهل يجاري ضميرها أهواء نفسها فتستسلم لرجل غير زوجها؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يحب وقد حاق به الكذب والخيانة؟

فابتسم الطبيب وقال :

ـ تمهّلي يا سيدتي ، فالأمر على عكس ما تظنين ، لأن المرأة لا تفكر بشيء متى تأججت نار الحب في صدرها . . وإني موقن بأن ثمرة الحب الحقيقية لا تنضج في قلبها إلاّ بعد أن تبلو الحياة الزوجية ، وتخبر ما يتخللها من حلاوة ومرارة ، ومن متعة وملالة ! والحياة

الزوجية ، كما يراها الرجل الحصيف البعيد النظر ، هي اتفاق بين ذكر وأنثى على التراشق بالألفاظ المقذعة بياض النهار ، وتكلّف الحب سواد الليل ! أمّا النفاق والزّيغ والبهتان ، فهي من خلال المرأة وخصائلها الملازمة لطبعها . . وأكثر النساء سذاجة لا تعدم الوسيلة التي تنجو بها من المعضلات والمشكلات !

فقاطعته قائلة : لا يا سيدي ، إن المرء لا يفكّر إلاّ بعد وقوع المكروه ، بما كان يترتّب عليه عمله . . ونحن النساء سريعات الانفعال ، تخور قوانا ، وتثور أعصابنا ، وتطيش عقولنا بسرعة البرق ، إن دهمنا خطب مفاجىء ، أو حاقت بنا مصيبة مباغتة . .

فرفع الطبيب يده وقال :

ـ زعمت بأن المرء لا يفكّر إلاّ بعد وقوع المكروه . . بيد أني سأقص عليك قصة سيدة كانت تتردد عليّ كلّما أعوزتها الحاجة إليّ ، وكنت أظنها عفيفة شريفة منزّهة عن الباطل . .

ففي ليلة محلولكة الجلباب ، كنت مستغرقاً في نومي ، سابحاً في خضم أحلامي ، إذ خُيل إليّ بأن أجراس الخطر تقرع إيذاناً بشبوب النار ، فهببت مذعوراً ، فعلمت بأني سمعت جرس البيت لا جرس الحريق . . ولم يلبث خادمي جين أن سعى إلى غرفتي وناولني رسالة مختومة ، ففضضتها على عجل فإذا فيها مكتوب : «إن السيدة ليليفر ترجو الطبيب سيميون أن يغيثها في الحال . .» .

فكّرت قليلاً : «إن وصَب أمثال هذه الشابة اللعوب معروف لديّ . . فهو ، على الأرجح ، صُداع في الرأس مصدره التهيج والانفعال وقضاء الليالي سعياً وراء المسرات وانتجاعاً للملاهي . .» .

فكتبت لها : «بما أن الأعمال الكثيرة أضنت الطبيب سيميون

وأجهدته ، فهو يستميح السيدة ليليفر عذراً ، ويرجوها أن تلجأ إلى زميله الطبيب بوني» .

غير أني ما كدت أستسلم للكرى ، حتى رددت الحجرات صدى الجرس يقرع قرعاً عنيفاً ، وأطلّ جين على الأثر يقول :

ـ هناك شخص ملثّم يصر على مقابلتك لأمر ذي بال يتوقّف عليه مصير شخصين . . فاستويت جالساً في سريري وأمرته أن يأذن للزائر المجهول بالدخول .

وولج الغرفة شبح مقنع متسربل بثوب أسود متسع ، فما كاد يرفع نقابه حتى عرفت هويته .

لقد كانت السيدة ليليفر زائرتي ، وكانت امرأة جميلة فاتنة صاغها الله صيغة حسنة وسكبها في قالب من السحر والرواء . وكانت زوجة تاجر موسر موفور الجاه ، وقد مضى على زواجها منه ثلاث سنين ، لم أسمع في أثنائها ما يخدش سمعتها أو يلوّث اسم زوجها . فلمّا حسرت النقاب ، هالني شحوبها واصفرارها ، وأفزعتني كآبتها المتجلية في أسارير وجهها .

قالت وهي تنشج بالبكاء :

ـ أسرع سيدي الطبيب ! أسرع قبل فوات الوقت ! لقد مات حبيبي . . مات بين يديّ وفي غرفة نومي ! وزوجي يؤوب بعد ساعة من الزمن ، فعجّل ناشدتك الله . . عجّل قبل أن أصطلي بالبلية !

فوثبت من فراشي ، وأخذت أرتدي ملابسي ، بينما جعلت أتلطف بها وأخفف عنها همّها ، وأقنعها بأن الحزن لا يجدي وأن التحرق على نار الأسى عاقبته وخيمة . وبالغتُ في السؤال والاستقصاء ،

فعلمت أن خادمتها روز كانت أول من قصد إليّ ، وأنها ملمّة بسرّ سيدتها ، مطلعة على خبيئة أمرها .

وقالت تحدثني بما جرى : «كنت سعيدة به هائنة بحبه ، وكان يعانقني ويهمس في أذني أعذب الكلمات وأشهاها ، عندما . .» وزفرت زفرة استغرقت أنفاسها ، وشرقت بدمعها وأخذت تلهث لهاث من يوشك على الاختناق . .

ثم نضبت دموعها فجأة ، كأنّ الجمرات المتّقدة في صدرها جففتها ، وقالت بنغمة مفعمة حزناً : «لتسرع يا سيّدي ، لتسرع . . لقد حضرت بعربته ـ عربته التي كانت في انتظاره !» .

وعندما أخذنا مجلسنا في المقعد الوثير وانطلقت بنا العربة ، طفقت أشحذ بصيرتي علّي أستنبط حلاً موافقاً لهذه العقدة الفريدة ، بينما شرعت هي تضغط على يدي بأصابعها المرتجفة ، وتقول بصوتها الحلو الجرس المرتعش النبرة : «لو تعلم . . آه لو تعلم مقدار عذابي . . إنّ هواه استولى على شغافي ، فأحببته . . بل عشقته . . وصرت لا أطيق فراقه !» . .

ولـمّا أفضينا إلى البيت ، ترجّلنا مسرعين وهرولنا داخلين ، وتطلّعت في كل مكان فأبصرت روز جالسة القرفصاء في أعلى السلم وبجانبها شمعة مضاءة .

ولـمّا دخلنا مخدع الزوجية ، رأيت ما شدهني وأثار دهشي ، فالأثاث مبعثر ، والفراش مقلوب ، والملاءات مختلطة بالأغطية . ولمحت في ناحية من الغرفة وعاء فيه ماء وفوطاً مبتلة ، وفاحت من المكان رائحة الخل .

وكان الرجل منطرحاً أرضاً وهو ساكن الحركة مطبق الجفنين ،

فجسست نبضه ، وفتحت جفنيه ثم نقلته إلى الفراش ، فوضعت أذني على صدره ، فلم أسمع لقلبه خفقاناً ، وألصقت مرآة صغيرة بأنفه فلم يحدث في صفائها كدراً ، فأخبرتهما بأن الموت قد اخترم أنفاسه ، وأنه يتحتم علينا أن نكسوه لباسه . وكانت أعضاؤه متيبسة ، وعضلاته متشنجة ، وقدماه منتفختين . بيد أننا ما زلنا به تارة نرفع له يداً وطوراً ساقاً ، حتى أنجزنا مهمتنا على أكمل وجه . فطلبت من روز أن تمشط له شعر رأسه ، غير أن سيدتها انتزعت المشط من يدها ، وشرعت تسرح له شعره وترجّله وتمرّر أناملها في خلال خصله الناعمة الفاحمة . . وما عتمت أن ألقت بنفسها عليه ، فاحتضنته وقبلته في عينيه وجبينه وخديه ، ثم ألصقت شفتيها بشفتيه ، وأغمضت عينيها ، وشرعت تمتص الشفتين المثلوجتين وترشفهما ، ثم أدنت فمها من أذنه وقالت وهي تغص بريقها : «الوداع . . الوداع . . الوداع . . يا حبيبي !» .

حينذاك أبعدتها عنه وقلت لها غاضباً : «لقد أزف ميعاد رجوع زوجك من النادي ، فلنكمل ما بدأناه ، حتى لا يخفق المسعى فيجتمع عليك الهوان والفضيحة» .

فحدّقت بي ذاهلة مشدوهة ، كأنها لا تعي ما أقول . . فاستتليت وأنا أومئ إلى الجثة : «هلم احملاها معي . .» فصدعتا بالأمر وحملنا الجثة إلى قاعة الاستقبال ، فوضعناها برفق على أحد المقاعد . .

في تلك الدقيقة سمع صرير الباب وهو يفتح ويغلق ، فقلت لروز : «لقد قدم سيدك ، فاذهبي وأصلحي ما فسد ، وأزيلي الوعاء والفوط ورتبي الفراش والرياش ، حتى لا يرى ما يثير الشك والريبة في قلبه . .» .

وكان السيد ليليفر يصعد السلم بتؤدة وتمهّل ، فلمّا وصل أعلاه صحت به : «أنا هنا أيها الصديق» .

فاستدار مبغوتاً ، وحدق فينا مبهوتاً ، وقال بلهجة تنم عن طيبته وانعدام ريبته : «ماذا جرى؟ ما معنى هذا الذي أرى؟» .

فوافيته باشّاً وقلت له : «لقد أزجيت الوقت مع زوجتك وهذا الصديق في اللغو والحديث . . وحين تأهبنا للذهاب غثت نفسه ، وأصابه الدوار ، وسقط مغشيّاً عليه . . ولم تجد معه وسائلي ، فعليه أرى أن نتعاون على حمله إلى العربة ، لأذهب به إلى مسكنه فأسعفه بالمنبّهات المختلفة حتى يفيق من إغمائه . .» .

فنزع الزوج قبعته عن رأسه ، وتقدّم من الميت فاتحاً عينيه بنظرة التعجّب ، فرفعه بين يديه ، وانحنيت أنا فوضعت ساقيه على ظهري ، ونزلنا تتبعنا الزوجة عن كثب !

ولـمّا حاذينا الباب المفضي إلى الطريق ، أنزلته عن ظهري وتأبّطت ذراعه ، وجررته إلى العربة ، وخاطبته على مسمع من الحوذي : «هذا الإعياء لا بد أن يفارقك ، فتشدد ولا تجعل للخوف سبيلاً إلى قلبك !» ثم دفعته داخل العربة وركبت بجانبه . .

وقبل أن تسير بنا العربة قال لي السيد ليليفر مستفهماً : «هل من خطر يتهدّد حياته؟» .

فهززت رأسي نفياً وأنا أخالس زوجته النظر ، وقلت : «لا تُرَع أيها الصديق ، فشبابه وقوته وصحته سوف تتغلب على هذا الطارئ البسيط !» .

ثم صافحت الزوجين وأمرت الحوذي أن يسوق الخيل . ولـمّا

وصلنا إلى مسكنه زعمت بأنه غاب عن رشده في أثناء الطريق . وبعد قليل أنبأت الأسرة المحزونة بوفاته ، وأقنعتها بذلاقة لسان وفصاحة بيان بأن الموت لا يعرف زمناً ولا ميعاداً ، وأنه لا يراعي شيباً ولا شباباً !

وقفلت راجعاً إلى منزلي ، وأنا لا أفتأ أشتم المحبين وألعن العشاق المستهترين !

وحالما انتهى الطبيب من قصته ، نظرت إليه الحسناء الهيفاء نظرة سخط وتأنيب وقالت وهي ترتجف من الانفعال والتأثر : «لماذا أطلعتني على هذه الفاجعة ، لماذا؟ !» .

فتغاضى عن غضبها وتجاهل سخطها ، وقال لها وهو ينحني انحناءة الاحترام : «من يعلم؟ ربما مستك الحاجة إلى طبيب مجرب يعرف واجباته . . فأنا رهن إشارتك في كل وقت سواء في الليل أم في النهار ! ! !» .

المبارزة

عرف في الهيئات الاجتماعية بـ(سنيول الظريف) ، وانتحل هو اسم (الفيكونت جونترام دو سنيول) ، وقد يَتم ولم يبلغ الحلم ، فورث ثروة كافية وافية .

وكان جذاب الشخصية ، جميل السّمت ، معتدل القامة ، حاضر البديهة ، متقد البصيرة ، وقد وسمه الله بسيماء الحسن والبهجة ، والنبل والعزة . وكان لشاربه التأثير الكبير في قلوب النساء وشعورهنّ . . . ولا غرابة في ذلك فالحسان يشوقهن شارب طويل مفتول . . .

واكتسب شهرة ذائعة في المراقص وحفلات الطبقة الراقية ، وكانت شخصيته الجذابة القوية توغر صدور أترابه ضغناً ، وتفعم قلوب أنداده حسداً واغتماماً . . لا سيما وقد راجت الإشاعات عن مغامراته الغرامية ، واشتهر بأنه صاحب سيف عَضْب ، وضارب نار قلّما يخطىء الهدف . .

وكان يقول : «إن قسرت على القتال ، فلن أختار إلاّ المسدس ، لعلمي بأنه ينتج الظفر ، ويردي من تعدى وغدر !» .

ودعا في إحدى الليالي سيدتين جميلتين فاتنتين وزوجيهما إلى المسرح . فلمّا انتهى التمثيل ، رافقهم إلى مقصف فخم شهير ، فجلسوا يتناولون أصناف المرطبات ، ويتجاذبون أطراف الحديث . وبينما هم في سمر ومفاكهة ، حانت من الفيكونت لفتة ، فاسترعى انتباهه رجل يهاجم إحدى رفيقتيه بنظراته الحادة . . فاستاء من هذا الرجل ذي الوجه الوَقاح والنظر الملحاح . .

وفطنت السيدة أيضاً لهذا الرجل المسفّ، وتضايقت من نظراته الثاقبة، فمالت على زوجها وأفضت إليه بجَلية الأمر، وأنشأت تقول: «أف لهذا الفضولي الذي لا يستحي.. إنه يكاد يلتهمني بعينيه.. فهلّ تعرفه؟ وهل هو من أخدانك؟».

فأجابها زوجها: «إنني لا أعرفه يا عزيزتي، ولست من أصدقائه وخلانه..».

قالت: «لقد ضقت ذرعاً بنظراته، وأشعر بالحرج والاضطراب».

فهزّ الزوج رأسه وقال: «تجاهليه يا عزيزتي وأعرضي عنه ولا تعيريه انتباهك، فلا قِبَل لنا على محاسبة الناس على نظراتهم وما يعملون..».

وأصغى الفيكونت لحديث الزوجين، ولم تفته كلمة من كلمات المرأة الفاتنة، فتصاعد الدم إلى رأسه، وحدته ميعة الشباب ونزقه، فنهض من مكانه، وعمد إلى الرجل الغريب فقال وهو يحدجه بنظرات ترمي بالشرر: «إنني أستهجن نظراتك يا سيدي، وأخشى أن لا تصبر نفسي عليها، فاعص أهواءك ولا تستمرئ المعاكسة، فعاقبتها وخيمة!».

فقال الرجل: «إن صحّت فراستي فأنت تهدّدني وتتوعّدني يا سيدي!».

فاستشاط الفيكونت غضباً وقال: «حذار من الاسترسال في المماراة.. وافعل ما أشرت به عليك، فهذا خير لي ولك!».

فما كان إلاّ كلمح طرف، حتى صخَّت الآذان كلمة نابية مقبوحة تلفّظ بها الرجل، فتحولّت الأنظار صوب المتخاصمين، وسكن اللغط وقرَّت الأصوات.. ومزق الصمت صوت حاد شديد ـ لقد صفع

الفيكونت غريمه ، فدفع الشر بالشر ، وردّ الكيد إلى النحر ـ ولم يلبث الرجلان أن تبادلا البطاقتين .

وعاد الفيكونت إلى بيته مرفوع الرأس شامخ الأنف ، يميس ويتمايل زهواً وكبراً . . ولا عجب . . فقد صان كرامته ، وضن بنفسه أن تضام . . وطفق يغدو ويروح في غرفته وهو أحسن ما يكون نشاطاً وانشراحاً .

وفكّر فيما أقحم نفسه فيه ، وخطرت على باله المبارزة ، فما التاع وما ارتاع . لقد أقدم على أمر عظيم ، بيد أنه أنقذ شرفه وصان وجهه ، وظهر بمظهر يليق باسمه وسمعته ، ولا غرو أن الناس ستسمه بالنبل والشجاعة والإقدام . .

ولاح له بغتة وجه غريمه ، فاندفع يقول وهو يصرف بأسنانه : «ويحه من وحش قذر!» .

وذهبت به الأفكار كل مذهب . . إن عليه أن يختار الشهود . فأي الأصدقاء يختار؟ وأخيراً رأى أن يكون أحدهما (المركيز دو لاتور نوار) والآخر (الكولونيل بوردين) الجندي المتقاعد ، وكلاهما عريق في الحسب والنسب . وغلبه الظمأ فشرب حتى روي ، وعاد يناجي نفسه : «القوة . . القوة . . يجب أن أواجه الأمر بجأش مكين ، فأكون كالحصن النكير ، وأتعسّف في شروطي ، وأصر على مبارزة حاسمة لا هوادة فيها ولا لين ، فيرهبني الخصم ويهاب لقائي . . ولعله يؤثر الانسحاب لينجو بنفسه من الهول!» .

وعاد يتأمل بطاقة عدوه للمرة الثالثة . . (جورج لاميل) . من هو هذا الرجل؟ وتراقصت الأحرف أمام ناظريه ، وبدا الاسم الكريه غامضاً . . جورج لاميل . . تبّاً له ! لِمَ حدج الغيداء؟ لِمَ تعرض لحياته

فقلبها ظهراً لبطن؟ وكيف سوّلت له نفسه الماكرة أن يهاجم سيدة غريبة عنه بنظراته الشرهة الأثيمة؟ وهتف : «ويلمِّه من وحش!» واختطف مطواة كانت ملقاة على مكتبه ، فطعن البطاقةَ ، وكأنه يطعن قلب صاحبها!

ولبثت الأفكار يَهجنَ همه ويُثرن شجنه وغمه . . ما له معدى عن القتال ، ولن يثبطه أمر . فأي السلاحين ينتقي؟ السيف أم المسدس؟ إن هو اختار السيف ، يقل الخطر . . وإن اختار المسدس فسوف يخاف عدوه المحنة ، ويحسب ألف حساب للبلوى . . فقلّما يقتل المتبارز بالسيف ، لأن الحذر يكون رائده ، والحرص ديدنه ، وتجنّب الطعنة النجلاء أمنيته . . أمّا المسدس ، فمن النادر أن ينجو كلا المتبارزين به من الموت . . ولن يضيره تمسكه بشروطه ، وتشبّثه بالمسدس دون السيف ، وصاح بصوت جهير : «الثبات يا سنيول؟ الثبات! زَعْزِع ثقة خصمك بثباتك! وحطّم أعصابه بتصلبك! واسحق قلبه بإصرارك! فيجنح إلى المسالمة ، فينسحب . . حتى لا يحيق به البوار!!» .

وارتجف كريشة في مهب الريح . . واقشعر بدنه ، وخاف من صوته . . فتلدّد يميناً وشمالاً وهو واجف القلب مبهور النفس . . وشرب قدحاً آخر من الماء ، ثم نضا عنه ثيابه واستلقى لينام . . بيد أن أفكاره ، المتسربلة بالسواد ، طردت النعاس من عينيه ، وكحلت بالسهاد جفنيه!! ولكن . . لا بد له من الهجوع ، حتى يريح ذهنه وجسمه فلا يظهر بمظهر الجبان الرعديد . .

وشرع يتقلّب في الفراش ، كأنه نائم على قتاد ، وشعر بالظمإ ، فهل في جوفه نار مضطرمة ، أم في حشاه أتون مستعر؟ وعبّ الماء فلم ينقع صداه سِواغٌ قراح ، ولم يبرد عطشه عذب نُقاح . .

وحدّث نفسه : «أيمكن أن أكون خائفاً؟» وخفق قلبه بعنف وارتعدت فريصته ، ولم يقدر على رفع الارتعاش . . ماذا ألمّ به؟ لِمَ يفتح فمه بلهاث متتابع كلما باغتته حركة أو صخّت أذنه همهمَة خافتة؟ !

ما هذه الهواجس والوساوس؟ ما هذه الأوهام؟ لقد وطد عزيمته على القتال ، فليتذرع بالصبر وليتذرع بالجرأة !

ولكنه خائف مذعور ، ونفسه مضطربة غاثية من اللغوب . . ! وحملق بعينيه الكليلتين ، كأنه يبغي الفرار ، أو يستجير ويطلب الغوث !

واجتاحته موجة من الحيرة والارتباك . . . ماذا يصيبه إن ظفرت مخاوفه فاستولت على إرادته؟ وكيف يكون موقفه إن ارتجفت أوصاله وارتعشت يده؟

وقفز من فراشه كالمخبول ، وحدّق في المرآة ، فهاله شحوب وجهه وتعرّق محياه . . وغشيه فكر هائل مريع . . «بعد يومين وفي مثل هذه الساعة ، أكون قد انتهيت» فأنّ أنين الثكلى . . . «بعد غد ، وفي مثل هذه الساعة أكون قد انتهيت ـ هذا المخلوق الذي يرنو إليّ . . . هذا الكائن الحي الذي يتـــــراءى لي كل يوم في المرآة . . يزول من الوجود . . إنني حيّ أرزق . . وبعد أربع وعشرين ساعة أكون مسجّىً على هذا الفراش ـ خامد النفس ، مغلق العينين ، بارد الجسد ، معدم الحركة ، معدوم الإحساس !» .

وألقى على الفراش نظرة الخائف ، فألفى نفسه راقداً فيه ، وقد رسم الموت خطوطه الرهيبة على جسده ، وشلّ حركته وجمّد أطرافه !

فضاق ذرعاً بما رأى ، وكاد يصرخ هلعاً وفزعاً ، وهرول إلى ردهة

الاستقبال ، ولكنه أحسّ بالبرد الشديد ، فلم يشأ أن يدعو خادمه حتى لا يفطن إلى حالته ، وأنشأ يشعل النار ، فكان يرتجف كلّما مست يده شيئاً . . . وخُيّل إليه بأنه ثمل من غير أن يأخذ فيه الشراب ، وأنه يهذي بما لا يسوغه العقل والرشد ، وعاد يتساءل : «أوّاه ! ماذا دهاني حتى برى الوجد قلبي ، ونحت الخوف صدري؟ !» .

وأظلمت الدنيا في عينيه ، وشعر بأنه على وشك الانهيار ، فحسر ستائر النافذة ، فإذا الضياء قد أسفر ، والصبح بانت تباشيره . فأخذ يتطلّع إلى السماء اللازوردية ، وإلى المدينة الغارقة في نور الشمس ، فانتشت نفسه ، وانتفى مضضه ، وانتعشت آماله . وكأن الضوء المتبسّم الذي خلف الظلام المتجهّم ، قد فعل في قلبه الحائر ونفسه الخائرة فعل الترياق في جسم أدنفته السموم . . . فأيقن أنه كان مجنوناً ، وإلاّ لما وقع فريسة للهمّ والغمّ ، يُمثلان به مُثلة شنيعة قبل أن يُبَتَّ نهائياً في أمر المبارزة . .

وطابت نفسه وسكن جأشه وأحس بالطمأنينة ، فاغتسل وتزيّن وتأنّق في ملبسه ، وغادر مسكنه بخطى ثابتة قوية .

ومرّ على صديقيه ، وطلب منهما أن يكونا شاهديه في المبارزة ، فلبّيا طلبه مسرورين ، وبحثا معه في الشروط التي ارتآها . ولـمّا انتهوا من البحث فيها قال له الكولونيل :

ـ هل تصرّ على قتال شديد حامي الوطيس؟

فأجابه الفيكونت بصوت جاف غليظ :

ـ أجل ، يجب أن تكون المبارزة حياة للغالب المنتصر ، وموتاً محتوماً للمغلوب المندحر ! وأريد أن تطلق النار من مسافة لا تزيد على عشرين خطوة ، وأن يدوم تبادل القذائف حتى يسقط أحدنا !

فضغط الكولونيل على يده وقال :

ـ هذا رائع . . فأنت تجيد الرماية ، وكفتك على ما أظن هي الراجحة . .

وودّع الفيكونت صاحبيه ، وقفل راجعاً وهو يشعر بالقوة ورباطة الجأش .

على أن هدوءه ما عتم أن فارقه ، وخوفه الذي أرخى عنه قبضته ما لبث أن أخذ بقلبه . . فلم يقو على الوقوف ، ولم يطق القعود . . وحاول أن يطعم ، فعافت نفسه الأكل ، ولم يجد مندوحة عن معاقرة الخمر ، ففيها تفريج عن القلب ، وتسريح لجيوش الهمّ والكرب !

فعبّ ست أكؤس من الصهباء ، فاندلعت من جوفه النيران وفعلت سورة الراح فعلها في رأسه ، فتهلّلت أساريره ، ولمعت نظراته ، وخيل إليه أنه وجد الدواء المنشود ، فاستمر يجرع الكأس تلو الكأس ، حتى أتى على ما في الإناء . .

غير أن اضطرابه اضطرمت نيرانه بعد خمود ، ومخاوفه ثارت بعد ركود ، واستحال هدوؤه إلى يأس هائل مرير . . وود لو انطرح على الأرض ، ليتدحرج على نفسه ، ويصيح ويرفع صوته بالبكاء !

وغربت الشمس وغاب الشفق ، وادلهمّ الليل . . وقرع الباب . . فترنح الفيكونت في مكانه ، وتأوه آهة التوجع ولم يجسر على استقبال شاهديه . .

فلمّا أدخلهما عليه خادمه ، قال له الكولونيل :

ـ أبشر يا صاح ، فقد أنجزنا مهمتنا وفق رغبتك . . وقد رضخ خصمك بعد معارضة ، ووافق على شروطك بعد مماراة ومفاوضة . .

فأجابه الفيكونت بصوت خافت :

ـ شكراً لكما .

وقال المركيز :

ـ سنقصد الآن طبيباً صديقاً لنطلب منه أن يصحبنا غداً عسى أن نحتاج إليه ، وننطلق من بعد لنبحث عن مكان قريب من المساكن ، حتى إذا سقط أحدكما جريحاً تسنى لنا نقله وإسعافه .

فأجابه الفيكونت ، وهو لا يرفع بصره :

ـ شكراً لكما .

وقال الكولونيل :

ـ هل تشعر بالهدوء والاطمئنان؟

فهزّ رأسه ، وقال :

ـ إنني على خير ما يرام !

وغادره الصديقان ، وذهبا في سبيلهما .

ولـمّا انفرد في الغرفة ، مثلت في ذهنه خيالات الشرّ ، فتناول ورقة وقلماً وجلس ليكتب . .

وخطّ في القرطاس : «هذه وصيتي» . .

ثم رمى بالقلم ونهض من مكانه وهو ممتقع اللون ، متهافت النفس ، يُردف الزفرة بالزفرة !

فالكارثة واقعة لا محالة ، فحريّ به أن يشدد عزيمته حتى لا تخونه شجاعته ! ولكن أنّى له هذا؟ وهو في مقام مجاذبة بين الارتياح والالتياع ، والخوف والخور؟ !

وأغمض عينيه حتى لا يرى ما نزل به من النقَم . . غير أنه رأى يده تهتز وترتجف ، ورأى المسدس يضطرب في قبضَته .

ثم تناول من دِرج مكتبه مسدساً كبيراً ورفعه، فَزلْزِلت يده واضطربت شديداً.. فصاح والأسى ملء صوته:

ـ أواه! يا لنفسي الواهنة! ونظر من أنبوب المسدس ووضع عينه على الثقب الذي يبصق الموت.. وفكّر بالمذلة والهوان.. وفكّر بالعار والشنار... وبالتخرصات والأراجيف.. وبسخرية الرجال وهزء النساء.. وبالسيل الجارف من النكت اللاذعة التي سوف تجود بها الصحف.. وسوّلت له نفسه أمراً..!

إن خانه جلده، فقد مكانته وسمعته! وإن خفرت عهده شجاعته لطخ اسمه ولوثه بكل نقيصة.. فما العمل؟ ما العمل؟ إنه لأعجز من أن يكون شجاعاً باسلاً، وإنه لأضعف من أن يصمد حتى النهاية! لقد انتهى الأمر، ومع ذلك.. فهو شجاع لأنه يريد القتال.. وهو شجاع ما دام...

ولكن الفكر الذي فَرَّخ في رأسه لم يتكوّن منه صورة واضحة، لأنه فتح فمه في تلك اللحظة وأطلق الرصاص!

وهرع الخادم إلى غرفته، فوجد سيده صريعاً على الأرض وقد انبثق الدم من وجهه.. وحملق بنظره المشدوه فرأى في الورقة البيضاء لَطخَ دماء، ورأى فيها بقعة حمراء تكوّنت فوق هاتين الكلمتين:

«هذه وصيتي».

العِقْد

كان اللقاء الأول بينهما في نادٍ محشود بالراقصين والراقصات ، فكَلِف بها السيد لانتن ، وشغفه حبُّها من أول نظرة . .

وكانت الفتاة كريمة طبيب عالي المكانة ، عاش ومات في الريف ، ولم يخلف من المال إلاّ النزر اليسير . فركبت الأرملة ووحيدتها متن الأسفار وطَوَّفَتا في المدن وجَوَّلتا في الأمصار ، وما عتّمتا أن ألقتا عصا الترحال في باريس .

واصطفت الأم الخلة والأصدقاء ، واتخذت الأخدان والأحباء ، عسى أن تظفر بِقرن لابنتها العذراء يليق بها زوجاً . .

ولم يكونا في سعة من العيش ، بيد أنهما صانتا أنفسهما عن المنكر ، وتجنبتا ما يخدش السمعة ويحط من القدر . .

وكانت الفتاة غادة ناعمة غضة الصبا بارعة الجمال ، أضفى الباري عليها ، بجانب ما حباها به من النضرة وإشراق الوجه ، رقة في الشمائل واستقامة في الخلق ، قلّما اجتمعتا في فتاة . . وكانت افترارة شفتيها ، وسجو طرفها ، ونعومة بشرتها ، ودماثة خلقها ، انعكاساً لطهارة روحها وطيبة نفسها ونبالة حسها . . حتى إنها أحيطت في كل مكان وُجدت فيه بهالة من المعجبين . وأنّى ذهبت كانت نفحة ريّاها تفغم القلوب ، وشذا حسنها يعبق في الصدور ، فتمتلئ قاعات الاجتماعات بعبارات الثناء والمديح ، وتفعم بكلمات الإطراء والتقريظ . . ولم يملّ من عرفها وخبرها من ترديد : «سعيد هو الرجل الذي يفوز بالحورية الحسناء هذه . .» .

أمّا لانتن فكان مستخدماً حكومياً يتقاضى (٧٠٠ فرنك) سنوياً، وكان يضيّق على نفسه ويقتر ويقتصد، حتى تسنى له ادخار بعض المال، ليستعين به على عقد زيجته إن وفقه الله إلى فتاة أحلامه.. فلمّا قابل هذه العذراء الهيفاء الملداء، خفق قلبه خفقة الحب، فغالب حياءه وقاوم خجله واعترف لها بما يخالج صدره.. ولم يلبث، أن صادف منها قبولاً، أن اجتمع بالأم الطيبة وخطب إليها ابنتها.. فرحبت الأم بطلبه، وقبلت به بعلاً لوحيدتها...

فلمّا زفت إليه الفتاة، شعر بأنه حاز السعادة، ونال الهناء، وبلغ أوج ما يصبو إليه الإنسان.. فعروسه الماهرة المدبرة المقتصدة عالجت أموره المالية بحكمة وأصالة، حتى بدا له أن دخله المحدود تضاعف بيد عروسه المباركة، فأتاح لهما أن يعيشا عيشة رغد وبلهنية..

وكانت بجانب مهارتها في إدارة شؤون المنزل، بَرَّة مخلصة له، تغدق عليه من حنانها وعطفها وحبها ما يجعله يرفل بأثواب السعادة القشيبة التي لا تبلى.. فهي لا تفتأ تدلله وتداعبه وتساقيه كؤوس الغرام.. فمضت الأعوام كأنها أيام، وأدرك بعد مرور أربع سنين بأنه يهواها أكثر من ذي قبل.. وأن جذوة غرامه المتّقدة زادتها السنون اضطراماً وتأجّجاً..

ولم يجد ما يلومها عليه إلاّ ولعها بمشاهدة الحفلات التمثيلية، وافتتانها بالجواهر الزائفة وإقبالها على اقتناء الأقراط والأساور والعقود المغشوشة..

وما أكثر ما أرسلت إليها إحدى صديقاتها ـ وجلّهن قرينات ضباط في الجيش ـ رقعة الدعوة لمشاهدة إحدى المسرحيات، فكان يرافقها على مضض، ولا يفارقه السأم والملل إلاّ متى ألفى نفسه خارج

المسرح . . حينئذ يتنفّس ملء رئتيه ، فهو لا يميل إلى التمثيل ، ويود من صميم قلبه لو أنه أعفي من هذا الواجب الثقيل . .

فانتهز أول فرصة سانحة ليرجو زوجه أن تعتاض عنه صديقة من صديقاتها . . فسفّهت رأيه ، وتمنّعت وأبت أن تلين لرجائه . . بيد أنها استجابت لضراعته وإلحاحه ، ولم تجد مندوحة عن تحقيق أمنيته . . فاغتبطت نفسه ، وامتلأ قلبه حبوراً ، وشعر كأن حملاً ثقيلاً انزاح عن عاتقه . .

ولكنّها بجانب شغفها بالمسرح والتمثيل ، تضاعف ولعها بالملابس الأنيقة المعجبة والجواهر الزائفة الخلابة ، فشرعت تزيّن أذنيها بالأقراط المتألقة ، وتحلي جيدها بالعقود البرّاقة ، وتلبس زندها الأسورة المتلألئة . .

ولم يخفِ لانتن تبرمه بما استقر في نفسها من هذه العادة ، وطالما احتج عليها بقوله : إنّ الإسراف في التبهرج لا يزيدنّ جمالك الأخاذ الذي أسبغه الله عليك . . فالجواهر الزائفة كالثناء الباطل والإطراء الكاذب . . والحلي الخلابة كالبرق الخادع . .

فكانت تهز رأسها وتقول مبتسمة : «ما لي مغنىً عنها يا عزيزي ، لقد صارت العادة طبعاً والديدن سجية ! فلا تحنق . . وثق بأني أوثرك على جميع جواهري وملابسي» . . وكانت في أثناء كلامها تقوم إليه فتمرّر العقد على وجهه ، وتقرب فصوصه الكبيرة من عينيه ، وتقول ماجنة هازلة : انظر . . انظر . . ألا يبهر نظرك البريق؟ ألا يخطف بصرك كما لو أنه جوهر حقيقي مستخرج من قعر البحر؟ !

وقد طالما انتبذا ناحية الموقد في ليالي الشتاء المقرورة ، ولاذا بناره يستدفئان ، وأخذت هي تلهو بالحلي الزائفة ، فتقلّبها بين يديها ،

وتتأملها وتمعن النظر في ألوانها ، ثم تقوم من مكانها فتطوق عنقه بعقد من العقود ، وتقول له وهي تستغرب في الضحك : «لشد ما يثير ضحكي ويستفز سروري منظرك . . يا عزيزي . .» ولا تعتم أن ترمي نفسها في أحضانه فتقبل فاه وتلثم خديه وعينيه وشعر رأسه . .

ورجعت إلى البيت في إحدى الليالي المثلوجة وهي تجر قدميها جراً . . ولم تلبث قليلاً حتى أخذتها القُشَعْريرة ، وألّمت بها في اليوم التالي نوبات حادة من السعال ، والتهب جسدها بالحمى . وبعد ثمانية أيام وافتها المنية ، فلفظت أنفاسها الأخيرة بين يديّ زوجها . .

فطارت نفسه شعاعاً ، وبرّح به الهم ، وشفه الدنف ، وتغيّرت حالته ، واشتعل المشيب بمفرقيه . . وكان ينتحب كطفل ويذرف الدمع الغزير ، حتى تقرّحت جفونه واحمرت عيناه ، وألحت عليه الذكريات فأضته وأضنته وكبدته العذاب المهول . .

وكان يرى شبح زوجه الراحلة ليل نهار . . كان يرى وجهها وجسمها ، وكان يسمع صوتها ويصغي إلى نبرتها ، ويشعر بنفسها الحار على وجهه ، فيجنّ جنونه . .

وضاعف مرور الوقت همّه اشتعالاً ، فلم ترقأ دمعته ولم يقرّ شجوه . . فكره الحياة واستطاب الموت .

وزاد في الطين بلة اضطراب حالته المالية . . فبعد أن كان أجره يكفيه ، أصبح بعد وفاة زوجه لا يفي بحاجاته الضرورية ، فدهش من ذلك ، وتلهّف حسرة على تلك الأيام الغرَّة التي كان في أثنائها يحسو أجود أنواع النبيذ ويطعم أفخر أصناف الطعام . .

وصفر من المال فاضطر إلى الاقتراض . . ولم يجد بداً في نهاية الأمر من التفكير في بيع ما يقيل بثمنه عثرته ، ويجبر ما انهاض من

حالته . . وخطرت على باله الجواهر الزائفة التي كانت بالأمس القريب مثار اشمئزازه وسخطه ، فأصبحت اليوم كالشجى في حلقه وكالقذى في عينيه . . فناجاه الفكر أن يتخلّص منها ، واختار أن يكون أول ما يبيعه ذلك العقد الكبير الأثير عند قرينته الحبيبة . . وكان في رأيه لا يساوي إلاّ بضعة فرنكات . .

ووضع العقد في جيبه وقصد جوهري تلك الناحية ، فدخل دكانه وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وابتدر بائع الجواهر بقوله :

ـ أكون لك من الحامدين يا سيدي إن عرّفتني ثمن هذا العقد . .

فأخذه الرجل وفحصه مليّاً ، ودعا مساعداً له فسارّه وحادثه همساً ، ثم عاد يخبر العقد ويسبر جوهره . . إلى أن عيل صبر لانتن ، وضاق صدره وأوشك أن يصيح به : «ضيعت الوقت فيما لا منفعة فيه أيها المعتوه . . فالعقد من النُفَيات ، وهو مثل يلامع القاع ويرامع البقاع . !» .

ولكن التاجر عاجله فشدهه وألجم لسانه حين قال :

ـ إني أقدّر قيمة هذا العقد بخمسة عشر ألف فرنك . . بيد أني لا أشتريه إن لم تطلعني على مصدره وتثبت أنه مَلكة يمينك . .

فبهت لانتن واستحوذ عليه الذهول ، بيد أنه تجلّد وقال بلسان متلعثم :

ـ أواثق أنت مما تقول؟

فأجاب مقتضباً :

ـ قوّمه عند غيري إن شئت ، فإن بذل لك ثمناً أعلى فبعه وإلاّ فارجع إليّ . .

وهزّ لانتن رأسه موافقاً واسترجع العقد ومضى في سبيله . وطفق يسخر من غفلة التاجر وجهله وقلة معرفته ودرايته ، ويناجي نفسه ويحدثها قائلاً : «تباً له من غبي أبله لا يفقه سر مهنته ولا يستطيع أن يفرق بين الجوهر الحقيقي والزائف . .» وعرّج على دكان آخر ، فأعطى صاحبه العقد ، وبيّن له غرضه . . فما كاد الجوهري يلقي نظرة على الحجارة الكريمة حتى هتف بصوت جهوري :

ـ هذا العقد . . لقد بعته بنفسي !

شده لانتن والتبس عليه الأمر ، وتساءل عن قيمته ، فأجابه الجوهري :

ـ كان ثمنة في ذلك الحين (٢٠ ألف فرنك) أمّا الآن فإني أسترجعه لقاء (١٨ ألف فرنك) إن أطلعتني على كيفية انتقاله إلى حوزتك . .

فأجابه لانتن وقد امتقع لونه وارتجف صوته :

ـ ولكن . . ولكن . . أرجو أن تعجمه وتختبره ، فإنني حتى هذه الساعة كنت أحسبه زائفاً تافه القيمة زهيد الثمن . .

فقال الجوهري باسماً :

ـ إني خبير بصنعتي يا سيدي . . فما اسمك؟

قال :

ـ اسمي لانتن . . وأشتغل في وزارة الداخلية . . وأقطن البيت رقم ١٦ شارع الشهداء . .

وتبادل الرجلان النظرات . . وكانت نظرات لانتن تعبّر عما خامره من الشداه والدهش . .

أمّا الجوهري الحذر فقد فضحت عيناه شكه ، وتحدثت عن ظنه . . وأخيراً قال الجوهري المرتاب :

ـ هل يمكنك ترك العقد عندي حتى الغد ، لقاء إشعار مني بوصوله إليّ؟

فأجابه بعد تردد يسير :

ـ ليس عليك من حرج . . أبقه عندك وسأعود غداً لاسترداده . ثم أخذ منه الوصل وانصرف وفي قلبه هموم ، وفي مخيلته صور قاتمة حالكة الجلباب . . ومشى في الشوارع المزدحمة بالسابلة ، وقد انتابته الهواجس واعترته الوساوس . .

حاول أن يتفهّم الحقيقة ، فلم يصل إلى نتيجة معقولة . . ووقع الشك لديه . . من أين لها هذه الثروة؟ من أين؟ وكيف حصلت عليها؟ ومن قدّمها لها؟ ولِمَ؟ !

وأظلمت الدنيا في ناظريه ، وأخذته الرجفة ، وألمّ برأسه فكر مريع ـ هي . . هي . . وغامت عيناه ، ومادت الأرض تحت قدميه ، وكأنها تسوخ به . . وغاب عن الصواب . .

وعندما استعاد وعيه ، ألفى نفسه في صيدلية ، فأجال الطرف فيمن التفّ حوله ، فشكرهم على حسن صنيعهم ، وشكر الصيدلاني على اعتنائه به ، وانطلق إلى بيته ، وقضى بقية النهار بين الهياج والسكون والبكاء والأنين ، وصرف سواد الليل ساهداً لا يغمض له جفن فزعاً لا يهدأ له روع . .

ولما وضح النهار بعث من يخبر رئيسه بأنه موعوك . . ثم خرج من بيته وطفق يسير على غير قصد ، وهو يفكر في تلك الأمور المؤلمة التي

كشفت عنها المصادفة . . وانتهى في تفكيره إلى العقد . . هل يتركه ، هل يتخلى عنه؟ !

وكان النهار جميلاً رائقاً ، والشمس دافئة ساطعة . فوقع بصره على المترفين الراغبين في الخمول ، ورآهم يتسكعون ببطء وتؤدة . . فأخذ يقارن بين الثروة والعُدْم . . وأهاب به صوت خفي : «حقّاً إن الأغنياء سعداء . . حقاً إن المال أصل الهناء . . ولا يتيسر للإنسان المشتق اسمه من النسيان أن ينسى المصائب الفادحة ، ويبرأ من الجروح العميقة ، ويشفى من أوصاب النفس والروح ، إلاّ متى أصبح ذا مال وجاه ! !» .

وعضّه الجوع ، وغثت نفسه من السَّغب . . وبحث في جيوبه فلم يجد ما يسد به الرمق . . ففكر بالعقد . . وفكّر بالمبلغ الطائل . . وسال لعابه . . وقادته قدماه إلى دكان الجوهري ، فلمّا دنا منها تندّى جبينه عرقاً ، وسوّلت له نفسه الارتداد على أدباره . . بيد أنه بتّ رأيه ومحا بالعزم تردّد نفسه ، وهرول داخلاً . . .

فبشّ به الجوهري حين وافاه ، وقابله بوجه طلق ، وقال :

ـ قدمت أهلاً أيها السيد لانتن . . لقد تحريت الحقيقة ، وصممت على شراء العقد ، إن كنت لا تزال مصراً على البيع . .

فأجابه لانتن :

ـ لقد وطنت النفس على ذلك يا سيدي . .

فنقده التاجر ثمن العقد وصافحه وضغط على يديه . . ولـمّا تأهب لانتن ليذهب ، التفت إلى الجوهري فقال :

ـ إن أتيتك بحلي أخرى فهل تشتريها؟

فحنى رأسه وقال :

ـ هات ما عندك ، فإني على قدم الاستعداد لاسترجاعها كلها !

فخرج لانتن مسرعاً ، وغاب ساعة ثم عاد متأبطاً محفظة من الجلد ما كاد يفرغ محتوياتها حتى سطع بريق العَسجَد والزَّبَرْجَد والياقوت والزُّمرُّد . . فعاينها التاجر واختبرها وسكّ جوهرها ، وما عتم أن نقد لانتن (١٤٣ ألف فرنك) وقال بصوت يتمشى فيه الازدراء :

ـ إخال صاحبة هذا الجوهر والماس قد استثمرت أموالها في شراء وبيع اللآلئ . . !

فأجابه لانتن :

ـ إنها إحدى الطرق التي يلتمس الإنسان بها مضاعفة ثرائه . .

فغمز التاجر بعينه وأجاب متهكماً :

ـ أجل . . أجل . . إنها إحدى الطرق لاستثمار ما يفيض عن الحاجة !

في ذلك اليوم تناول لانتن طعامه في أفخم المطاعم ، وحسا أفخر أنواع النبيذ ، واكترى عربة جديدة مفضضة المصابيح مطهمة الجياد فجاب بها الطرق والشوارع ، وكان ينظر إلى القصور الكبيرة ويقول : أنا وإياكم سواء في الغنى والثراء . . . إنني أملك مائتي ألف فرنك . .

وذكر رئيسه فأمر الحوذي أن يسوق إلى ديوان الداخلية . فلمّا وصل ترجل من العربة ودخل على رئيسه وهو يتيه في مشيته . . وقال :

ـ سيدي الرئيس ، أنا قادم لأقدم استقالتي من منصبي . . فقد آلت إليّ ثروة طائلة تجاوز (٣٠٠ ألف فرنك) ثم صافحه وخرج . . فحيا

زملاءه وأطلعهم على حاله وحدثهم بآماله وأهدافه . . وعندما تحفز للذهاب شيعوه بكل احترام . .

ثم اقتحم مطعماً من مطاعم الطبقة الموسرة ، فجلس إلى جانب رجل في هيئته نبل وفي سيمائه وَقار ، فأقبل عليه يحدثه ، وينهي إليه بأنه ورث (٤٠٠ ألف فرنك) !

وللمرة الأولى في حياته لم يسأم التمثيل . . فقد قضى شطراً من الليل في المسرح . . وأحيا الساعات الباقية في معاقرة خمر ومغازلة نساء . .

وبعد ستة أشهر اقترن بفتاة فاتنة فتاكة اللحظ ، لمياء الشفة ، أسيلة الخد ممشوقة القد . .

أمّا زوجته الثانية هذه ، فقد وُهب لها شرف عظيم . . فلم تحم حولها الريب ، ولم تعتورها الشبهات . إلاّ أنها كانت نفوراً غضوباً ، حادة الطبع ، كثيرة الكلام ، كثيرة الصخب . . وقد قلبت حياته ظهراً لبطن ، وسببت له من الحزن والشجن ما يعجز عنه الوصف ، وما لم يعرف مثيلاً له مع زوجته المتوفاة التي اشتهرت بهدوء الطبع وسعة الصدر والحلم والصفح ! !

هـو

أيها الصديق العزيز ، لن تفهم مهما حاولت ! ستقول ! وسأصدّق قولك . . وستتهمني بالعبث وتصمني بالجنون ! ولعل الأمر كما تظن ! إلاّ أن الأسباب التي تبني عليها اتهامك تتباين وتتفاوت . . .

لقد عقدت النية على الزواج ، وهذا شر قُسرت عليه قسراً ! وسوف أطلعك على باطن أمري وأوضح لك ما يدفعني ويسوقني إلى انتهاج هذا المسلك . .

إن آرائي لم تتغير ، ومبادئي لم تتبدّل ، وإني ما زلت ذلك الرجل الذي ينظر إلى اندماج ذكر وأنثى ، وارتباطهما برباط الزوجية ، الذي سَنّ له الناس مختلف القوانين ، نظري إلى تقليد سخيف مستهجن . . لأن تسعة رجال متزوجين من كل عشرة ، قد خدعوا وغرّر بهم . . وعلى ذلك فهم ينالون ما يستحقون . . فسخفهم جنى عليهم ، وحمقهم جعلهم يتعثرون ويسقطون في الأحبولة ، فيرسفون في قيود العبودية ، ويتنازلون بمحض إرادتهم واختيارهم عن حريتهم في أن يعشقوا ويحبوا ـ والحب يا صديقي هو النواة التي تنمو منها شجرة السعادة ، وهو أحلى وأغلى ما وُجد ، فمتى بعل الرجل بامرأة قصّ أجنحة عاطفته وخياله ، هذه الأجنحة التي تطير به وتحلق بقلبه وحسه في جو متسع فسيح ، وتقرّبه وتدنيه من جميع النساء !

واعلم أنني ، وإن أزمعت على الاقتران ، أشعر أكثر من أي زمن فات بعجزي عن التفرّد بحب امرأة واحدة ! فسوف أهوى سواها ، وسوف أكلف بامرأة تختلف عنها ! فأنا لا أصبر عن اجتناء اللذات ، وبودي لو حظيت بألف يد وألف فم وألف عاطفة ، لأتمكّن من رشف

رضاب أكبر عدد ممكن من هذه المخلوقات المغريات الفاتنات !

أمّا خطيبتي فلا أعرف عنها إلاّ النزر اليسير ، بيد أنها طاهرة الذيل ، نقية السيرة ، متحلية بمحاسن الأخلاق .

وهي صغيرة السنّ ، بيضاء البشرة ، ممتلئة الجسم ، متوسطة القامة . . ولا جَرَم أني بعد اقتراني بها سأتلهف شوقاً إلى امرأة أخرى طويلة نحيلة قمحية اللون !

ستتساءل متعجباً : «ولِمَ زواجك ما دمت تصر على الاسترسال مع عاطفتك المشبوبة ، والتمادي مع هوى قلبك الصادي؟ !» .

ومع أني أقل الناس ميلاً إلى التحدث بشؤوني ، غير أني آليت أن أبثك شجوني وأوحي إليك بآلامي . . فقد رمت الزواج وطلبته لأني أخاف من الوحدة !

لقد أنسيت طعم الراحة ، وأصبحت مشتت الفكر ، موزع الشعور ، مضطرب البال . . ولا غرو أنك تحتقرني وتشفق علي في آن واحد متى علمت أني أرهب الليل متى اسودّ ، وأرتجف فَرَقاً كلما أمسيْت . . وأتوق إلى وجود مخلوق على مقربة مني ، آنس به ، ويسكن قلبي إليه ، وأُساجله الحديث فأسمع صوتاً بشرّياً وأشعر أن إنساناً من لحم ودم يلاطفني ويترفق بي ويشاطرني مضجعي !

يا لشقوتي ! لست جباناً رعديداً ، ولا مستخذياً ضعيفاً . . فما سبق أن اكترثت بالأخطار ، أو حفلت بالأرواح والأشباح ! والموت . . لست أهابه أو أخشاه ، فأنا أؤمن بالاضمحلال التام ، وبفناء الأرواح والأجسام ! ولكنني أخاف نفسي ، أخاف ذلك الإحساس المرعب المفزع ، إحساس الخوف من الخوف !

لا تستر سخريتك وهزءك ، ولا تخفِ عني ابتسامة الاستخفاف

التي توشك أن ترتسم على ثغرك . . لقد قاومت فما فزت بالغلبة . . ولقد ناضلت فبؤت بالإخفاق ومنيت بالفشل الذريع . . وما برحت أخاف الحيطان والأمتعة . . وأخاف الأفكار الرهيبة اللاذعة . . وأخاف نفسي وإحساسي وعقلي الذي إخاله حاد عن الحجى وضلّ طريق الهدى ! فإن تكلمت أفزعني صوتي ، وإن مشيت أرعبني وقع خطواتي ! فإن بحثت عن سرّ هذا الخوف ، لم يبلغ سهم بحثي هدفي ، فأكف عن البحث عن عجز وتقصير ! ثم أستقصي طلبي في الغرفة ـ وراء الباب ، خلف الستائر ، تحت السرير ، في الخزائن ـ فلا أجد ما يريب . . وتفجؤني حركة عادية ، فأتلفّت مجفلاً ، فلا أبصر شيئاً . . وأكون على ثقة بأني لن أعثر على شيء !

وتجتاحني موجة منَ النقمة والموجدة ، ويتضاعف جزعي ، فأرتج الباب بالمزلاج وألجأ إلى الفراش فأغطي رأسي باللحاف ، وأنطوي على نفسي في الفراش ، وأُقعي وأنصب ساقي ، فأصبح كالكرة المستديرة . . وأتذكر الشمعة المشتعلة ، فلا أجرؤ على مبارحة فراشي ، فتحترق حتى آخرها . .

لا أدري ماذا دهاني ، فقلب حياتي ظهراً لبطن؟ مع أني فيما مضى كنت أسعى إلى مسكني متزن الخطى ثابت الجنان ، وأبيت ليلتي واثقاً من حاضري مطمئناً إلى مستقبلي . . فلو زعم فلان من الناس بأن الله سيبتليني بالخوف ، لقلت له «مَه» ولرميته بالسفه ووصمته بالعته !

وحدث ما لم أحدسْه ؛ ففي إحدى ليالي الخريف المقرورة ، غادرني خادمي ومضى لينام ، فلم أشعر بميل إلى القراءة أو الكتابة ، فأنشأت أذرع الغرفة وأنا مطرق الرأس منقبض النفس . وكان المطر في أثناء ذلك ينهمر بهدوء ، فلا ريح تعصف ، ولا رعد يقصف . فضاق

صدري وساورتني خواطر أسود من الظُلَم ، وتجاذبتني تيارات عنيفة من اليأس والقنوط ، وشعرت بالسوداء ، ونظرت حولي ، فتراءت لي الحجرة خاوية خالية ، فكرهت نفسي وكرهت عزلتي ، وتزايد قلقي وتضاعف وصبي ، وشعرت بالحمى تلهب جسدي ، وبالبرد يثلج أطرافي ، وأصابتني القُشَعريرة واصطكت أسناني ، فأشعلت النار وجعلت أتأمل ألسنة اللهب الحمراء ، وقد ذهبت بي الأفكار كل مذهب . . ولكني ضقت ذرعاً بالهدوء ، فهداني الفكر أن أعوذ بصديق أخفف بمجالسته أثقالي ، وأطفئ بمؤانسته حرّ بلبالي !

فلم أجد ذلك الصديق ، فأخذت أجتاز الطرق وأطوف في الميادين . وحين مللت السُرى وملت إلى الكرى ، قفلت راجعاً . . ففُتح لي الباب بسرعة لم أعهدها في البواب ، فعجبت من أمره ، وازداد عجبي ساعة ألفيت باب مسكني غير مُزْلَج . .

ولمّا ولجت غرفتي كانت النار لا تزال تؤجُّ في الموقد ، وقد ألقت على الأرض ظلالها الباهتة . وفيما أنا أبحث عن شمعة أستعين بضوئها ، رأيت شخصاً متكئاً على أريكة قريبة من الموقد . . فلم يبهتني وجوده ، وخلته صديقاً ضافني في أثناء غيبتي ، فتعرف عليه البواب وفتح له الباب . . ولم أر من هذا الصديق المجهول سوى شقَّه ، وكان مستغرقاً في نوم عميق ، فدنوت منه لأنبهه ـ وكانت يده متَدلية إلى جانبه ، وقد وضع ساقاً على ساق ، ومال برأسه إلى ميسرته ـ وعندما مددت يدي لأربت على كتفه ، أفضت يدي إلى الأريكة ! لم يكن هناك أحد !

فشق عليّ الأمر ، وأحسست بالخبال والوبال ، ونكصت على عقبي وأنا جاحظ العينين هالع القلب . .

ولكنني مفطور على التأني ، مجبول على التريث ، فلمّا تروّيت في

الأمر ، انتفى ما رابني ، وفارقتني وهلة المفاجأة . . وحدثت نفسي بأن ما لمحه طرفي هو من قبيل اختلاط الفكر . . وفكرت بما رأيت من هذا الشذوذ في القواعد الطبيعية المدبرة ـ والخواطر في مثل هذا الموقف ، تنتقل بسرعة البرق من طور إلى آخر ، وتستحيل إلى صور شتى متغايرة متباينة متعددة الأشكال !

لقد كنت في مقام مجاذبة بين الحقيقة والخيال . . وكنت هدفاً لأزمة نفسانية حادة سلبت عقلي وأصابتني بداء الهَلَس !

إنني ذو عقل مستنير وتفكير متزن راجح . . وإن أعمالي لا يشوبها الشذوذ ولا تعتورها مخالفة القياس ، فلا مجال إذاً إلى اتهام عقلي وتفكيري . . فبصري هو المسؤول ، وعيناي هما المخدوعتان . . لقد بدا الوهم لهما متسربلاً ثوب الحقيقة ! وغرّر بهما الخيال الخاتل فرأياه متجسّماً في صورة الواقع ! وهذا ما يجعل بسيط القلب يؤمن بالمعجزات ويعتقد بالخوارق !

إنها أزمة عصبية ألمّت بجهاز النظر ، والأرجح أن العينين المتعبتين المنهوكتين قد أبصرتا ما لا وجود له !

وشعرت بالنعاس فزلجت الباب وأطفأت الشمعة واضطجعت لأنام .

وأدبرت الدقائق وأنا هادئ النفس ساكن الجأش مرتاح البال . ولكن الأريكة كانت تجتذبني إليها ، فتطلّعت نحوها ـ وكانت النار قد بدأت تنطفئ ، والجمرات القليلة المتأججة لا تزال تلقي على الأرض بصيصها الضئيل ـ فأبصرته في مكانه ، حيث رأيته ! فوجب قلبي وقفّ شعر رأسي فَثَقَّبت النار ونظرت . . فلم أجده ! فهرعت إلى الأريكة فأخفيتها ، ثم عدت إلى السرير مبهور النفَس خاثر النَّفس . . ولم أكد أستسلم لسلطان الكرى ، حتى رأيت ، فيما يراه النائم ، ذلك

الرجل الغامض يحتل الأريكة . فانتبهت خائفاً وقبعت في اللحاف ، وقضيت بقية الليل فزعاً لا يهدأ لي بال مضطرباً لا يفرخ لي روع . . !

ولـمّا تنفس الصبح ولاحت تباشيره ، ورنّقت الشمس فأرسلت خيوطها الذهبية الدافئة من النافذة ، انفثأ خوفي وانسرى همي ، فنمت نومة ثقيلة حتى الظهيرة . .

لقد انتهى كل شيء . . فهل كنت محموماً؟ هل ضيّقت عليّ الأحلام فاختلطت الرؤى؟ هل جثم على صدري ضاغوط خانق مريع؟

وخرجت في أول شدة الظلمة ، فطعمت في مطعم فخم أنيق ، وقصدت المسرح فقضيت فيه شطراً من الليل . وعند انتهاء التمثيل انقلبت راجعاً ، واستحوذ عليّ القلق ساعة دنوت من البيت . . ماذا يحيق بي لو ظهر الليلة لي؟ ماذا يلمّ بعقلي؟ !

أنا لا أخاف منه ولا أسلّم بوجوده ، ولكني أخاف أن ينخدع البصر فيخدعني . . ويختلني الفكر فيخبلني . . وتستولي عليّ الهواجس فتمزقني الوساوس . .

وأحسست بالخوف الشديد من أن يعتريني الخوف الشديد !

وتلكأت عن الدخول ، ومرّت ساعة من الزمن وأنا أقدم رجلاً وأُؤخر أخرى . . ولم أجد مندوحة في نهاية الأمر عن الصعود إلى حجرتي . فَرَقيت السلم وفتحت الباب ، وأشعلت الشمعة ، وألقيت نظرة . . فلم أبصر أحداً ، فسرّي عني وطابت نفسي وغمرت الغبطة قلبي !

ونمت نوماً مضطرباً متقطعاً في تلك الليلة ، فألمت بي الأطياف ، وحوّمت حولي الأشباح ، ورأيت كل مفزع مرعب من الأحلام ، وقفزت مراراً كالملدوغ . . ولكني لم أبصره . .

ولم يقع عليه نظري في الليالي التالية . . إلاّ أن الخوف تمكن من سويدائي ، فصرت أجزع من الليل ، وطفقت أرتجف هلعاً كلما ادلهمّ الظلام واحلولكت دياجيره .

لشدّ ما تألمت ، ولكثر ما قاسيت وتعذبت . . لقد لازمني شبحه وزاملني ، وصاحبني ظله ورافقني ! فمن هو هذا الهيولي؟ من هو هذا الذي لا وجود له إلاّ في خيالي؟ من هو هذا الرجل الذي لا وجود له إلاّ في خوفي وفزعي ، وفي ألمي وبرحائي؟ !

ولطالما قلّبت الفكر ، وكوّنت الرأي ، ورضت نفسي على الجرأة والشجاعة ، إلاّ أني لم أعد أطيق المبيت وحدي ! فبالرغم من اعتقادي بتعذر وجوده فإنني أشعر بوجوده في حجرتي ! وبالرغم عن يقيني بأني لن أشاهده ثانية ، فهو ما برح مضطجعاً في مكانه قائماً في مخيلتي ، جاثماً في تفكيري ! !

إنه لا يُرى ، ولكنه موجود دائماً أبداً ! ـ وراء الباب . . في خزانة الثياب . . تحت السرير . . في الزوايا المظلمة المعتمة . . فإن فتحت الباب أو الخزانة ، وإن حملت الشمعة لأبحث تحت السرير ، وإن حملقت في الزوايا ، يتلاشى من كل مكان ! ولكني أشعر ، وأنا منهمك في البحث والتفتيش ، بأنه منتصب وراء ظهري لأدور بغتة حول شخصي . . فلا ألقاه . . وبالرغم من ذلك فهو ورائي ! !

فماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ لا مهرب لي عن الزواج ، فهو العلاج الفريد ، والدواء الشافي الوحيد . فمتى جعلت لنفسي شريكاً في غرفتي ، غادرها هو نهائياً ، فلا أعود أُسقى هذه الكأس المريرة ، فثمة امرؤ آخر ينام معي ويحدثني ويستمع إليّ!!!

المجنونة

قال المخبر بهذه الحكاية لأصدقائه المجتمعين في قصر البارون «دو رافوت» :

كم منكم أيها الأخوان يعرف البيت الذي قطنتُ فيه في «فوبورغ دو كورميل» إبان الغزو البروسي . وكان يجاورني في البيت امرأة مختلة أصابها مسّ من الجنون عندما ضامها دهرها ونكل بها ، وكانت صبية في السابعة بعد العشرين من العمر يوم وقع كَلُّ الأيام عليها ، فرُفع من بيتها في شهر واحد ثلاثة نعوش احتوت على جثة والدها وزوجها وفلذة كبدها !

لم تُكبّد امرأة بمثل ما كبدت به هذه المسكينة من الأحداث والخطوب ، فمحقتها الجوائح ونحتت قلبها النوائب ، فخارت عزيمتها وأظلمت طبيعتها وأنشب المرض مخالبه فيها . . ومرت عليها أيام بُحران شديد ، وشرعت تهذي وتقول وتعيد ، حتى اختُبل عقلها وتلاشى إدراكها ، وألمّ بحسها ويجسمها الإعياء والارتخاء ، فنبذت الدنيا وأقامت في مرقدها لا تبرح ولا تَريم ولا تطعم . . فإن أكلت فلماماً وإن شربت فغِبّاً . .

ومع أن ذوي قرابتها حاولوا إقناعها بالعدول عن رأيها ، وهمّوا بها أكثر من مرة يرومون إنهاضها من مضجعها ، إلاّ أنها كانت ترتجف فَرقاً كريشة في مهب الريح ، وتصرخ في وجوههم صراخ الموتور الخائف من القتل . فلمّا أخفقت محاولاتهم وفشلت مساعيهم ، نفضوا أيديهم منها وتركوها وديعة عند خادمتها ، فآثرت العجوز الطيبة الوفية أن تبقى بجانبها تعنى بها وتعينها .

ما عرف إنسان ما كان يجول في دماغ المسكينة . ما عرف إنسان ما كان يدور في خلدها . . فإنها لم تتكلم لتعرب عن خلجاتها . . ولم تنطق لتكشف ما كان يجول في خاطرها . . هل كانت تفكر بالموت والموتى؟ هل كانت تحلم بحؤول الدهر وتغاير الأحداث؟ هل صدئ ذهنها وضلّ فهمها ، فأنسيت أساها وحزنها ، وأصبحت لا ترى من أطياف الماضي سوى أشباح باهتة وأخيلة غامضة مختلطة؟ أم هي أضحت كالماء الثقيل الراكد الآسن ، بعد أن خبت ذاكرتها وخمدت بصيرتها ورقد حسها؟

ومهما يكن حالها ، ومهما شاب لبها وفكرها ، فإنها اعتكفت في مضجعها طيلة الأعوام الخمسة عشر ، فلم يفارق الجمود جسمها وملامحها ، ولم تنثنِ عن عزمها فتهجر عزلتها . . .

ونشبت الحرب الضروس بين الفرنسيس والبروس ، ودخل الأعداء «كورميل» فاتحين في يوم مقرور يبست فيه الأطراف وتجمّدت مياه المجاري والقنيّ . وكنت قد لذت في ذلك اليوم القمطرير بالموقد أصطلي بناره وأستدفئ بلظاه ، وكان داء النِّقرس قد أضنّني وأضناني ونهك قوتي وشل حركتي . . وسمعت خَفق نعالهم ، وأبصرتهم وقد انذرعوا يقطعون الطريق في صفوف متراصّة متلاحقة . .

ولـمّا استقام الحال ، شرع أولو الأمر منهم يوزعون العساكر على بيوت المواطنين ليقيموا فيها مع أهلها وسكانها المغلوبين المقهورين . . فآويت سبعة عشر جندياً ، وأوى مسكن المجنونة قائد كتيبة يصحبه أحد عشر جندياً . . وكان الضابط رجلاً حاد الطبع سريع الغضب كثير الهياج . .

وفيما نحن في تلك الحال ، وقد أحطنا ضيوفنا الثقلاء ، الذين

كانت حياتنا رهناً بسلامتهم ، بكل ضروب الحفاوة والإكرام ، نُبِّئ القائد بحال المجنونة التي حطمها الدهر ، وبما آلت إليه من الفتور والجمود ، فلم يبال بها ولم يكترث لحالها . . ولكنه بعد أيام ، وقد سعى إليه مَلقٌ بالنميمة ، ارتاب بصدق ما سمع عن المنكودة ، وخُيل إليه أن وَصَبَها خديعة ووهنها حيلة ! فعزا إليها الازورار غطرسة وصلفاً . . ونسب إليها الإعراض بغضاً وقلىً ! وأيقن أنها استنكفت محادثتهم ومجالستهم ، فاستنبطت هذه المكيدة تخدعهم بها وتختلهم ، وتنأى بجانبها عنهم ، فترضي بذلك سجية غرورها وطبيعة ترفعها وكبريائها !

أغضبه ذلك ، فأصرّ على مقابلتها ، ولمّا لم ينفع معه التوسّل ، قادته الخادمة إلى غرفتها . وبعد أن ألقى عليها نظرة تأمل وتوسّم ، قال لها بخشونة : «أطلب منك أن تنهضي من فراشك من تلقاء نفسك يا سيدتي فتكفيني مشقة اللجوء إلى الوسائل العنيفة والأساليب القاسية التي لا أحب أن أستعملها مع امرأة !» .

فلم تفه ببنت شفة وظلت شاخصة إلى الحائط . . .

واستتلى : «لن أصبر على سفهك وقحتك ، فإن اقتديت سلمت وإن أبيت أكرهتك على الرضوخ والطاعة !» .

فلم يبدر من التاعسة ما يدل على الفهم والإدراك ، ولبثت تقلّب وجهها في السماء . .

فظن هدوءها إعراضاً ، وصمتها تمرّداً . . واستحالت دهشته إلى موجدة وحنق ، فأضاف بصوت أجش : «أمهلك إلى الغد ، فلا تنقادي لشهوتك ، ولا تطيعي هوى نفسك . .» .

ثم غادرها وانصرف .

وفي اليوم التالي رغَّبتها خادمتها في النهوض ، وحثّتها على ارتداء ثيابها ، فاستطارت هلعاً وطفقت تصرخ وتُعوِّل . . وقاومت الخادمة بكل قواها . .

ولـمّا سمع القائد الزعيق والصريخ هرول إلى غرفتها مستطلعاً ، فخرت الخادمة على قدميه مبتهلة مستعطفة ، وتضرعت إليه أن لا يلوم المعذبة التي عدمت أهلها . . واستحلفته بكل عزيز أن يشملها برحمته حتى لا يتضاعف كربها وحزن نفسها . .

فارتبك القائد ، بيد أنه نظر إلى المجنونة شزْراً وقال مستهزئاً : «لقد تحككت العقرب بالأفعى» ثم لفت عنقه إلى من يليه ، فألقى عليه أوامره بالألمانية ، فما كذب هذا أن غاب وعاد بعد قليل مع جماعته . . وشوهدوا يخرجون من الدار وهم يحملون مرقداً بدت فيه المجنونة ، وكانت كما أعهدها شاردة اللب ساهمة الطرف لا تحفل بما يصنعون بها ما داموا لا ينتزعونها عنوة من فراشها ! ومشى وراءها جندي آخر يتأبط حزمة تحتوي على ما تحتاج إليه من الملابس !

وقال الضابط وهو يقلّب طرفه في الوجوه الشاحبة المتألمة : «هذه عاقبة من يزري بنا ويضرب عرض الحائط بأوامرنا . . لقد غرست فجنت ثمار غرسها ! وثقوا بأن هذه المتمارضة لن تعتم أن تستشعر الندم على شططها ، فتزايل مرقدها وتسعى على قدميها صاغرة سادمة !» .

واتجه الموكب الصغير إلى غابة أموفيل ، وبعد ساعتين قفل الجنود . . ولم ترجع المجنونة . . ولم تشاهد فيما بعد . .

فماذا صنعوا بها؟ وإلى أين أخذوها؟

كانت السماء يومئذٍ تَثْلجنا ، فغابت الأرض في الثلج المندوف ،

وكسيت البيوت والأشجار بثوب ناصع البياض ، وتكاثف الثلج في الغابة فغطاها بطبقة سميكة من الجليد ، وتضوّرت الذئاب بعد أن ضاقت في وجهها سبل العيش ، واستبد بها الجوع ، فدهمت البيوت وصاتت وعوت .

لم أعرف طعم الراحة بعد اختفاء المجنونة ، فأرهقني الفكر وقض مضجعي طيفها الملمّ . . ولم أجد مندوحة عن طلب العون ، فاستعديت بسلطات الاحتلال ، وطالبتها بإجراء البحث والتفتيش . . فكان لتدخلي أسوأ الأثر في نفوس الحاكمين . . فأدخلوا في رُوعي بأني إن لم أكف عن الإلحاح ، وأقلع عن الإلحاف ، أُسقَى كأس المنون . . !

وولّى فصل البرد والزمهرير ، وانقطع ماء السماء ، وانسحبت بتصرّم فصل الشتاء جحافل الأعداء ، وبقي بيت جارتي مغلقاً مقفولاً ، وكانت الخادمة العجوز قد لاقت حتفها ، فلم يبق من يذكر المجنونة المسكينة أو يبالي بمصيرها . بيد أني ما انقطعت عن التفكير بها . . ماذا فعلوا بالمرأة المستضعفة؟ هل نجت بنفسها فولت الأدبار؟ فلم يدر أحد أين ذهبت وأين أقامت؟ هل أنقذها من البوار شهم ذو أريحية ومروءة؟ !

جهدت في حل هذه العقدة ، فلم أجد لها انحلالاً . . ولم يحدث ما يُسري همي ويخفف عني ثقل غمي . .

وتعاقب الليل والنهار ، فخفّف عني مرور الزمان ما كان يعصر القلب من الأسى والأحزان . . وطال الأمد فخمدت جذوة الكرب وحصحص الكمد . . وكذلك خفتت وطأة المرض ، فعولت على إزجاء بعض الوقت في الصيد والقنص . . وأزمعت أن أقضي النهار

من الفلق حتى الغسق في أنحاء الغابة . .

وبكّرت إلى الغابة قبل انصداع الفجر ، وأوغلت في طلب الصيد . ومرّت الساعات وأنا أشد ما أكون حماسة ونشاطاً ، ورميت أربعة طيور وسقط الخامس فأهوى في مهواة تراكمت فيها الأغصان ، فلحقت به ونزلت إلى الحفرة وراءه ، فألفيته طريحاً فوق هيكل آدمي . . فارتعدت فرائصي . . وتذكرت المجنونة !

ماذا؟ ! أفي حلم أنا؟ ! هل يمكن أن يكون هذا الحطام حطامها؟ ! هل يمكن أن تكون هذه العظام رفاتها؟ !

صدمتني المفاجأة ، فأحسست كأن طعنة هائلة سُدّدت إلى قلبي في السويداء !

لا جرم أن كثيرين نفقوا في الغابة ، فلم تجد جثثهم من يهيل عليها التراب . . لا جرم أن كثيرين هاموا على وجوههم هرباً من الظلم والطغيان فلاذوا بالغابة واتخذوها عوذة وملجأ ، ولكنهم قضوا برداً . . فكان الثلج كفنهم والغابة مقبرتهم !

ولكن . . ما بالي أكاد أجزم بأني تلقاء رفات المجنونة؟ ما بالي أقطع بأني ساعة أتبيّن الرأس وأرى الشعر ، سوف أتعرّف عليها وأعلم بأنها هي؟ !

وصدق حدْسي !

وفهمت ما جرى !

فهمت ما صنعوه بها !

لقد تركوها في هذا المكان المهجور . . فقدَّدها البرد ! فلم تستضعف ولم تلن عريكتها ، لأن الفكرة التي اختمرت في ذهنها

الكليل منذ خمس عشرة سنة فقرّرت على ضوئها مصيرها كإنسانة حية ، جعلتها تذعن للقضاء وتستسلم للقدر ، وتستطيب الموت . . فماتت دون أن تحرّك يداً أو رجلاً !

وسرعان ما أكلتها الضواري الجائعة ، والتهمت رمّتها الطيور الجارحة . . واتخذت العصافير من صوف فراشها أعشاشاً لها وأوكاراً لفراخها . . .

وحفرت قبراً لحدت فيه الرّمة واللمّة ، وما برحت منذ مُنيت بالإعنات والتحرّق على رمضاء هذه المأساة ، أبتهل إلى الخلاّق أن يجنّب فلَذنا أهوال الحرب ، فلا يَصْلوا نارها ولا يقاسوا حرّها !

الثأر

كرّست المرأة المسنة الطيبة القلب ، أرملة باولو سفريني ، حياتها ووقتها وجهدها لخدمة وحيدها وحبيبها أنطونيو . وكانت الأم وابنها يعيشان سوياً في بيت صغير حقير يقع على سور مدينة بونفاسيو المشيدة على سفح الجبل ، ومن الناحية التي تشرف منها على البحر ، تطل هذه المدينة الجاثمة بين السفح والقمة ، من خلال مضيق ناتئ الصخر ، على وهاد سردينيا ، وفي ذيلها من الجانب الآخر ، وفي السور الصخري الضخم الذي يحدق بالمدينة ، خرقت الطبيعة قَطْعاً كبيراً أشبه ما يكون بالدهليز الجسيم ، وقد اتخذ منه أهل المدينة ميناء ترسو فيه وتقلع منه مراكب الصيد الكثيرة ، والسفينة البخارية العتيقة التي تمخر عباب الماء وتقلع إلى أجاكسيو مرتين في كل شهر .

وكانت البيوت القليلة ، القائمة على القمة البيضاء ، تبدو للمشرئبين إليها بقعة تكدّست فيها أوكار للطيور الجارحة مشدودة إلى صخور الجبل . . .

أمّا بيت الأرملة وابنها الملتصق بالسور ، فقد كان يرمي إلى البحر من نوافذه الثلاث ، فيظهر منها الموج المزبد المتكسّر على الصخور ، والأفق البعيد الموحش المهجور . .

رعت هذه العجوز ابنها أنطونيو ، وعطفت عليه ولازمته ورعته بعين لا تنام ، كما أنها أحبت كلبه سملنتي لأنه كان شديد الوفاء كثير التودد لسيده ومولاه ، وكان أنطونيو قد كلّبه وشرع يصطحبه معه كلما خرج في طلب الصيد .

وفي إحدى ليالي الشؤم ، تنازع أنطونيو مع رجل من شرّ الناس ، ولـمّا انتهى ما شجر بينهما من اختلاف ، وغَفَل أنطونيو عن الرجل ، طعنه هذا بخنجره طعنة نجلاء ، وقتله غيلة . .

وحمل المغدور إلى أمه ، فطارت نفسها شعاعاً ، وأخذت تحدّق بالجثة وتطيل النظر إليها وهي صامتة جامدة مغيضة الدمع . . ثم مدّت ذراعها المعروقة فوق الجثمان ، وأقسمت لتأخذنّ بالثأر !

وحالما خلت الدار من المعزين والمواسين ، أوصدت الباب على نفسها ، واختلت بابنها وبكلبه . وأعولت وارتفع نشيجها . . وعوى الكلب وصات وعلا نباحه . .

وكان أنطونيو من أجمل شباب المدينة وأحسنهم شكلاً ، حتى إن الموت القاسي لم يستطع أن يغيّر كثيراً من منظره وملامح وجهه . ولولا بزّته الرمادية الممزقة عند الصدر والملطخة بالدم لبدا كأنه غارق في سباته مستسلم إلى نومه . . ولولا تلك البقع الحمراء القانئة التي اصطبغت بها يداه ، وتلك الكتل الدكناء المتجمدة على لحيته ، لما أدرك المرء أن أنطونيو الفتى الجميل المحبوب بات جثة هامدة لا أثر للحياة فيها . .

وشرعت الأم تخاطبه فتقول : «أي أنطونيو ! استمع إليّ ! سيؤخذ بثأرك يا صغيري . . سيؤخذ بثأرك . . ! نم ملء جفنيك . . ولا تبال . . إنها أمك تتكلم . . وهي تعني ما تقول !» .

ثم انحنت عليه برفق كأنها تحرص على راحته ، وتحاذر أن تنبّهه من سباته . . وألصقت فمها بشفتيه المثلوجتين ، ورشفتهما طويلاً . . ولعلها ودّت لو استلّت من شفتيه شيطان الهلاك الجاثم على صدره ، ليحتل مكانه ملاك الحياة الجاثم فوق قلبه !

ومكثا ـ الأم والكلب ـ بجوار صاحبهما حتى تبلّج الفجر وطلعت الشمس ، فسطع نورها وتوهج سناها ، ولكن الضياء الذي غمر الدنيا بإشعاعه عجز عن رفع سجوف الحزن واللوعة التي أسدلتها النكبة المروّعة على القلبين المكلومين .

ودفن أنطونيو في لحده ، وطوي اسمه طيّ العدم ، ودُرِج شخصه في كفن الزمن ، ولفه النسيان فلم يعد يذكره سوى التي أرضعته لبانها والذي محضه محبته .

وافتقر أنطونيو إلى الشقيق أو القريب أو الحميم ليثأره ويطلب دمه ويقتل قاتله . . فكان لزاماً على أمه أن تثأر به . . ولقد عاهدته على الثؤرة ولن تبقي على شيء حتى تدرك وطرها .

وكانت تشخص بناظريها صباح مساء عبر المضيق لتتأمّل نقطة صغيرة بيضاء ، فتشدّ على أسنانها وتتوعد وتتهدد . فهناك «لونغو سردو» القرية السردينية التي يلجأ إليها من كورسكا قطّاع الطرق والمجرمون الفارون من وجه العدالة ، حتى إن معظم سكان هذه الدسكرة المواجهة لبونفاسيو أضحوا من الأشقياء والسفاحين .

وتتبّعت الأم آثار عدوها ، فعلمت بأن «نيكولاس رافولاتي» قاتل ابنها قد اعتصم بهذه القرية ، واتخذها ملاذاً له من العدالة وطالبي الثأر إن قيّض الله لأنطونيو حميماً أو قريباً يطلب دمه . .

ومضت الأيام وخيال أنطونيو يلمّ بأمه نهاراً ويطيف بها طيفه ليلاً ، ولعلّه كان يزورها ليذكرها بوعدها الذي قطعته على نفسها . . فماذا تصنع وهي المرأة العاجزة الضعيفة الواهنة؟ غير أنها لم تسلم أمرها لليأس والقنوط ، وطفقت تفكر وتقدح زناد البصيرة عساها تهتدي إلى الوسيلة التي تدنيها من أربها وتشفي بها غليل ابنها الذي لا يزال

يستصرخها أن تفي بوعدها له . .

وجفا عينيها الكرى ، وأُنسيت طعم الراحة ، وجعلت تفكر بعناد وإصرار ، وتقضي الساعات الطويلة قريباً من النافذة ، والكلب الرابض تحت قدميها يرفع رأسه كل حين فيعوي عواء عميقاً ـ كأنه يحاول أن يدعو سيده أو أن يسمعه صوته ـ فروح هذا الحيوان الوفية المخلصة لا تعرف معاني العزاء ولا السلوان ولا النسيان التي عرفها وألفها الإنسان ، وأنس بها وسكن قلبه إليها ، كلّما ألم به خطب أو فدحته نائبة !

وبينا هي ذات ليلة في مكانها من النافذة ، إذ طرأ على مخيلتها فكر مخوف هائل ما عتمت أن قرقرت له وقهقهت ، وقضت بقية الليل وبياض النهار التالي وهي منهمكة بتدبير الأمر وترتيب الخطة . .

وفي اليوم الثاني أبكرت إلى الكنيسة ، فصلّت كما لم تصلّ ، وانطرحت على الأرض وابتهلت إلى الله وتضرّعت إليه أن يعينها ويعضدها ويهب جسدها الواني الكليل القوة والعزيمة المشتّتة حتى تتمكن من نيل وطرها وبلوغ أربها !

ولـمّا رجعت إلى البيت ، شدّت الكلب سملتني إلى عود من حديد ثبتته في فناء البيت ، وتركته بياض النهار وسواد الليل دون طعام ، حتى نهكه الجوع ، وأضناه السغب ، ولم تضع له في آنيته غير الماء !

فبرقت عينا الكلب وقفّ شعره وحاول التخلص من سلاسله فأخفق في محاولته . . فثار ثائره وطفق ينبح بشدة وهياج ، وقد استبدّ به الجوع وأثقلته القيود . .

ولم تلن قناة العجوز ، ولم تشفق على الحيوان المسكين ، ولم

تطلقه من إساره أو تقدم إليه ما يمسك رمقه . . ولكنها جاءت برداء قديم لزوجها ، فجعلت فيه تبناً وقشاً ، وشخَّصته إنساناً بالطول والعرض والعمق . . ثم كونت من خرق بالية رأساً ووجهاً وألصقته بالخيال ونصبته على عود . وحالما انتهت من عملها هذا ، جاءت بشريح من اللحم ، فشوتها حتى فاحت رائحة الشواء . . فخَشِم أنف الكلب واتسع ، وتزبّد شدقه واضطرب في سلاسله . . ورجعت العجوز إلى الخيال فقلّدت عنقه بالشواء . . وما عتمت أن أخلت سبيل الكلب . .

وفي مثل لمح البصر وثب الحيوان الجائع وتعلّق بعنق الخيال ، فأنشب مخالبه فيه والتهم الشواء ، ومزّق العنق إرْباً إرْباً . .

ورقَبَت العجوز كلبها ، وأرسلت طرفها إلى بعيد . . ثم جلجلت جلجلة شديدة تضعضعت منها قواعد البيت الصغير . . وصاحت بأعلى صوتها : «أنطونيو . . أنطونيو . . لبيك يا حبيبي !» .

وأعادت مثيل هذا المنظر كل يوم حتى ضَرِيَ الكلب وتعوّد أكل الناس وأصبح يكتفي بإشارة خفيفة من رأس العجوز ، ينقض على أثرها ، فيفترس الشخص ويمزقه شر ممزق . . حتى ولو خلا عنقه من الشريحة الشهية . . وكانت كلّما أرادت أن تشهد وثبة الموت الهائلة ، تصيح به بصوتها الحاد الرفيع : «انطلق !» .

ولـمّا أيقنت أن الوقت الملائم قد أزف ، انطلقت إلى الكنيسة في صباح أحد الأيام فصلّت وأطالت الصلاة . . وسجدت وأطالت السجود . . واعترفت بخطيئاتها السابقة . . وتناولت القربان المقدس . . وغادرت بيت الله وهي أشد ما تكون غبطة وبهجة . .

ثم تنكّرت بزيّ الرجال ، وسعت قدُماً إلى البحر ، فاستأجرت

مركباً صغيراً للصيد ، أقلّها مع كلبها إلى الشاطئ الذي طالما تمنت أن تطأه قدماها . . ولم تنس شريحة اللحم ، فقد لفتها بقطعة من قماش ، وجعلت تدنيها بين الفينة والأخرى من أنف الحيوان الساغب الجائع فتبعث في نفسه غريزة الافتراس الضارية التي عوّدته عليها !!

وحالما وصلت رصيف «لونغو سردو» مشت والكلب أتبع لها من ظلها ، حتى إذا صادفت حانوتاً ولجته وسألت الخمار ، وهي تتظاهر بقلة الاكتراث ، عن مسكن نيكولاس رافولاتي . .

فأخبرها صاحب الخمارة بأن نيكولاس رافولاتي يمارس النجارة وأنه يزاول عمله في دكان صغير بجوار مسكنه ، ودلّها على موقع الدكان . . فسعت إليه العجوز ، فلمّا وافته وحدّقت به وسبرته ، أيقنت بأنه نيكولاس المطلوب . . ففحّت كالأفعى الهائجة :

«أنت هنا يا نيكولاس؟ !! تبّاً لك !» .

فبهت الرجل وشدهته المفاجأة . . وما هو إلاّ كرمشة عين ، حتى صاحت بكلبها الضاري : «انطلق ! التهمه !!» .

فانقضّ عليه الكلب ، وأنشب مخالبه في صدره ، وغرز أنيابه في مُخَنَّقه . . فارتعدت فريصة الرجل ، واعتراه الهلع ، وعلم أنه وقع فيما لا مخلص له منه . . إلاّ أنه ناضل الموت نضال اليائس . . ودافع عن نفسه دفاع القانط . . وتدحرج الاثنان ـ الإنسان المثخن المهيض . . والحيوان الجائع المفترس ـ لفترة وجيزة ، أخذ الإنسان في أثنائها يتلوى ، ويضرب التراب بقدميه . . وما عتم أن همدت حركته ، وفترت خلجته . . وما برح الكلب المتوحش يوسع عنقه تقطيعاً حتى فاضت روحه !

وذكر رجلان أنهما شاهدا شيخاً محدودب الظهر زري الهيئة يلبس

أطماراً خلقة ، يغادر دكان نيكولاس النجار وهو يمشي بارتعاش . . وبصحبته كلب أسود اللون كبير الجرم كان أطوع له من نعله . . وشاهدا الكلب يلتهم بشراهة ونهم طعاماً بُنّياً ألقمه إياه سيده . . !

*

في مساء ذلك اليوم عادت أرملة باولو سفريني إلى منزلها . . وقد زال همها وارفضّ غمها . .

ونامت تلك الليلة وعينها قريرة ونفسها مرتاحة ! !

فينوس مدينة برانيزا

عاش منذ سنوات في مدينة برانيزا فقيه يهودي ذائع الصيت راسخ في أصول الدين ، اكتسب شهرته وصيته من تعمقه في المثنا وتفهمه للجيمار ، كما استمد هذه الشهرة وهذا الصيت من اقترانه بحسناء بارعة الجمال باهرة الحسن . حتى إنه عرف بزوجته الكاعب ، أكثر مما عرف بحكمته وتفقهه وعلو كعبه في العلوم الدينية . . وحفظه لنصوص التلمود وأحكامه . . .

وحازت «فينوس برانيزا» هذا اللقب واستحقت هذه الكنية لأنه لا يوجد لها في الجمال مجارية ، وأكثر من ذلك ، لأنها زوجة رجل فقيه متضلع من فلسفة التلمود . . وزوجات الفلاسفة اليهود هنّ في العادة مصابات بالآفات والعاهات . . والتلمود يفسر هذه الظاهرة العجيبة تفسيراً عجيباً . . إذ يقول : «من المفروغ فيه أن عقود الزواج تصاغ في طباق السماء ، فحالما يخلق الذكر ينطق صوت خفي قدسي باسم زوجة المستقبل ، والعكس بالعكس . !» .

ولكن مثلما يحاول أب طيب القلب أن يتخلّص من البضاعة الجيدة الجديدة خارج بيته ، فلا يسمح لأولاده وبنيه أن يستعملوا إلاّ التافه الحقير منها ، كذلك الباري لا يسبغ على رجال التلمود إلاّ النساء القبيحات اللاتي لا يحفل بهنّ الرجال . . بيد أن الله ـ كما ظهر ـ استثنى صاحبنا هذا ووهبه من دون سائر الفلاسفة والمتفقهين امرأة إن أسفرت خجل النيِّران ، وإن بسمت أزرت بالجُمان . . ولعله سبحانه أراد هذا الأمر في هذا الأوان ، حتى يوطّد بهذا الشذوذ دعائم القانون الآنف الذكر . . وحتى يهوّن من وقع هذا القانون الصارم وتأثيره في

القلوب . .

فزوجة هذا الحكيم التي صلت القلوب بالنيران ، وهيجت البلابل على الأفنان ، كانت أهلاً لتكون الدرة اليتيمة في تاج ملك عظيم . . أو تمثالاً رائعاً في معرض مثّال شهير . . كانت هيفاء القامة دعجاء العينين ، يعلو كتفيها رأس يلفت تكوينه الأنظار . . وفوقه إكليل من شعر فاحم كالليل ، ناعم كالحرير . . وكانت تلبس في معصميها دمْلَجَين مضيئين زادا من رونق ذراعيها وإشراق ساعديها وإغراء يديها المَتصلتين بصدرها الناهد ، حتى لكأنهما يدا تمثال من عاج أو من مرمر . . فلا غرو أن هذه الغادة التي حباها الله بهذا الحسن ، ما خلقت إلاّ لتحكم وتسود وتدوس على رقاب عشّاقها وعلى قلوب المعجبين بها . . وما وجدت في إهابها المشرق هذا ، إلاّ لتصير عملاً خالداً لريشة رسام عظيم . . ولإزميل مثال نابغ . . ولقلم شاعر مفوّه . . كانت زهرة جميلة رائعة ، إلاّ أنها زهرة محجوبة عن العيان ، مسجونة في برجها العاجي ، لا يسطع سناها ولا يعبق شذاها !

وكانت تقضي بياض نهارها في مخدعها ، وقد تدثّرت بفرائها ، وأطلت على الشارع الممتد تحت قدميها ، تتأمل المارة بعينيها المسبلتين الناعستين ، وتجيش في صدرها أحلام . . وأي أحلام . . ! ويختمر في ذهنها آمال . . وأي آمال . . !

لم تنجب أولاداً ، فزوجها المنصرف إلى قراءة الناموس وتفسيره ، كان يقضي النهار بطوله وسواد الليل ، يبحث ويستقصي وينقّب . . وكانت زوجته في نظره ورأيه واعتقاده ـ الجمال المقنّع الملثّم . . !

كما أنها لم تكن تبالي ما يجري داخل البيت ، فزوجها من ذوي اليسار وكل أمر يتعلق بشؤون المنزل يأخذ مجراه وفق رغائبها . . إلاّ

أنه لم يتردد عليها أحد من الناس ، وكذلك لم تبارح منزلها إلاّ لماماً . . وكانت ملهاتها الوحيدة هي مراقبة الشارع ، ومشاهدة السابلة ، والتحليق بفكرها في أجواء من التأمل فسيحة متسعة . . والتثاؤب كلّما شعرت بالملل والسأم ، أو أحست بالضيق والضجر . .

واجتاحت المدينة ذات ليلة عاصفة هوجاء غاضبة ، فاقتلع الإعصار العاتي أشجار الحدائق ، وهزم الرعد وقصف ، فصمّ الآذان ، والتمع البرق وومض ، فخطف الأبصار . وحرص الفيلسوف المتديّن أن يفتح مصاريع جميع النوافذ ، حتى إذا هبط «المسيا» المنتظر ، ألفى بيته على أتم أهبة لاستقباله ـ فمن أحق منه ، وهو الحكيم المتقشف الزاهد ، باستقبال مسيا ، والاحتفال به ، وإيوائه؟ ! ولزمت ڤينوس النافذة كعادتها ، إلاّ أنها كانت ترتعد من البرد رغم الفراء الذي تدثّرت به . .

والتفتت إلى زوجها فجأة ، فألفته غارقاً في تلموده . . فحدجته بنظرة ذات معان وقالت له : «هلاّ أخبرتني شيئاً عن المسيا ابن داود ، ومتى يفد إلينا ويهبط علينا ، ويضيء دنيانا الباردة المظلمة بنوره الوهاج؟» .

فأجابها من غير أن يرفع رأسه عن كتابه : «لا مرية بأنه سوف يأتي . . أمّا متى يكون مجيئه ، فأمر مرهون بوقته . . والأرجح أن يكون قدومه إمّا عندما يتخلّص الشعب اليهودي من قبح أعماله ، فينقلب برمته تقيّاً باراً ديّناً سليم النية ، وإمّا ساعة تتغلب نزع الشر على طبيعته ، فيزوغ عن المحجة وينحرف عن طريق الحق ! هكذا يقول التلمود !» .

قالت : «وهل تظن أن جميع اليهود سيصبحون في يوم ما أتقياء صادقي الإيمان؟» .

قال : «لا أعلم ، ولكنه على ما أظن أمر بعيد الاحتمال . .» .

قالت : «فالأرجح إذاً أن يأتي ابن داود حالما تفسد أخلاق الشعب اليهودي ، ويوغل أفراده في ضلالهم ويعمهون في طغيانهم . .» .

فهزّ الفيلسوف كتفيه وعاد إلى تلموده ، ليطير في أجوائه الفسيحة ، وليضيع في تيهه العظيم ، الذي قلّ ما رجع منه إنسان سليم العقل صحيح التفكير !

ووفد عليه بعد أيام رسول من قبل جماعة العلماء المتضلّعين ، فسار معه صاحبنا ، ورافقه إلى دسكرة صغيرة التأم فيه جمعهم ، ليساهم في بحث موضوع على جانب عظيم من الأهمية ، يتعلق بالشرائع والسنن والتفاسير التي يضعها الفرّيسيون المتمسكون بالتقاليد والطقوس . .

ولشدّ ما دهش العلماء . . ولكثُر ما شكروه وأثنوا على مقدرته وكفاءته لبتّه في الأمر بسرعة وبراعة وإتقان لم ينتظرها هو نفسه . . فحمد الله على نعمائه ، وعوَضاً من قضاء الليل في تلك الدسكرة ، اكترى عربة البريد وقفل راَجعاً بصحبة صديق له يضاهيه علماً ومعرفة وتبحّراً . . وعند وصوله إلى منزل صديقه ترجّل ومشى إلى منزله ، فأدهشه أن يجد المنزل شعلة من نور . . وبهت عندما التقى بجندي يدخن تلقاء الباب . . ويغدو ويجيء كأنه ينتظر رفيقاً أو صديقاً أو سيداً . . . !

فسأله مستطلعاً وهو يتكلف اللطف والبشاشة : «ماذا تصنع يا صديقي؟ هل وقع ما يمس بالأمن؟ أم هي المصادفة جعلتني ألتقي بك في هذا المكان؟ !» .

فأجابه الجندي وهو يغمز بعينه : «إنني أرقب سيدي الضابط وأنتظره . . وقد كلفني أن أحرس الطريق وأترصد زوج اليهودية الحسناء ، مخافة أن يأتي على غير ميعاد !» .

فـقــال : «أحـقّـاً مـا تقـول؟ حــاذر إذاً ، وكن يقظاً ولا تنس الاحتراس . . !» .

ثم غـادره ومـضى في سبيله ، ولـكنه عرّج على المنزل فـولجه من باب الحـديقة الخلفي ، فرأى ، أول ما رأى ، خـواناً لا يزال عليـه آثار طعام وشراب . . فهرول إلى مخدع النوم فألفاه يعبق بالطيب . . ونظر إلى زوجته فوجدها كعادتها متلفعة بفرائها عاكفة على التطلع من نافذتهـا . . غير أنها كانت متـضرّجة الوجه . . اضطرمت شـفتاها بالشـهـوة ، وومـضت نظراتهـا بالرضى والفـوز . . وعبـرت عن هزء ڤينوس وسخريتها وازدرائها !

وبينا هو يتقدّم صوبها وقد عراه الاكتئاب وتندّى جبينه من العرق ، إذ اصطدمت قدمه بشيء صلب سُمع له رنين حاد ، فحملق إليه والتقطه من الأرض وقلّبه بين يديه ، فعلم أنه مهماز أحد الضباط . . فصاح بها : «ويحك يا امرأة . . ! من كان هنا . . معك . . في مخدعي؟ !» .

فهزت ڤينوس اليهودية كتفيها غير مبالية ولا حافلة ! فاستتلى :

«هل أُخبرك من كان هنا؟ إنه ضابط من ضباط الحرس !» .

قالت : «وعلام الغضب؟ ولـمَ لا أستقبله؟» .

قال : «أتتكلمين بهذا اللغو؟ أتجابهين زوجك باللؤم والقحة؟ وقد أقدمت على أعظم خطب ! واجترحت أرذل الإثم ! هل اختبل عقلك ففقدت الحجى؟ !» .

فأجابته وقد حامت حول شفتيها المشتعلتين بنار الشهوة ابتسامة ذات معان : «ليس من العدل سرعة العذل يا زوجي العزيز ، ولكني ، وقد استوعبت حكمتك ، رأيت أن أزوغ عن المحَجة ، وأميل عن طريق الحق ، وأسعى إلى المعصية حتى أناصر قَومي وأعاضدهم ، فيأتي «مسيا» فينقذنا نحن اليهود المساكين . . !» .

نزهة صيد

كانت باريس العظيمة محاصرة معزولة ، ضورّها الجوع ونهكها العطش . . وكانت ماحلة ضاحلة ، حتى إن الطيور رقّت أعدادها وكادت تتلاشى وتختفي من سماء المدينة . . وحتى أضحى كل مأكل مهلكاً وكل مشرب رديئاً ، وما يمضغ وما يحسى يعد قوتاً صالحاً وشراباً سائغاً !

ففي ضحى أحد أيام كانون الثاني/ يناير الصافية الأديم ، وبينما كان السيد موريسوت المتعطّل عن العمل يسير على غير قصد في طرقات باريس ، ويتنقل من شارع إلى شارع ، فيقف أمام إعلان يقرأه أو دكان يتفرج على معروضاته ، وهو مهموم يفكر بزوال الحظ والبلهنية . . مغموم يتصور ما يلقاه من الجهد والشدة . . ساغب يكربه الجوع . . حزين يتحسر على تلك الأيام الغرة التي كانت شوارع باريس في أثنائها معرضاً للفواكه والأطعمة والملابس . . إذا به يلمح رجلاً واقفاً في فناء منزل صغير ، وذكرته ملامحه ومعارف وجهه بصديق قديم ، فلمّا دنا منه صدق حدسه ، فعرف فيه صديقه الحميم سوفاج .

وكانا ، قبل اشتعال نار الحرب ، يخرجان سوياً في صباح كل نهار أحد ، فيركبان القطار المسافر إلى كولومب ، ويسعيان قدماً إلى جزيرة مارانت فيقضيان بياض النهار في صيد السمك .

وقد قرّبت بينهما غاية واحدة ، وربط بين قلبيهما وإحساسهما ميلان نفسيهما إلى اللذة المجتناة من الصيد ، حتى صارا خلّين وفيين مخلصين ودودين ، يزجيان أوقات الفراغ وأيام الآحاد في المرح الحلو

واللهو البريء . .

وكانا يواصلان الصيد جنباً إلى جنب ، فتمر عليهما الساعات ، ويمر النهار دون أن ينطلق لسان أيهما بكلمة أو يفوه بحرف . . . ويرجعان إلى باريس في جنح الظلام وهما أسعد ما يكونان حالاً وأنعم بالاً . . وكأنهما جمعا ذخيرة أسبوع من الغبطة والمسرة . .

وكثر ما لفتهما الطبيعة بردائها الزاهي الجميل ، فتقشع الضباب وهب النسيم الدافئ وأرسلت الشمس خيوطها الذهبية ، فتخللت الأشجار الفنواء لتنعكس على ماء النهر ظلال الأفنان الدقيقة والأغصان الغليظة ، فيشعر الصديقان بالسعادة والهناء . ويحس موريسوت بالنشوة والطرب فيقول لخله : «واهاً للجمال ! واهاً للسحر ! أعجب بالطبيعة ما أعظم فتنتها ورواءها ! بل إن الطبيعة بجملتها هي الحسن الجذاب ، لو عرف الإنسان كيف يتمتع بخصائصها ويتذوق حلاوتها !» .

وعندما كان الليل يرخي سجوفه ، والظلمة تنشر أرديتها المعتمة وتطرد من حول الصديقين المأخوذين جحافل النور والضياء ، كان سوفاج يعقب على كلام صديقه فيقول :

«لله ما أمهر المصوّر في رسمه ! وما أبرع المبدع في تأليف الألوان ، وعكس الأضواء ووشي الطبيعة بهذا الزخرف الجذاب ، وإلباسها هذا البُرد القشيب الذي تتجلّى فيه !

فلمّا جمعتهما المصادفة في هذا اليوم الصحو الجميل ، تصافحا وتعانقا ، ومشيا جنباً إلى جنب ، وهما يفكران بالماضي السعيد ، وبالحاضر التعس الجادب من الهناء ، القاحل على أسوإ حال . . ويذكران ، والأسف آخذ منهما كل مأخذ ، المجاعة الشديدة التي يعاني

برحاءها أهل باريس . .

ووجدا حانة صغيرة ، طلبا فيها كأسين من «الإبسنت» فأتاهما الساقي بالخمر ، فترشفاها ببطء ، وتبادلا عبارات الشوق الذي أضرم ناره النوى والبعد . .

ولم يلبث سوفاج أن تأوّه من كبد حرى وأنشأ يقول : «تبّاً لهذه الأنباء المربدّة التي تصيب النفوس بالشجن واللغوب . .» .

فأجابه موريسوت وقلبه يتفطر :

«صدقت يا أخي . . فالحوادث كالحة مشجية تثير الشعور بالتشاؤم والتطيّر . . وقد زاد في الطين بلة وجعل الطامة كبرى ، هذا البرد القارص الذي ما برح يشتد علينا ويهرؤنا منذ أكثر من شهر . . ولكن . . لِم نشغل نفسينا بحديث لا يجدي بل يضير ويشجي؟ ألا تظن ذلك؟» .

فقال سوفاج : «بلى . . ! وإن مثل هذا الشجن ليهيج الأسف على فقد ما سلف ، ويمض النفس على ما زال ودرس . .» .

«فهلم إذاً نستعيد صور الماضي السعيد . . صور نزهاتنا الأسبوعية الرائعة . . صور تلك الساعات المفعمة بالجذل والمسرة ، ألا تتذكّرها وتحنّ إليها؟ كما أحفظها في ذهني وأتوق إليها؟» .

«كيف لا يا صديقي . . كيف لا؟ وأنا لا أنفك أستعيد صور هاتيك الرحلات الجميلة البهية ، وكأنها جرت منذ أيام لا منذ أعوام . . .» .

وغادر الخليلان الحانة بعد حسو الكأس الثاني من «الإبسنت» ، وقد طرأت عليهما نشوة مَن جرع الخمر وهو خاوٍ طاوٍ على جوع . .

واستخف سوفاج الطرب فأخذ يترنّم بلحن شائع طالما اشتركا

بترديده . . وما لبث أن ضغط على ساعد صديقه وقال :

ـ لم لا نذهب يا موريسوت؟

ـ إلى أين يا أخي؟

ـ إلى كولومب . . إلى النهر . .

ـ أين؟

ـ إلى مكاننا الأثير في كولومب ، حيث تعسكر فرقة إفرنسية بيني وبين قائدها واشجة قرابة لا يجد معها مندوحة عن منحنا جوازاً لعبور النهر . .

فتهلّل موريسوت بشراً وهتف :

ـ هيا بنا . . هيا بنا . . أنا أتبع لك من ظلك . .

وذهبا على الفور فاتخذا الأهبة واستعدا وتهيآ ، ثم سافرا إلى كولومب وتوجّها إلى مقر القائد ، فأذن لهما باجتياز الخط الأمامي وزوّدهما بجواز المرور . .

وحوالى العاشرة وصلا إلى المراكز الأمامية ، فقدّما الجواز وتابعا المسير . .

وسارا حثيثاً حتى أشرفا على الناحية التي يقصدان إليها . وكانا قد لاحظا خلوّ القرى والدساكر من أهلها ، ولمح بصرهما البيوت مغلقة مرتجة تنعى من بناها ، فوجف قلباهما واضطربا من الخوف ، وتريّثا قليلاً ، واعتليا تلاً يطل على ما حولهما ، وقال سوفاج وهو يشير بيده :

ـ انظر إلى تلك الربوة ، إن البروسيين مرابطون فيها رابضون عليها . .

لم يسبق للصديقين أن تقابلا وجهاً لوجه مع أحد من الأعداء ، بيد أنهما كان يعلمان بأن الخصم يحدق بباريس ويحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، وأنه لن يعتم أن يشن الغارة الشعواء الساحقة التي لا تبقي ولا تذر . . وكانا قد سمعا الشيء الكثير عن فظائع الجنود البروسيين الغُلف القلوب وعن طغيانهم في البلاد . . فهم يسلبون وينهبون ويدمرون . . وهم يسفكون الدماء ، ويستبيحون النساء . . وهم يصبون سوط عذابهم على المدنيين المسالمين الآمنين . . ولا شك أن إرهابهم الذي جسمته الخرافات والأقاصيص التي يتداولها كل لسان ويرويها كل إنسان ، قد ضاعفت من سخائم الإفرنسيين وحقدهم على العدو الظالم الجبار . .

تردّدا بين الإقدام والإحجام . . لقد نبأهما حسهما بالخطر ، وأوجسا من السكون الضارب بجرانه على تلك الناحية ، غير أن سوفاج ما لبث أن تقدم إلى الأمام وتبعه صديقه . .

وسارا ببطء وحذر ، وأخذا يقدمان رجلاً ويؤخران أخرى . . وتواريا وراء الأدغال ، واستترا بالصخور ، وأصاخا لكل حس ، وأصغيا لكل حركة . وكان يتحتّم عليهما لكي يصلا إلى غايتهما أن يجتازا براحاً متسعاً لا زرع فيه ولا شجر ولا عمران ، فانطلقا بأقصى سرعة حتى وصلا حافة النهر ، فتهالكا على الأرض من الإعياء والاضطراب . ولـمّا استعادا هدوءهما ، واسترجعا رباطة جأشهما ، نقّلا الطرف فيما حولهما ، فتأكد لديهما خلوّ المكان ، وألفيا الجزيرة الصغيرة القريبة تحميهما عن الأنظار وتدرأ عنهما الأبصار . وتراءت الجزيرة مقفرة ، فخيل إليهما أن ساكنيها قد جلوا عنها ، وأن الفندق الذي كانا يؤمّانه ويطعمان فيه مهجور غادره أصحابه وتركوه قفراً يباباً

تنعب البوم على سطحه . .

وشرعا يصطادان ، فنشبت شصّ سوفاج في السمكة الأولى ، وتبعه موريسوت فأخرجت قصبته الثانية . . ومضت الدقائق ومرت الساعات ، وغصت الأحبولة بالسمك على مختلف أنواعه وأحجامه . .

وولّى النهار فما شعرا بتصرّم حباله ، وما فطنا إلى زوال ضيائه ، فقد غاب عنهما كل شيء في غمرة انشراحهما وسرورهما . . فنسيا العدو المتربص المتحفز . . ونسيا الحرب الناشبة المستعرة . . ونسيا الوقت والزمن . . فلم يفطنا إلى أن الشمس قد غربت ، والشفق أضحى وشيكاً أن يغيب . . !

ولكنهما تنبّها بغتة على هدير كهزيم الرعد ، صخّ آذانهما صخّاً ، وهزّ جسديهما هزّاً . . وجعل الأرض تميد تحت أقدامهما ، حتى لكأنّ الواقعة وقعت والحشر آن يومه . . فاشرأبا ينظران إلى مصدر الجلبة ، فعلما أن العدو شرع يصلي العاصمة بنيران مدافعه الحامية . .

فهزّ سوفاج رأسه وقال باكتئاب :

«تبّاً لهم . . لقد بدأوا ضرب باريس وقصفها» . . . فأجابه موريسوت وكان محبّاً للسلم نفوراً من الحرب :

ـ إن الإنسان مخبول مجنون ، لا يسمع إلاّ بأذن غيره ولا يبصر إلاّ بعين سواه ! هكذا يشاء ، ولهذا السبب بالذات يقتتل الورى ويصطرع الخلق ، يحدوهم إلى ذلك انقيادهم الأعمى لتجار الأسلحة ودعاة الحرب وسماسرة الموت ! فويلاً لهؤلاء وسحقاً لهم من عابثين مستهترين عثوا في الأرض مفسدين ، ونكلوا بالآدميين ليملأوا خزائنهم بالمال والجوهر اليتيم ! ! فقال سوفاج :

ـ وسيدوم الظلم والبغي والاعتداء واستباحة الذمار ما دام في الدنيا حكومات مختلفة الأهواء والمشارب ، تؤلف هنا وتؤلف هناك وتشمل رجالاً ذوي أغراض ومطامع ، وتهيمن على شؤون الخلق ، وتسوس الناس وتدفعهم دفعاً إلى البوار . .

ولبث الصديقان يجولان في شجون من حرب وسلم وسياسة واقتصاد إلى أن فجأتهما حركة خفية تلفتا على إثرها ، فوقع بصرهما الجزوع على أربعة من جنود الأعداء . . ولم يكن إلاّ كلمح البصر ، أو هو أقرب ، حتى هاجمهما الجنود المدججون واستولوا على أمتعتهما ونقودهما وأحبولة الصيد العامرة ، ثم شدوا وثاقهما وحملوهما إلى قارب صغير ، فعبروا به النهر إلى الجزيرة التي خيل إليهما بأنها خالية خاوية ، والتي أتيح لهما الآن أن يعلما بأن العدو أناخ بها ونزل فيها .

وساقوهما إلى الفندق فشاهدا في عرصته بضعة وعشرين جندياً بروسيّاً يتوسطهم ضابط يجلس على مقعد ضخم كبير وهو دائب على التدخين .

وعندما مثلا بين يديه ، قيَّد بهما لحظه وخاطبهما بلسان فرنسي فصيح وبلهجة فرنسية صحيحة فقال :

«أهلاً بالسيدين الكريمين . . عسى أن تكونا قد أصبتما التوفيق فيما جئتما من أجله ، وصدتما من سمك النهر اللذيذ ما ينقع الغليل؟ !» .

في تلك الدقيقة جاءه أحد الجنود بأحبولة الصديقين المكتظة بالسمك ، فما كاد ينظر إلى ما اشتملت عليه حتى افتر ثغره عن ابتسامة عريضة وقال : «لا ريب أن النجاح كان رائدكما في نزهتكما . . كما كان حليفي أنا الآخر . . فقد اصطدتما سمكاً واصطدت جاسوسين . . هل أنبئكما بحقيقة أمركما ، وأطلعكما على

خبيئتكما؟ إنني عليم بما في صدور أمثالكما . . فقد وردتما هذه الناحية بقصد الكشف والاستطلاع ، واتخذتما الصيد ستاراً تخفيان وراءه أربكما ، لتخدعاني وتختلباني ، ولكنكما ما خدعتما إلاّ نفسيكما . . لقد وقع هذا مراراً . . ولست ممن يلدغ من جحر مرتين . .

«إن الشفقة في الحروب معدومة ، والرحمة لا وجود لها في القلوب . . وإني على ذلك مضطر أن أزهق روحيكما وأذيقكما كأس الحمام ، فقد ارتكبتما أمراً عظيماً تستحقان عليه الموت . . بيد أني اليوم تختلج في نفسي نزعات الخير ، لهذا أميل إلى حقن دمكما . . فاشتريا الحياة . . اشترياها بكلمة واحدة فحسب . . وافتديا نفسيكما . . وبوحا بكلمة السر التي استطعتما بفضلها الوصول إلى النهر . . وإني أعدكما بأن أكتم الخبر وأصون السر ، وأطلق سراحكما . .» .

وقف الحميمان جنباً إلى جنب ، وقد شحب وجهاهما ونظرا إلى الضابط بوجوم وانقباض . . ولم يتكلّما . . واستتلى :

«لقد ظفرت بكما في حالة مريبة . . وإن شئت عذبتكما عذاباً أليماً . . ولكني أرحمكما وأتغاضى عن جريرتكما إن أنتما أطعتما أمري وقبلتما عرضي ونطقتما بالكلمة . . فلا مرية أن الحياة تساوي أكثر من هذه الكلمة الصغيرة . . الحقيرة!!» .

فلم ينبسا ببنت شفة ، وجمدا في مكانهما ، وأرسلا الطرف يرود النهر المنساب . . وأنصتا إلى صوت الماء في خريره الذي يحاكي اللغط . .

فتابع القائد حديثه :

«أسمعتكما وعدي ووعيدي . . فأصررتما على الكتمان ، ولذتما بالصمت كأن لم تسمعا شيئاً . . فاعلما أن حياتكما مرهونة بهذه الكلمة التافهة . فهلم اشتريا الحياة الغالية بهذا الثمن البخس . . اشتريا الحرية والمتعة واللذة بأزهد ثمن . . وإلاّ غدوتما طعاماً سائغاً لسمك هذا النهر !» .

بيد أنه لم يفز منهما بطائل ، وظل الرفيقان شاخصين إلى النهر في شرود وسكون . . وظلت المدفعية تدق پاريس فتحيل من دورها قبوراً ومن أراضيها قفوراً . .

ولما أخفق مسعى الضابط وفشلت محاولته ، والتبس عليه صمتهما ، حدجهما ببصره وأصدر أمره ، فتقدمت ثلة من الجنود شاكية السلاح فاصطفت تلقاء الصديقين وتأهبت لتنفيذ أوامر الضابط . .

وصاح بهما بصوت جهير :

«حتَّام هذا التشبث أيها العنيدان؟ وإلامَ تمسّككما بالصمت؟ لقد حذرتكما من سوء المصير . . وأنذرتكما قبل أن يأتيكما عذاب الموت . . فهل ظننتماني أمزح؟ أم خلتماني أهزل ولا أجدّ؟ !» .

فلم يجيباه ولم يعيرا كلامه انتباهاً . .

فلمّا شعر بإعراضهما قطّب وجعل يحرك شاربه حنقاً ، ثم جذب إليه موريسوت وقال وقد غضّ من صوته :

«كن عاقلاً أيها الرجل . . وفه بالكلمة . . فلا جناح عليك فيما تقول . . فإن رفيقك لن يعرف شيئاً . . ثق بذلك !» .

غير أنه لم يلق من موريسوت أذناً صاغية . فتركه إلى سوفاج

وصنع معه مثل ما صنع مع موريسوت . . فخذله سوفاج أسوة بصديقه ورده خائباً مقهوراً . .

فضاق بهما ذرعاً ، وقدحت عيناه شرراً ، وشدّ على أسنانه . . وأصدر أمره الثاني ، فصوب الجند بنادقهم إلى صدريهما . .

في تلك الآونة وقع نظر موريسوت على الأحبولة فخارت قواه وحارت دمعة في مؤقيه ، والتفت إلى صديقه فقال :

«الوداع أيها السيد سوفاج . .» .

«الوداع أيها السيد موريسوت . .» .

ثم تصافحا وتعانقا ، ومرت عليهما دقيقة ، كانت عواطفهما في أثنائها عرضة لمختلف الانفعالات . . وقد نشب في قلبيهما عراك مرير بين واجبيهما كمواطنين وبين غريزة حب الحياة التي ضاعف من شدتها وعنفها تحفز الموت المريع لينشب أظفاره فيهما . .

ولـمّا استشعرا الخور مما عراهما من الاكتئاب والحزن . . خافا أن يطغى حب الحياة على الشرف والتضحية . . خافا أن ينكثا عهد الله ، فينكث الله عهدهما . . خافا أن يخفرا ذمام الوطن ، فيكفر بهما الوطن ويلعنهما أبناء الوطن بكرة وأصيلاً . . فأشاحا بوجهيهما ، وأغمضا عيونهما حتى لا يريا ما نزل بهما من النقم . .

فصاح الضابط وقد توغّر صدره :

«لقد أعطيتكما الأمان . . ولكنكما استطبتما الموت واستعذبتما توسد النهر . . فحبذا ما ترومان . .» .

ثم التفت إلى جنوده وهتف : «النار» .

وومضت فوهات البنادق وانطلق الموت منها ليستقر في صدري

الصديقين . .

وانكفأ سوفاج على وجهه فاقد الحياة ، أمّا موريسوت ، وكان أطول منه قامة ، فقد ترنّح وتمايل ودار في مكانه ، ثم اختلج اختلاجة الموت ، وهوى فوق صديقه ، ووجهه إلى السماء . .

وأوعز الضابط إلى جُنوده ، فشدوا الأثقال بالرجلين المجدلين وجروهما إلى النهر ، فألقوهما فيه . . وهكذا ابتلعتهما اللجة ، فترشش الماء وقذف بالزّبد ، ولم يظهر من أثر الرجلين سوى بقعة دم طافت هنيهة على صفحة الماء الخرارة ، ولم تلبث أن ذابت وتلاشت . . وعادت المياه إلى مجاريها !

ورجع الضابط إلى الفندق فرفع الأحبولة بيده ونادى بأعلى صوته : «ولهلم» ، فهرول إليه جندي ضخم الجثة في كسوة الطهاة البيضاء فناوله السمك وقال :

«اصنع لي طعاماً شهياً يا ولهلم . . فإنني أشعر بالجوع الشديد» .

ثم عاد إلى كرسيه الكبير ، فقعد فيه ، وأشعل (غليونه) وشرع يدخن بلذة وراحة !

الأم كلوشيت

عجباً للإنسان ولشذوذ الإنسان! رب حادث يعلق بذهنه ويلازم تفكيره وينطبع في مخيلته حتى أخريَات أيامه!

وقصتي هذه التي أبثها لكم، أو قصة الأم كلوشيت التي أفضي بها إليكم، هي من قبيل هذه الحوادث التي مهما طال عليها الأمد، وتقدّم بها العهد، تظل حية في النفوس، متسربلة لبوس الجِدّة، كما لو جرت منذ فينة لا منذ برهة.

وبالرغم من تعرضي للمصائب والرزايا المريعة التي تشيب من هولها الولدان، فإن أكثر هذه الحوادث التي أثبتها ناظري، وسجلها خاطري، ذهبت ذهاب الريح، وتلاشت وامّحت، كما ألمّت وتجسّدت.. بالسرعة نفسها التي طرأت، اندملت جراحاتها وبرأت كلومها.. فلم تكظني إلاّ ردحاً يسيراً..

ولا أخفي عنك شداهي وحيرتي من ملازمة شبح الأم كلوشيت لمخيلتي طوال هذه السنين.. فإن هذه السنين الطويلة لم تمح ذكرها من صفحة فؤادي، فبقي خيالها ماثلاً في ذهني كما عرفتها.. وبقي وجهها منطبعاً في عقلي كما عهدته وأنا ابن عشر سنين..

في ذلك الأوان كانت الأم كلوشيت امرأة متقدمة في السن تأتينا صباح كل خميس، لتخيط وتطرز ما تطلبه أمي منها. وكان بيتنا، أو سرايانا، على حد تعبير القرويين، بناء عتيقاً يبعد قليلاً عن القرية الصغيرة. وكانت تقدم علينا في الساعة السابعة، فتصعد من فورها إلى الغرفة المخصصة لأعمال الحياكة والخياطة والتطريز.

وكانت الأم كلوشيت طويلة في غير إسراف، هزيلة إلى درجة

بروز العظام . . وكانت كثيفة شعر الرأس ، غزيرة شعر الوجه ، حتى ليظن الناظر إلى وجهها أنه لحية عظيمة بذرها مجنون على هذا الوجه العظيم . . ومراراً بدا لي وجهها كوجه شرطي جسيم . . تلفّع بثوب امرأة !

والذي كان يضاعف دهشتي أن الشعر نبت في كل ناحية من وجهها المتغضن ـ على أنفها . . . تحت أنفها . . حول أنفها . . على ذقنها . . على خديها . . على وجنتيها . . حتى أن حاجبيها الغليظين كانا أشبه بشارب خشن كثّ نبت في غير موضعه !

وكانت شديدة العرج ، أصابتها العلة في ساقيها فغدت اليسرى أطول من اليمنى . . ولم تكن تظلع كسائر العرجان ، إنما كباخرة تمخر عباب بحر متلاطم الأمواج . . فعندما تزرع هيكلها العظمي على رجلها السليمة ، تبدو لأول وهلة كأنها تتأهب لاعتلاء الموج . . ثم لا تلبث أن تغوص فجأة ، فيلوح كأنها آخذة في الاختفاء ! وحينما كانت تخمع في الطريق وهي مرتدية قبعتها البيضاء ، البيضاوية الشكل ، الكبيرة الحجم ، التي يرفرف على جانب منها شريط بُني اللون ، كانت تحاكي باخرة لعبت بها العواصف وتقاذفتها الأمواج ، فتخبّطت على غير هدى . . تارة تعبر الأفق من الشمال وأخرى تكر راجعة لتعبره من الجنوب . . وهكذا دواليك !

ولقد كلفت بالأم كلوشيت وتولعت بها وأحببتها إلى درجة كبيرة . . فكنت أصعد إلى غرفة الخياطة الكبيرة لأقضي بجوارها ساعة من الزمن أصغي إلى قصصها ونوادرها وفكاهاتها . .

وكانت ساعة تراني قادماً عليها ، تهش وتبش مرتاحة ، وتقربني منها وتشمل قدميّ بالدثار ، حتى تقيني من رطوبة المكان وقرّه . . ولا

تعتم أن ينطلق لسانها بالكلام ، فتهضل في حديثها وتقص عليَّ أحسن القصص ، بينما أناملها المعروقة المستطيلة لا تنفك تتحرك كأنها أصابع آلة لا تتعب ولا يصيبها النَصَب . .

ومع أني كنت فتى صغير السن في ذلك الحين ، إلاّ أني أدركت بأنها امرأة صالحة طيبة القلب صافية الطوية ، وأنها فطرت على الإحساس الكريم والشعور النبيل والعواطف السامية ، وأنها ربأت بنفسها عن الكذب والتدليس ، وآثرت أن تنعت بالسذاجة والبساطة على أن توصف بالمكر والدهاء . .

ومن حكاياتها التي افتنَّت في سردها ، قصة بقرة أفلتت ذات مرة من حظيرتها ، ووجدت في صباح اليوم التالي قريباً من مطحنة الساحل ، تنظر ملياً إلى المراكب البخارية التي تلقي مراسيها ، وإلى الملاحين وهم يرفعون قلاع السفن الشراعية !

وحدثتني عن البيضة التي عثر عليها في برج الكنيسة ، ولم يعلم إنسان سرّها ، ولم يتوصل أحد إلى الكشف عن الغموض الذي اعتورها واكتنف وجودها في القبة الصغيرة المعلقة بين السماء والأرض . . كما أن أحداً لم يتوصل إلى معرفة المخلوقة التي باضتها هناك !

ورَوت على مسامعي قصة كلب استمر يعدو بعزيمة لا تعرف الونى حتى استرجع سراويل سيده من عابر السبيل الذي سرقها ! !

أجادت الأم كلوشيت سياق حديثها ، حتى صرت أعدل بين قصصها هذه وبين أساطير الأولين وقصص الأقدمين . . . وأوازي بين رونق ديباجتها وبين طلاوة القريض والقصيد والشعر القصصي الذي كانت تلهج به أمي وتتلوه عليّ وتسيغ على عقلي فهمه وإدراك

معانيه . . ولكم قارنت بين هذه القصص وبين أقاصيص الأم كلوشيت الهينة السهلة ، وقلَّ ما وجدت في تلك ما وجدته في هذه من عناصر الجمال والرقة واليسر التي كانت الأم كلوشيت تضفيها على حكاياتها . . .

وفي ذات خميس ، وكنت قد أمضيت شطراً من النهار أستمع فيه للأم كلوشيت وأستمتع بحديثها الطلي ، ذهبت مع الخادم إلى الغابة ، فجمعنا البندق من أشجاره وجنينا الثمر مع أزهاره ، وأبنا بعد ساعتين وأنا أشد ما أكون شوقاً إلى الأم كلوشيت . . فلمّا هرعت إليها لآنس بجوارها ساعة أخرى ـ وأذكر جيداً كل ما وقع عليه نظري المشدوه المنذعر ـ ألفيتها منبطحة بحذاء كرسيها الذي تجلس عليه ، وقد جحظت عيناها وانبسط ساعداها وأمسكت إبرتها بيد وقميصي الذي كانت ترفوه باليد الأخرى . . وتدحرجت بعيداً نظارتها التي طالما أعجبتُ بها وظننتها تضيف إليها عينين أخريين تبصر بهما ما لا يبصره سواها !

وقفت هنيهة وأنا منذهل ممّا رأيت ، ولم ألبث وقد أدركت الحقيقة أن صرخت وولولت ، وهبطت الدرج وأنا أزعق وأرسل من فمي صياح الرعب والفزع . . فهرول إليّ جميع من في الدار وقد أخافهم عويلي ونحيبي ، وما عتّموا بعدما عرفوا الحقيقة أن تحوّلوا إلى غرفة السطح . .

وعلمت بعد دقائق بأن الأم كلوشيت قضت نحبها ، ومضت إلى غير رجعة . . وأني لأعجز عن وصف ما جاش في صدري وخامر شعوري في تلك الدقيقة المشؤومة . .

فحالما أدركت أن الموت استل من الأم كلوشيت حياتها ، وأن ستراً

كثيفاً أسدل فيما بيني وبينها ، انتبذت ناحية مظلمة من قاعة الاستقبال ، والتجأت إلى مقعد ضخم ، وأسلمت نفسي للكرب . . طفقت أبكي بصمت وسكون ، وأذرف الدمع الهتون . . ولم أنتبه من غفلتي وسهوي ، إلاّ على صوت أمي وهي تأمر بإشعال النور ، ثم على صوت الطبيب وهو يصف لأبويّ ما أصاب الأم كلوشيت فأودى بحياتها . وانتقل بعد ذلك إلى تاريخها ، فروى عليهما قصة حياتها وكشف لهما عن سرّ عرجها . وما فاه به حينذاك نقش في عقلي وطبع في مخيلتي ، ولم يمح الدهر من ذهني شيئاً مما قاله . . حتى أني أستطيع إعادة كلماته حرفاً فحرفاً . .

قال الطبيب : «رحم الله هذه المسكينة . . لقد قدر الله عليّ أن أوقّع شهادة وفاتها اليوم ، كما كتب لي في أول يوم ألقيت فيه الجران بهذه القرية أن أضمّد جراحها ، وأجبر عظمها المكسور ليلتئم على عاهة العرج المزمنة !

«فإنني ما كدت ألج بيتي في ذلك اليوم المَطر ، حتى أقبل عليّ من استدعاني على عجل لأعنى بمصاب تردّى من شاهق فحطمه السقوط . .

«وكانت الأم كلوشيت في ذلك الزمن صبيّة لا تتجاوز السابعة عشر ربيعاً ، وكانت بارعة الجمال باهرة الحسن إلى درجة لا يصدقها العقل ـ وخصوصاً إذا اجتلا المرء طلعتها في ذلك الوقت وعرفها في أيامها الأخيرة ـ إلى أن حدث لها ما وعيته أنا ورجل آخر لا أعلم إن كان في قيد الحياة ، أو أن الحِمام اخترمه والموت صرمه . .

«وإذ أؤكد لكما بأني كتمت ما في نفسي ، فلم أطلع أحداً على ما حاق بها ، أرى بأنه لم يبق ما يوجب التكتم أو يدعو إلى التحرز ،

فقد زال المانع بزوال صاحبة المأساة لتي انتقلت إلى عالم الأموات وأضحت أثراً بعد عين . .

«فالشخص الذي استغاثني كان مدرّساً شاباً وسيم الهيئة منتصب القامة ، عليه سمة الجندية ومظهرها ، وإن لم يكن جندياً . . وكان مطمح أنظار فتيات القرية الجميلات . . تمنّته كل منهنّ لنفسها ، وودّت لو استأثرت بقلبه وبشخصه دون غيرها . . بيد أنه صدف عنهنّ وعزف عن التطلع إليهنّ ، لا عن عزة في النفس أو شرف في الخلق ، ولا عن احتشام جُبل عليه طبعه ، أو حياء كان في سجيته ، بل عن صلف وترفع وغطرسة ، يضاف إليها الخوف الشديد من «جرابو» ناظر المدرسة . .

«وكان «جرابو» شيخاً ضامر الهيئة ، صارم الملامح ، تعاف نفسه السّفه وتكره الباطل . . وكان قد استخدم الآنسة «هورتنس» التي قضت نحبها منذ لحظات والتي تَكنّت بكلوشيت .

«ولقد صادفت الفتاة الجميلة هوًى في قلب المدرس ، فكاشفها بغرامه ، وأطلعها على حبه وهيامه . . فطارت فرحاً ، وخُيل إليها بأنها انتصرت على قريناتها وزميلاتها وسائر فتيات القرية . . وأنها فازت دونهنّ بقلب المدرّس الذهبي وبحبه . . وهو الضنين بهذا القلب الشحيح بهذا الحب !

«واتفق الحبيبان على اللقاء سراً في غرفة العلف التي شاء الشيخ جرابو أن تكون في الطابق الثاني من البناء . .

«وفي مساء ذلك اليوم المشؤوم تظاهرت بأنها ذاهبة إلى مُقامها ، غير أنها بدلاً من أن تهبط السلم ، أوجزت وداع قرينة الناظر ، وصعدت خلسة إلى العلافة . . وانتظرت حبيبها وفاتن لبها وهي

خافقة القلب جياشة الصدر .

«وما عتّم المدرّس أن أقبل عليها يسترق الخطو ، بيد أنه ما كاد يدنو منها ، حتى انشق الباب وظهر على العتبة الناظر المخيف . . وأخذ يحدق في المكان كأنه يحاول اختراق سجف الظلام .

«ولـمّا رجع إليه البصر كليلاً خائباً ، صاح مغضباً : ـ ماذا تفعل هنا يا سجسبرت؟ فبرق المدرس وفرق ، وقال بصوت متلعثم : ـ يا سيدي . . انتجعت العلافة فراراً من الضجة وطلباً للهدوء والراحة . . ثم اقترب من الفتاة فدفعها حتى التصقت بالحائط ، وقال لها بصوت خفيض : ـ امكثي هنا . . لا تتحركي فإنه أن كشف أمري قرر طردي وفضحي !

«فزمجر الناظر وقد وعت أذناه همسات المدرّس ، وقال :

ـ أصدقني القول ! مع من تتكلم أيها الأفاك المخاتل !؟

ـ ثق بأني لا أكلّم إلاّ نفسي ، ولا أخاطب إلاّ شخصي . . يا سيدي . .

ـ ولكني سمعت همهمتك !

ـ أخطأت . . أخطأت . . أقسم أنك واهم !

ـ رويدك يا سجسبرت . . سأكشف سرك !

«ورتج الشيخ جرابو الباب ، ومضى مهرولاً ليحضر المصباح .

«في تلك الآونة انقلب الشاب المترفع الشامخ بأنفه ، فتى ذليلاً واهناً ، أشبه ما يكون بحيوان خائف منذعر وقع في الشرك . . فشرع يروح ويجيء في العلافة كمن به مسّ ، ويخاطب الفتاة المسكينة باستخذاء واستكانة :

ـ اختبئي . . اختبئي . . حتى لا يعثر بك . . فيحرمني معاشي . .

ويقضي على مستقبلي . .

«وسمع في تلك اللحظة وقع قدميّ جرابو العجوز على السلم ، فخيل إلى المدرّس الرعديد أنها مطرقة من الحديد تهوي على أم رأسه . . فأهاب بها أن تختفي . . وقال : اختبئي . . ناشدتك الله . . غوصي في الأرض . . تواري في السقف . . افعلي المستحيل . . لكي لا ينهتك الستر !

«فما كان بأسرع من أن تعلقت الفتاة بالنافذة المطلة على الطريق ، ففتحتها ثم خاطبته قائلة؟

ـ سأنقذك . . ولكن حذار من أن تتركني طريحة الأرض . . ورمت بنفسها من النافذة !

«ولاذ بي المدرّس المرتاع ، وقصّ عليّ وهو مبهور الأنفاس ما وقع ، فرافقته إلى الفتاة المحطمة الغارقة في بحر من مياه المطر الهامي ، وفي بحران من الألم المبرّح الطامي .

«وحملت الفتاة إلى منزلي ، وأجريت عليها الكشف ، فألفيت ساقها اليسرى قد انحطمت وانكسرت وتفتتت ، وبرز عظمها من البضيع المشقوق . .

«ولم تشك المسكينة أو تتذمّر . . ولم تعتب على المدرّس الجبان . . ولكنها كانت تتضوّر من الألم ، وتصب عبرات التوجع والندم ، وتردد : ـ إنني جوزيت . . إنني جوزيت . . هذا عقاب ربي على حمقي وتهوري . . وكانت تصوّب إلى المدرّس نظرات عتب وتأنيب ولسان حالها يقول : ـ ويلك من رجل خسيس . . لقد أطمعني منظرك وأخلفني مظهرك !

«وإنني وأيم والله لم أصادف في حياتي شخصاً له مثل هذه

الشجاعة . . وهذا الصبر . . وهذا الاستسلام لمشيئة الله . . وكأن الله سبحانه وتعالى علم ما في قلبها من الطيبة فأنزل عليها السكينة وهداها إلى الصراط المستقيم ، وأبعد عنها كل ما يخزي ويشين . .

«طلبت الإسعاف ودعوت رُفقتها ، ولفقت للجميع قصة مختلقة ، زعمت فيها أن هورتنس صدمتها عربة جامحة الخيل ، فجدّلتها ، وحطّمت رجلها . . فما اعترى أحداً شبهة في قصتي ، وشرعت السلطة تبحث عن العربة وصاحبها ، فلم تعثر لهما على أثر !

«هذه قصتها . . قصة امرأة أضعها في مصاف الأبطال المخلدين . . فهي تشبه إلى درجة كبيرة ـ بتضحيتها وصبرها وجلدها وإخلاصها ـ أولئك الأفذاذ الذين سجل التاريخ أسماءهم ودوّن الدهر أفعالهم وصبرهم قدوة للغير ، ومثلاً أعلى يحتذى .

«إن كلوشيت قدحت زنادها فخاب قدْحها . . وحاولت أن تحب ، ففشلت في أول حب لها . . فتركت لذَات الدنيا ، وعاشت عمرها في معزل عن الرجال . . وسلكت طريق الحق والرَشد . . فماتت طاهرة بتولاً !

«ولقد حزّ في نفسي أن المسكينة استسمنت ذا ورم ، فبذلت سعادتها وهناءها في سبيل رجل لم يكن جديراً بها ولا أهلاً لتضحيتها ! !» .

*

انتهى الطبيب من شجونه ، فرأيت أمي تكفكف مدامعها الواكفة ، وسمعت أبي يحبس شهيقه وأهَّاته .

ثم غادروا القاعة . وما لبثت أن سمعت جلبة وأصواتاً مختلطة ، أبصرت على أثرها أربعة أشخاص يتعاونون على رفع جثمان لشخص علمت أنه الأم كلوشيت .

دعابة

كانت الشمس قد حان مغيبها عندما أشرف موكب الزفاف على المزرعة وهو يمشي في تهادٍ وتؤدة، ويشق طريقه في الوادي الذي تعالت على جانب منه البيوت الدكناء، وبين كل بيت وبيت ساحة اخضرّ طُلعها وخَضَب شجرها وخَضلت أرضها، وارتفعت على الجانب الآخر أشجار الغابة الكثيفة الأغصان، والدوائح العظيمة الملتفة الأفنان، فرمت ظلها الظليل على الطريق الممتد الطويل.

وأقبل العروسان يميسان ببرديهما القشيبين، ويتيهان في طليعة الموكب المؤلف من الأهل والأقارب والأصدقاء. ومشى العامّة والفقراء في مؤخرة الصفوف، يتبعون الرهط المحتفل عن كثب.. بينما حام حولهم الصبية والأطفال، وشرعوا يتراكضون ويتسابقون ويتسلقون الأسوار والأشجار لمشاهدة (زفة) العروس..

أمّا العريس جان باتو، فقد كان شاباً معتدل القامة حسن الهيئة وافر الغنى، وكان بجانب رخاء باله، وكثرة ماله، ونضارة شبابه، صاحب قنص، ران حب الصيد على فؤاده فلم يضن بمال على بنادقه وكلابه وجياده..

وأمّا العروس روسالي رسل الجميلة الفاتنة، ذات العينين الفتّاكتين والقوام اللدن الأهيف، فقد كانت قبلة أنظار شباب المقاطعة، حاموا حولها وخطبوا ودّها، وطمع كل من ظن نفسه كفؤاً لها، أن تكون له الحظوة عندها، وأن يكون السابق إلى الفوز بها حبيبة وحليلة.

بيد أنها لم تحفلهم أو تأبه بهم، بل أعرضت عنهم جميعاً، وآثرت

باتو بحبها وبقلبها . . ولعلها فضّلته على سواه ، واختارته دون غيره من المعجبين والمفتونين المتدلهين ، لجاهه العريض وثرائه الواسع . . وكانت في ذلك لا تختلف عن سائر فتيات المقاطعة المطبوعات على المنفعة الشهيرات بهذه النزعة ـ نزعة البحث عن المال قبل الرجال !

وحالما اقترب الموكب من مزرعة باتو ، دوّى صوت الرصاص ، فرد الجبل صدى الطلقات الكثيرة التي لم يعرف أحد مصدرها ولا من أطلقها . . لأن أصحاب البنادق تواروا وراء الأشجار العديدة واختبأوا في الأخاديد العميقة . .

وتلفّت العريس يمنة ويسرة وقد حفزه صوت الرصاص ، وألهبت حماسته رائحة البارود الذي تجمع دخانه المتصاعد من البنادق فكوّن فوق الرؤوس سحابة خفيفة شفافة ، وما عتم أن لمح أحد خدمه مختبئاً وراء أيكة قريبة ، فانخرط من الموكب انخراط السهم ووثب عليه كالباشق وانتزع بندقيته من يده ، وأفرغ محتوياتها في الجو ، ثم خبط الأرض بقدميه ، وضرب ساقاً على ساق كمن يؤدي تحية العَلم . . ورجع إلى مكانه بجانب عروسه وهو أشد ما يكون زهواً وخيلاء . .

ولـمّا ولج الموكب باب المزرعة الحديدي الضخم ، سار الأضياف تحت أشجار التفاح التي تنوء بحملها من الفاكهة ، ثم مرّوا بالحدائق الخضراء ، فلاحت لهم قطعان البقر الغفيرة العدد وهي تتفرس فيهم وتطيل التحديق بألبستهم الزهية المبرقشة ، ولا تلبث أن تنهض من ضجعتها بتثاقل ، وتنقل خطواتها ببطء وتمهل ، وتضرس بشدة ما في جوفها من فضالة المآكل . .

واكتظّ بهم صحن البيت ، فلم يلبث أن خفّ ضوضاؤهم وهدأ

لغطهم وسكنت حركتهم ، ساعة فاحت رائحة الشواء والطعام المطهوّ ، ففغمت الأنوف وملأت الصدور بالمسرة والحبور .

وكانت ألبستهم متباينة متعددة متنوعة ، فمن قبعات حريرية مستطيلة ، إلى أغطية للرأس غريبة الشكل علق بها زغب لين رقيق أو ريش نعام ناعم طويل الشكل دقيق . . وكسا المتواضعون والفقراء رؤوسهم بالطاقية البسيطة أو باللبدة المصنوعة من الصوف . . أمّا النساء فقد تدثّرن بشالات قطنية وحريرية ، حمراء وبنية ورمادية ، موشاة بمختلف الصور والرسوم ، وأمسكن أطرافها الطويلة المتهدّلة بأيديهن . . كما أن بعضهن اشتمل بأردية من سندس وديباج ، وببزز زاهية الألوان . . فأثار هذا المنظر الغريب العجيب الدجاج المتجمّع على أكوام السماد ، والبط المزدحم على ضفاف الحوض ، والحمام المطل على أوكاره ، وأدهشتها هذه التهاويل ، فاتجهت بعيونها الصغيرة إلى هذا الخلق ولسان حالها يقول : ليت شعري ما أحمق الإنسان وما أشد سخفه وإلاّ لما كان يضفي على منظره هذه الألوان المتعددة ويتزيا بهذه الأزياء المتنوعة . .

وجلس الضيوف على الموائد المصفوفة صفاً واحداً ، فنُقلت إليهم الصحاف ، وأدير عليهم أصناف الشراب ، فطفقوا يأكلون ويشربون ويسمرون . .

واحتسى الرجال نبيذ نورماندي المعتق الفاخر ، وتلألأ شراب السيدر المشهور في الأكواب الكبيرة . . وتبودلت الأنخاب ، واستمر السقاة يترعون الأقداح الخاوية ، حتى صعدت الخمرة إلى الرؤوس ، فتضرجت الوجوه واحمرت العيون والتهبت الجسوم واختمرت في الرؤوس أفكار سخيفة حمقاء !

وكان الرجال يغادرون الموائد فرادى وأجوازاً ، فيغيبون قليلاً ثم يرجعون وقد تجددت شهوتهم للطعام والشراب . . أمّا النساء وقد ضاعف الرحيق من بريق عيونهن ومن ثرثرة ألسنتهن ، فإنهن أحجمن عن مبارحة الموائد أسوة بالرجال . . بيد أن إحداهنّ لم تطق صبراً على ما ألمّ بها ، فغادرت مكانها ، وسرعان ما اقتدت بها الباقيات ، ليرجعن بعد دقائق فيواصلن الأكل والشرب والثرثرة !

وطفق الشباب يمزحون ويفكهون ، وثارت الجلبة وتعالى الضوضاء ، هذا ينادي وهذا يجيب . . وذاك يصخب وذاك يصيح . . وجنحت فئة منهم إلى التسلي بالحكايات الماجنة ، فشرع كل منهم يسرد ما تعيه الذاكرة ، وتعمّد أكثرهم أن تكون حكايته أو فكاهته عن العُرُس والعرائس ، وما يعقب حفلات الزفاف من الخلوة الرائعة التي يتمتع العروسان المتيمان السعيدان في خلالها بأطيب وأحلى ما يتطلع إليه الإنسان وينشده !!

ومع أن جلّ المُلح التي تداولتها الألسن في تلك الليلة كانت قديمة معروفة ورثها الخلف عن السلف ، إلاّ أن القوم أصاخوا إليها وأغرقوا ضحكاً ، كأنهم لم يسمعوها قبل تلك الليلة . . .

وأخذ أربعة فتيان من أصدقاء العريس يأتمرون فيما بينهم ويتخافتون فيما يأتون ، وكأنهم يستعدون لأمر ذي بال . . ولم يلبث أن اغتنم أحدهم دقيقة خيم فيها الهدوء فجعجع بصوت جهوري :

ـ إنها وأيم الله فرصة نادرة يغتنمها لصوص الليل ليرتعوا ويمرحوا ، فالليلة قمراء ، وصاحب البيت في شغل عنهم ، ولا إخاله يجازف بليلته الثمينة اليتيمة ليدرأ عن صيده شرّ من تحدّثه نفسه بالعبث أو السرقة . .

فاستخلص العريس كلامه على وجه الجد لا العبث وقال وعيناه تقدحان شرراً :

ـ وهل يجرؤ أحد أن يقدم على هذا الأمر؟ دع من يروم شططاً أن يحاول ، وسترى مغبة عمله !

فأجابه الآخر ضاحكاً :

ـ ما أراك إلاّ سادماً نادماً إن جازفت بنفسك وبما ينتظرك من أجل بضعة وعشرين أرنباً يطمع في اقتناصها طلاب المزاح الذين لا يحلو لهم سوى تعكير صفو العشاق والمحبين . .

فأستغرب الجميع ضحكاً ، واهتزت الخصور واحتقنت الوجوه ، غير أن العريس لما عقل ما عناه ، لم يشارك القوم مرحهم ، بل نظر إليه شزراً وقال :

ـ ثق بأني على تمام الأهبة لاستقبال من يسعى لحتفه بظلفه . . وأكثرا القول فيما لا منفعة فيه ، وكاد يستعر التلاحي بين الاثنين ، لو لم يتدرهما عاقل فيغيّر مجرى الكلام ويدير دفة الحديث فتقع وطأته على العروس الشابة ، فيتضرج وجهها حياء وتطرق برأسها خجلاً . . بيد أنها كانت في شغل عما يدور حولها بما يجول في خاطرها من صور متعددة . . كانت تفكر في عريسها الجميل وتتشوّف الساعة التي ينصرف فيها المدعوون ، فيخلو الجو لهما ويحلو الليل لتتذوّق الرحيق الذي طالما هفت نفسها إلى تذوّقه ورشفه !

وفي منتصف الليل ، أفرغت الكؤوس للمرة الأخيرة ، ولم يبق في القبو ما يلتهم أو يحسى ، فلم يجد المدعوون مندوحة عن الانصراف إلى بيوتهم ، فغادروا العروسين المتعبين ، وبودهم لو كان في مقدورهم ملازمة الدار حتى طلوع النهار . .

وحالما خلت الدار منهم أمسك العريس يد عروسه ، فلثمها برقة ثم طوّق خصرها وقادها إلى مخدع النوم .

كـان المخدع مضاء بالمصبـاح النحاسي الذي قـدمـه لهـمـا والد روسـالي ، وقـد فـاح المسك في أرجـائه وسطع الطيب من الفـراش وتضوّع ، وأسدلت الستائر الحريرية على النوافذ . . . وشرعت العروس تنضو عنها ملابسهـا ، فنزعت إكليلها المزدان بالورد والزهر ، وخلعت ثوب العرس الناصع المزخرف المنقوش . . فبدت بشعرها الكستنائي المنسدل على كتفيهـا ، وبصدرهـا الكاعب الفاتن ، وبقوامهـا المديد المنسجم ، أشبه بحورية من حـور الجنان . . . فحدجهـا جـان بنظرة المحب المشتـاق ، وحملق في جسـدها ، وصعـد طرفه في أعضـائها المتناسقة . . وكـان كأنه يخاطبها بقوله ـ عجلي . . . عجلي . . فلا طاقة لي على التريث . . ولا طاقة لي على الاصطبار . . وكانت نظرته الجائعة المفترسة أقرب إلى الرغبة للاستيلاء منها إلى الحب المجرد عن الاشتهاء ! !

وهبّ واقفاً على حين غرة فطوّح بسترته على المنضدة وباشر في نزع ردائه ، ولكنها قالت له في دلال وتغنج :

ـ أي جان . . أرجوك أن تختبئ وراء الستار . . وأن تغمض عينيك حتى لا ترى شيئاً !

فتردّد هنيهة . . ثم قهقه ضاحكاً وتوارى وراء الستار الذي أشارت إليه . . بيد أنه لم يلبث أن تطاالل بعنقه فبان لها محياه . . وضحك مرة ثانية . . وضحكت عروسه . . !

وما عتّمت أن تجرّدت من «تنورتها» فتركتها تسقط على الأرض تحت قدميها . . ثم خطت فوقها بعد أن لبست قميصاً للنوم شفافاً ،

وهرعت إلى الفراش فالتحفت بالغطاء وهي تقرقر قرقرة ناعمة لطيفة . . فهرول إليها وانحنى فوقها ، وتفرس لمحة في وجهها الوسيم وعينيها الواسعتين ونحرها الغض ، وطبع على شفتيها قبلة طويلة ملتهبة تلظت بنيران الوجد والصبابة . .

ولكنه سرعان ما وثب من مكانه على أثر صدور صوت عيار ناري ، دوّى في الخارج دويّاً شديداً ، فأجفل كمن لدغته أفعى ، وقصد إلى النافذة ففتحها على مصراعيها ، فلاحت له الساحة المترامية الأطراف وقد ماجت فيها ظلال الأشجار كأنها حيتان تسبح في بحيرة . . وتسرب القمر إلى الغرفة فغمرها بضوئه الباهت الشاحب . .

واتكأ على حافة النافذة ورنا بطرفه إلى الخارج وأصغى لكل حركة وأصاخ لأدنى حسّ . ولم تلبث روسالي أن قامت إليه فلفّت يدها حول عنقه ، وقالت له بصوت مشرب رقة وعذوبة :

ـ جان . . ما لنا ولهم . . أرجئ تصفية حسابك معهم إلى الغد . . وتعال . . تعال إلي . . تعال معي . .

فاستدار جان على عقبيه فعانقها وضمّها إليه وقبّلها مراراً ، ثم حملها فأضجعها في الفراش .

وتناهى إلى سمعه صوت رصاصة ثانية تلتها رصاصات ، فاكفهر وجهه وضاق بالأمر ذرعاً ، وزمجر محنقاً :

ـ تباً لهم . . لن أتركهم يلصقون بي هذا العار . .

وما كاد يتم كلامه حتى انهالت الطلقات النارية فصخّت سمعه . وخيل إليه أنها منثالة عليه موجهة إليه . . فضاق صدره وعيل صبره ، وهرع إلى بندقيته فاختطفها وتأهّب ليذهب . . غير أن عروسه رمت

نفسها عليه وتضرعت إليه أن يبقى فلا يخرج فيتركها نهبة للوساوس والأفكار السوداء . .

ولكنه قال لها وهو يثب من النافذة :

ـ خففي عنك يا حبيبتي ولا تُرعي ، فسأعود إليك بعد أن ألقّن هؤلاء الأوغاد درساً لن ينسوه مدى الحياة . .

وقضت العروس الخائفة ما تبقى من ساعات الليل وهي في كمد لا يذهب وحزن مرير لا يزول . ولـمّا نشر الصبح راياته ولم يرجع جان جزعت وفرقت ، وطارت نفسها شعاعاً ، وطفقت تعول وتنتحب حتى سمعها جميع من في الدار . . فهرعوا إليها متطيرين متشائمين . فلمّا اطلعوا على خبرها حدثتهم نفوسهم بوقوع الشر وحلول الرزيئة ، فتسرّعوا يبحثون ويفتشون إلى أن عثروا عليه بعد لأي وهو مقيد اليدين ، موثق الرجلين ، مكمّم الفم ، ملقى تحت شجرة كثيفة وريقة . . ووجدوا بقربه بندقيته محطمة مكسورة . .

وأحاط المجهولون عنقه بثلاثة أرانب ملطخة بالدماء . . وكتبوا على صدره بالخط العريض :

(من صعّر خده ذلّ ! ومن بغى الطراد فقد مكانه ومني بالبعاد ! !) .

فلمّا حلّوا قيوده وأزاحوا عن فيه الكمامة التي كادت تزهق أنفاسه ، أفاق من غشيته ، فعضّ عل شفته وكاد يتميز من الغيظ ، وشرع يتنفس الصعداء لكثرة ما قاساه من العناء وأدنفه من اللغوب .

وفيما بعد تلك الليلة التي ذاق في أثنائها النصب والوصب ، كان كلما روى قصته يهز رأسه ويستتلي :

ـ لقد قيض الله لي أن تنطلي عليّ خدعتهم . . وإنني لأعترف بأنها

دعابة لا مثيل لها . . وإنني لأقر بأني وقعت في الشرك الذي نصبوه لي بسهولة ويسر . . ولكنني سأقتص منهم وأجعلهم يندمون على خدعهم وختلهم ساعة لا تنفع ندامة ولا تقبل شفاعة ! !

هكذا يفكهون في مقاطعة نورماندي أيام الأفراح . . وهكذا يداعبون العِرسان في ليالي الزفاف ! !

ضوء القمر

انتظرت السيدة جولي روبير مجيء شقيقتها الكبرى السيدة هنرييت ليتور بصبر نافذ . وكانت هنرييت قد عادت مع زوجها من رحلتهما في سويسرا بعد أن قضيا خمسة أسابيع يتنزهان في ربوعها ، ويتلهيان بمناظرها الحسنة الجميلة ، ويستجمّان على جبالها الشامخة المكللة بالثلوج . . وعقب أوبتهما غادرها زوجها إلى مزرعته في الأقاليم النائية ، يروم إنجاز حاجة له . فأرسلت من يخبر شقيقتها بأنها قادمة إليها لتقيم عندها أياماً ، فسرّت جولي ، وجلست في أصيل اليوم الموعود في قاعة الاستقبال ، ترقب وصول شقيقتها ، وهي شاردة اللب ساهمة الطرف ، تقرأ فلا تعي ما تقرأ ، وتتصفّح الكتاب فلا تبصر ما يمر عليها من الكلم . .

وغربت الشمس وغاب الشفق ، وظلت سيدة المنزل الحسناء في مكانها تتسمع لأقل حسّ ، وتصغي لأدنى رِكز ، إلى أن سمعت الباب يفتح ويغلق بهدوء ، فثنت جيدها لترى من يكون القادم ، فألفت شقيقتها تقف فوق رأسها وهي لا تزال متلفعة بثوب السفر ، فخفق قلبها بالحب والولاء ، وافتر ثغرها عن ابتسامة الرضى والهناء ، وقامت إليها فقبّلتها ، وعانقتها بشوق وقلب مرتاح .

وبعد أن أشبعتا لوعة الحنين المعتملة في صدريهما ، تكلمتا فتبادلتا الأسئلة ، وتشاركتا بالضحك ، واستفهمت كل منهما عن صحة الأخرى ومدى سعادتها . .

وكانت جولي قد غاب عن بالها ، في غمرة الفرحة ، أن توعز إلى الخدم بجلب المصابيح ، فتنبّهت من غفلتها ، فنادت أحد الخدم

وكلفته أن يعجل بها . فلمّا أضيئت القاعة وهزم النور جحافل الظلام ، ومزق سجف الليل المعتمة ، نظرت جولي إلى شقيقتها وهمّت بمعانقتها مرة أخرى قبل أن ترفع عنها وعثاء السفر . . غير أنها توقفت مذهولة مبهوتة ، وحدقت فيها وهي لا تصدق عينيها . . فقد رأت الشيب يعلو رأسها . . مع أنها فارقتها منذ أسابيع وشعرها حالك السواد فاحم كجناح غراب . . فماذا دهاها حتى بدا الشيب بفوديها ، وهي دون الرابعة والعشرين من عمرها؟!

ألجم لسانها ، فلم تعرف ما تقول لأختها ، ولم تدر فيما تحدثها . ولبثت ترمقها مستطلعة حتى شاهدت الدمع ينبجس من عينيها ، فأدركت أنّ أمراً جللاً حل بها فمضَّها وكربها وزعزع حياتها . . وأن نكبة مروّعة قاصمة دهمتها فزلزلت كيانها وطوّحت بسعادتها . .

وفطنت هنرييت لشداه شقيقتها وحيرتها ، فشاعت الابتسامة الحزينة في محياها الشاحب وارتسمت على فمها الدقيق ، وقالت وهي تنشج نشيجاً يمزع نياط القلوب :

ـ أختاه . . أواه . . سلي ما تشائين . . سليني عن شجوي . . سليني عن شقوتي وعنائي . . سليني عن عذابي وبرحائي . .

فجذبتها جولي إليها وقبّلتها ، وألصقت خدها بخدها . . فامتزجت العبرات ، وتوحّدت الآهات ، واختلطت الزفرات . . ثم قالت جولي :

ـ أطلعيني يا هنرييت على باطن أمرك ، واكشفي الستر عن مكنون صدرك ، ولا تخفي عني شيئاً . . ماذا ألمّ بك فقوّض سعادتك ، وهدم صرح هنائك ، وأحال شعرتك السوداء بيضاء ، وصفاء حياتك كدراً ، ورخاء عيشك بؤساً؟

فأغضت هنرييت بطرفها ، وطأطأت هامتها ، وسحت من مقلتيها

درتان يتيمتان ، ما كادت تراهما جولي حتى طارت نفسها شعاعاً ، فصاحت بها :

ـ هنربيت . . تكلّمي . . أسرعي . . أفصحي عمّا بك . . أخبريني برزيئتك . . فلا طاقة لي على رؤيتك تتضورين من الألم ، وتتحرقين على نار العذاب !

فرفعت رأسها وألقت على شقيقتها نظرة كسيرة حسيرة وقالت :

ـ لقد زلّت بي القدم وأقدمت على أعظم خطب . . وعشقت على زوجي . . عشقت رغم أنفي . . وعصفت بي ريح الغرام ، فلم أجد مندوحة عن الخضوع . .

وتوقّفت عن الكلام ، وأخفت وجهها بين يديها ، وتصاعدت زفراتها وانهمرت عبراتها . . ولما رقأ دمعها وسكن جأشها وانتفى ما رابها ، بدأت تبث شقيقتها ما يحطم فؤادها ويعصر قلبها ، وكانت كمن يلقي عن عاتقه عناء همّ ثقيل بإفشاء السر الرهيب ، وبإشراك قلب عطوف حبيب بهذا السر الدفين . . قالت :

«لا أعذر على ما اجترحت يا عزيزتي . . وإن أنسَ لا أنس ذلك اليوم الذي يخيل إليّ بأني كنت إبانه مجنونة مخبولة . . وجدير بنا نحن النساء أن نتخذ الحيطة ونتذرع بالحذر حتى لا نعثر فنكبو ونقع . . فإننا ضعيفات خائرات خائرات . . وإرادتنا أكثر وَهناً من قلوبنا . . فكم من امرأة سقطت في الأحبولة ، وكم من امرأة خضعت بسهولة . . فالنساء معرضات للاستجابة لداعي العاطفة المتقدة المشبوبة ، ولنداء القلب المفعم صبوة واشتياقاً !

«لن أعرّفك بزوجي فأنت تعلمين خبره . . ولن أصف لك تدلّهي به وتعلّقي بشخصه ، فقد سمعتِ الشيء الكثير من هذا القبيل . . بيد

أن الجدير بالذكر هو تلك الأثرة التي كانت سجية منه غير مصطنعة . . وتلك الميزة التي يتميز بها دون سائر الرجال ، من تغليب العقل على العاطفة ، وترجيح المادة على الإحساس . . ولكم تمنيت على الله أن يحتضنني زوجي أحياناً ويأخذني بين يديه ، وأن يقبّلني ويشبع وجهي لثماً . . لكم تمنيت على الله أن يضمني إليه فيضغط بعنف على نحري . . ويضغط على خصري . . لكم تمنيت أن تتحشرج روحي في صدري وأنا بين يديه . . وأن أموت ، وهو يترشف رضابي ويقبّلني . . ولكن . . أوّاه . . لقد حرمت هذه اللذة . . فحرمت المتعة . . وحرمت الهناء ! !

«ما تغيّر قط وما تبدّل طبعه . . وما استحال يوماً إلى شخص مستضعف يسعى إليّ طائعاً أو مقسوراً لشعوره بالحاجة إليّ وإلى حبي وحناني ودموعي !

«ومع ذلك ، وبالرغم من برودة طبعه ، وإحجامه عن الظهور بمظهر المحب ، لم يخطر على بالي أن أخونه في شرفه أو أخدعه في عرضه أو أثلم اسمه وسمعته . . إلى أن حان ذلك اليوم المشؤوم ، فجرى ما لم يكن في الحسبان . . ووقع المحظور . . وتلاشيت . . تلاشيت أمام التجربة القاسية الهائلة . . والعجيب الغريب أن ما حدث قد حدث بغتة وبسرعة لم أتوقعها . . فقد أضاء القمر ما حولي ، وغمرني وغمر بحيرة (لوسرن) بنوره المقبوس من قلوب العشاق . . ففتح في قلبي المصاريع المرتجة المغلقة . .

«كنت أشعر ونحن نركب متن الأسفار ، فنقطع السهول والجبال والقفار ، أنني أعيش على هامش الحياة ، كنت أشعر بأني مغبونة مظلومة ، أوصد زوجي في وجهي باب السعادة . . كنت أشعر أنه ،

ببرودة طبعه وقلة مبالاته ، شلّ عاطفتي وشعوري ، وأخمد جذوة مرحي وسروري وأطفأ وقدة فرحي وحبوري . . .

«وإني لأذكر ما حدث لي يوم كنا ننحدر من تل مرتفع ، كانت الجياد تعدو حثيثاً ، وكانت العربة تنساب في تلك البطاح انسياباً سريعاً . . وتراءت لنا الأودية والجداول والغدران من خلال الضباب كأنها متلفّعة غلالة دقيقة شفافة . . فبهرني ما رأيت ، واهتز جسمي طرباً لما أبصرت ، وصحت صيحة الإعجاب ، وقلت لزوجي : ـ سبحان من أبدع التكوين . . قبّلني . . قبّلني . . فرمقني ببروده القتّال ، وابتسم كأن الأمر لا يعنيه ، وأجابني قائلاً :

ـ لِمَ القبل يا عزيزتي؟ ألأن الطبيعة فتانة ، والمناظر جذابة خلابة ، تستعذب القبل ويطيب العناق؟ !

«شدهني بروده ، ولوّعني شروده ، وأرسلت عباراته الجامدة القشعريرة في ظهري . . وحزنت على نفسي ، ورثيت لحظي العاثر ونصيبي الجادب . . ورأيت صروح آمالي تتداعى أمامي . .

«فما باله . . ما باله لا يحفلني ولا يراعي شعوري؟ ما باله لا يبادلني العاطفة التي تضرمها الطبيعة في القلوب؟ ما باله لا يجاري المحبين ولو مرة واحدة في إحساسهم؟ هل قُدَّ قلبه من صخر؟ أم هل جبلت طينته من غير الطينة التي جبل بها سائر البشر؟ !

«لقد آلمني الأمر يومئذ ، ولكني كبتّ ما شعرت به من النفور والاشمئزاز ، وانكمشت في مقعدي تساورني الأوهام وتنتابني الهواجس . . لقد قتّر عليّ بحبه ، وضنّ بقلبه وشعوره ، ولم يساعد عاطفة القلب الجياشة على التدفق . . فلبثت تغلي وتفور في مرجلها . . في قلبي المعذب . . كما تغلي الماء وتفور في قدر لا منفذ

له ، لا يعتم أن ينبجس وينفجر بعد أن يضيق بما فيه ، ليفتح له منفساً ينطلق منه البخار المتكاثف . .

«وفي إحدى الليالي ، وكنّا قد قضينا أربعة أيام في فندق (دي فلولين) ، أصاب روبير صداع أليم في رأسه اضطره إلى ملازمة فراشه ، فخرجت إلى الحديقة ، وقادتني قدماي إلى البحرية الساكنة التي لا تضطرب لها موجة ، وكان الليل ساجياً والهواء راكداً ، والنسيم العليل يلمس وجهي لمساً خفيفاً . فلذت بالضفة واستعدت ما قرأته في كتب الأساطير عن الليالي الملاح الساحرة . . وكان البدر التمّ قد تكبد السماء وعكس ضوءه الكليل على البحيرة ، فتراقص القرص الأحمر في المياه المضطربة وكأنه كرة من نار تتقاذفها وتعبث بها الجان !

«خلبتني المناظر الرائعة فتهت في عالم الخيال وهمت في أودية الأوهام ، وتهالكت على الحشائش الخضراء ، وأرسلت بصري على سجيته يستطلع ما وراء الظلام . . وذهبت بي الأفكار كل مذهب ، فشعرت بما لم أشعر به آنفاً ـ شعرت بشوق إلى الحب شديد . . بل بشراهة ونهم لا مثيل لهما . . ونقمت على الحياة ، وتمردت على الأوضاع . . وحقدت على من جشّمني هذه الصعاب وجعل مني امرأة كئيبة حسيرة . . وتساءلت : لم لا يضمني رجل إلى صدره؟ لم لا يعانقني ويقبلني ويشبع شهوتي؟ لم لا أتذوق رحيق الحب؟ هل قُدّر لي أن أحيا وأموت ، ولا أسبر غور العواطف المحمومة المشبوبة؟ ! لِمَ لا أجد من يبرد نارها ويطفىء ضرامها؟ هنا . . هنا . على ضفة البحيرة . . في ظل الشجر وقريباً من أشباح الليل المتعددة الأشكال التي تعاون القمر والسحاب والشجر المتعالي على تكوينها؟ !

«وضاق صدري ، وعيل صبري . . وانتحبت كما تنتحب كل امرأة فقدت صوابها وبطشت بها الشهوة الطائشة . .

«وبينا أنا أتقلّى على نار أفكاري وهواجسي ، إذ نبّهني صوت خافت ، فلمّا التفت خلفي وقع بصري على رجل يحدق بي ويتأملني . . فروعت ونهضت من مكاني . . فلمّا لحظ فرقي وهلعي ، بدهني قائلاً :

ـ أنت تبكين يا سيدتي؟

«عرفته حالما نطق ، وتبيّنت وجهه ساعة اقترب ، فقد كان شاباً متخصصاً بالقانون اغتنم أيام العطلة فجاء يقضيها مع أمه في سويسرا . . ولقد صادفته مراراً في خلال الأيام الماضية ، فكان يقيد لحظه بي ويحدد نظره إليّ كمن يروم حاجة ولا يجرؤ على طلبها . .

«وأيقنت أنه تبعني واقتفى أثري من حيث لا أدري . . فارتبكت وأرتج عليّ الكلام . . ولكن الله فتح عليّ بعد قليل فقلت له :

ـ إنني أشعر بالضيق والإعياء يا سيدي ، وقد انتجعت البحيرة لأخفف عن نفسي ما تعاني من الألم والوصب . .

«لم يحر جواباً ، ولكنه مشى بجانبي ، فلم يبدر منه ما ينم عن سوء الخلق أو قلة الذوق . . وطفق يجاذبني أطراف الحديث . . . والنادر الغريب أنّ ما انطلق يحدثني به كان مطابقاً لما جال في خاطري . . بل كان ترجمة صادقة لشعوري ، وصورة جلية لخلجات فؤادي . . ولمّا آنس استئناسي بكلامه ، اندفع ينشد قصيدة من قصائد الشاعر المفلق (ألفرد دو موسيه) ، فأنشد الشعر كأنه الناظم لا الناقل . .

«سكن قلبي به، وملت إلى حديثه الطلي . . بيد أني شعرت بضيق شديد وأوشكت أن أختنق . . وخُيِّل إليّ بأن الجبال البعيدة المكسوّة بالثلوج . . والبحيرة الهادئة . . والقمر المضيء الرابض . . شرعت تغني جميعها أغنيات الحب والجمال، وتنشد أناشيد الهوى والحسن وتهتف بي وتحثني . .

«وسوّلت لي نفسي الارتداد على أدباري . . ولكن . . وقع المحال . . وجرى ما لم يكن على البال . . واستجبت لنداء القلب والجسم، ولهتاف العاطفة والحس . . ولا أعرف كيف . . ولا أعرف لماذا؟ . . لقد قسرت وأكرهت ! !» .

فلمّا أتمت هنرييت كلامها وقضت الوطر من اشتكاء بثّها، ارتمت على صدر شقيقتها وهي تئن وتتأوه وتسبل الدمع . .

فاحتضنتها جولي، وربتت على ظهرها، وواستها، وخففت عنها، وقالت بلهجة من يثق بنفسه ويعتدّ برأيه :

ـ حسبك ندمك يا أختاه . . وثقي بأننا معشر النساء تمرّ بنا فترات لا نحب فيها الرجل لذاته، إنما نحبه من أجل الحب . . بل نحب الحب بالذات . . واعلمي أن عشيقك الحقيقي الذي شغفك حبه في تلك الليلة كان . . ضوء القمر ! !

الراقصان

«المصائب الكبيرة تحزنني قليلاً» قال جون بريدل الكهل المُسنّ العَزَب .

«كنت في ريعان العمر حينما شهدت المعارك ، واقتحمت المهالك ، ومارست القتال ، وبلوت النزال ، ودست على الجثث المجندلة والأشلاء الممزقة . . فلم تحرّك هذه المناظر حزني ولم تؤثر في شعوري . فالأحداث المدلهمة ، والخطوب الجسيمة ، وجبروت الطبيعة وبطشها ، التي نئن من ثقل ضرباتها ، ونصرخ صراخ الألم والفزع من شدة وطأتها ، لا تعصر قلوبنا ، ولا تحطم أفئدتنا بقدر ما تفعله مشاهدات الحياة العابرة البسيطة التي تثير المشاعر ، وترسل القشعريرة الباردة في الظهور ، وتحيك في الصدور آثاراً لا تمحى ولا تزول . . .

«ولا مرية أن أفدح المصائب التي تعتور الإنسان فتثخن في قلبه جرحاً دامياً لا يندمل أو يرجى بَرْؤه ، هي فقدان الابن للأم وفقدان الأم للابن . . إنه حزن مرير يفري القلب ويميته ، بيد أن المرء لا يلبث أن يشفى من هذه الخطوب الملمة ، كما يشفى الجريح من كلومه الدامية الميئوس منها . . فينسدل ستار النسيان على ما مضى . . ويندرج في كفن الزمان من مات ومن قضى . .

«ولكن بعض حوادث الدهر ونوبه . . وبعض الأتراح الناشئة عن الختل والخيانة والغدر . . وبعض الغموم المكتومة التي تثير في قرارة النفس دنيا من الفكر الحزين ، وتفتح في الصدر باب الألم ، ليتسرب إلى القلب شعور الأسى والكمد ـ هذا العذاب النفساني المعقّد العضال ، تبقى آثاره محفورة في العقول راسخة في القلوب . . لأنها

كما أظن خيال أكثر منها حقيقة ، ووهم أكثر منها همّ ، وظن أكثر منها غمّ .

«ورب أمر عجيب لم يلتفت إليه كهل أو حدث لزم فكري وثبت في ذهني وطافت صوره في مخيلتي . . فعلقت أتألم منه كما يتضوّر السليم الذي لا تنفعه رقية راق ولا تطبيب طبيب . . وأسوق إليك على سبيل المثال قصة من هذه القصص التافهة المبنى الغزيرة المعنى التي ما برحتُ منذ جرت أتذكّر وقائعها بالتفصيل ، كأنها حدثت بالأمس القريب لا منذ ثلاثين سنة . . .

«لقد نيفت على الخمسين ، وكنت في ذلك الحين ابن عشرين ، فأقبلت على الدرس والتحصيل بمحض إرادتي ، لا يحثني أب على المثابرة ولا تحضني أم على الاجتهاد . . .

«لم أخلط حياتي بشيء من الهزل ، بل كانت ملكتي الثابتة في نفسي هي الجنوح إلى السكون ، والنفور من الجلبة ، والإعراض عمّا في أيدي الناس ، والاسترسال في الأحلام الهادئة الحزينة ، وإرخاء العنان لما كان يخطر على بالي ويطوّف بمخيلتي من اللمحات الفلسفية الصوفية . .

«ما دخلت قط ملاهي المدينة ومقاصفها ، وما ارتدت مراتع اللهو ومغانيه ، وما اكترثت بالفتيات الجميلات المغرورات . .

«كنت أستيقظ كل يوم مع الفجر ، فأسعى إلى حدائق لوكسمبرغ ، فأجوس في خلالها وأتفيأ ظلالها ، وأخلو بنفسي بين خمائلها ، وأمتع البصر والبصيرة بالسحر المنبثق من جمال الطبيعة الزاخرة به الحديقة . .

«ولعلّك لا تعرف تلك الحديقة ، فإنها كانت أشبه بحديقة عصر

خلا . . فأنسي أمرها وزال ذكرها وقلّ من يقصد إليها . . ولكن زها حسنها وتألقت فتنتها وأشرقت نَضرتها . .

«وكانت الطرق ، والممرات الضيقة ، يفصلها عن التربة المخضلة المخضرة المعشوشة المرقشة بمختلف أنواع الأزهار ، المتزينة بجميع ألوان الورود ، أسوار منخفضة من النبات المقلم الذي شَذَب شُعَبه ؛ وما نبا منه وما اعوج ، مِقرض البستاني الذي لا يَمَلُّ ولا يكلّ . .

«وكنت أتخذ لنفسي مجلساً على مقعد خشبي مُثبت في جذع دردارة فنّاء وارفة الظل ، فأقرأ وأطالع وأفكر وأهيم في أودية الخيال . . وكَثر ما أرخيت الكتاب من يدي وتركته يسقط على ركبتي ، وأرسلت بصري على سجيته يجوب الفضاء ، ويحلق في السماء ، ويجوس الحديقة فيتأمل صفوف البلوط والسنديان المعمّرة الوارفة العتيقة .

«لم أكن الشخص الوحيد الذي يتردد على هذه الجنة في مثل هذا الوقت الباكر ، فلقد تقابلت وجهاً لوجه مع رجل دنيّ الخَلقة استظلّ بظل دوحة عظيمة منبسطة .

«وكانت ملابسه من أخمص قدميه إلى قمة رأسه تستثير الدَهَش والتعجب . . فحذاؤه مشدود إلى قدمه بسيور فضية اللون . . و(سراويله) فضفاضة متّسعة . . و(سترته) في لون الأرض . . ورباط عنقه شريط مستوي العرض . . وقبعته المتأكلة الأطراف التي يعلوها الزَّغب تذكّر المتأمل بقصة الطُوفان !

«وكان ضامراً معروق العظام ، لا يتحرك في وجهه إلا جُزْءٌ من فيه . . فهو يبتسم ويتجهم ويضحك ويعبس من هذه الزاوية . . أمّا عينه فقد كانت ترمي بالشرر . . ولعله كان حانقاً على حَدَقتها لدوام حركتها ! وكانت عصاه الفاخرة ذات المقبض المموّه بالذهب لا تفارق

يده . . وقد أصاب حَدْسي عندما تكهنت بأنها تذكار مودة وصداقة !

«استرعى هذا الرجل انتباهي ، فتشوّفت إلى سبر غوره ، وتشوقت إلى قدح زنده ، ونزعت نفسي إلى معرفة خبره ودخيلته من حيث لا يراني أو يشعر بي . .

«وحدث ذات يوم أن ظن نفسه أميناً من عيون الرقباء والعذال ، فجلع يَرْقُز ويخطر في مشيته ويقفز وينقز . . فينخفض تارة ويعلو أخرى . . ويطوف حول نفسه بخفة ، ويعود إلى ما كان عليه كأنه يدور على محور . . ثم يبتسم كما يفعل ممثل أوشك أن يفرغ من تمثيله ، ويخطو خطوتين إلى الأمام ، ويحني هامته كأنه يحيي الجمهور . . ولا يلبث أن يعود إلى الخلف ، فيوزع القبلات ذات اليمين وذات اليسار . . . على صفوف الأشجار وعلى النبات والأحجار . . لقد كان يرقص !!

«وشاعت ابتسامة الرضى والاطمئنان على محياه ساعتئذٍ ، ولم يعتم أن ذهب مُولّياً وهو يَخطِر بيده عُجباً وكبراً . .

«ورأيته كل صباح يؤدي رقصته ، فتحيّر عقلي وانشغل لبي ، ودار في خَلَدي بأن هذا الشيخ يطوي في صدره قصة من قصص الحياة حاك الواقع بُردتها . . فرغبت في محادثته وتقت إلى استجلاء خبيئته ، ودنوت منه أقدم رجلاً وأؤخر أخرى . . وقلت : ـ عم صباحاً أيها السيد الكريم ، ألا ترى معي أن اليوم رائع والطقس بديع ، وأنه حري باثنين جمعتهما المصادفة في هذه البقعة أن يتهاديا طرف الأخبار ، فيزجيا الوقت في المحادثة ، ويشفيا الوَجْد بالمفاكهة؟

«فأجاب متلطفاً متبسّطاً : ـ نعمّا ما أبديت أيها الشاب المهذب . . فالطقس جميل والهواء رخو بَليل . . وما أشبه اليوم بأيام السنين الغابرة !

«وأفضنا في الحديث وامتخضنا الكلام . . فلمّا وثق بي وأركن إليّ حكى عن زوجته وتكلّم عن نفسه وشرح سيرة حياته . . فعلمت أنه كان أستاذ الرقص في دار (الأوبرا الملكية) في عهد الملك لويس الخامس عشر ، وأن عصاه الأنيقة القيمة قدمها إليه على سبيل التذكار الكونت دو كليرمونت . وطفق يتكلم عن زوجته وعن صلتهما بالحديقة فقال : ـ تزوجت لاكستريس يا سيدي ـ وسأقدمك إليها إن شئت بعد الظهيرة لأنها لا تبكّر في الحضور . . إن هذه الحديقة حياتنا . . وهي مآلنا وملاذنا . . . وإنّ في جنباتها هناءنا وسعادتنا ونشوة روحينا . . فهي كل ما تبقّى لنا من الماضي السعيد الذي درج في كفنه . . فمذ انقلب الدهر ظهراً لبطن ، ووهنت القوة واغبر العيش ونحن نؤمها يومياً فنقضي ساعة في صمت وسكون أو في مناجاة وشجون . . أما أنا فأقصد الحديقة كل صباح وحدي ، لأنني أتنبّه من رقادي مع أول خيوط الشمس . . ولمّا تأهب ليذهب ، أخبرني بأنه سوف ينقلب راجعاً برفقة زوجه في وقت المقيل . .

«وخامرني الحنين إلى التعرف على لاكستريس العظيمة ، فعجلت في تناول الطعام وقفلت راجعاً ، وطفقت أنتظرهما بجوار دوحتهما الأثيرة . وما هي إلاّ ساعة حتى برز صاحبي من وراء الأكمام وقد تأبطت ذراعه امرأة مهزولة في حلل سود وملاءة فاحمة . فهرولت إليهما فبش بي وقابلني بوجه طلق وقدّمني إلى زوجته .

«حدجتها بنظري وصعّدت فيها بصري ـ أهذه الضامرة المعروقة لاكستريس؟ أهذه لاكستريس فاتنة القلوب وسابية العقول ومعشوقة الأمراء والملوك؟ أهذه لاكستريس ساحرة جيل كامل من الرجال . . والغانية التي تجمّع حولها الفرسان والأبطال؟ أهذه لاكستريس الجميلة

الساحرة؟ لقد دالت دولتها وأفل نجمها ولم يبق منها إلاّ أثر إنسان ! !

«جلسنا على أحد المقاعد الخشبية ، وتبادلنا النظرات الحيية الواجمة . . ولكن لساني ما عتّم أن انطلق من عقاله ، فقلت له متلطّفاً : ـ بودي لو عرفت شيئاً عن رقصة الحياة المأثورة عنكما . . فهل لك يا سيدي أن تصف لي هذه الرقصة التي طبقت شهرتها الآفاق ، وملأت الأسماع والأبصار ، وذاع صيتكما من أجلها حتى ملأ الخافقين؟

«أجفل كأن لم يتوقع أن أفاجئه بمثل هذا الرجاء . . ولكنه استعاد رباطة جأشه واندفع يقول : ـ رقصة الحياة؟ وما أدراك ما هي رقصة الحياة؟ إنها ملكة الرقصات ورقصة الملكات . . ويجدر بها أن تكون رقصة الخلود . . هل تفهم ما أقول؟ ولكن . . آه ! لم يبق ملوك ولا ملكات . . فزالت رقصة الملكات ولم يعد يذكرها ويتذكرها إلاّ الأشخاص الذين شاهدوها !

«وإذ انتهى من المديح والإطراء ، انتصب واقفاً وطفق بعظمة وخيلاء يصف لي أسرار هذه الرقصة ، واستعمل الدّقة في شرحه . . فقلت له : ـ حبذا لو زدتني إيضاحاً يا سيدي ، وأظهرتني عملياً على الخطوات والحركات حتى تستريح أفكاري من الكد وأفهم ما استبهم . .

«فبان الغضب في أسارير وجهه . . فندمت على ما فرّط مني وأشفقت أن أكون قد أثقلت عليه . . بيد أني سرعان ما أدركت بأنه حانق على شيخوخته ناقم على وهنه وضعفه . .

«والتفت فجأة إلى رفيقة حياته المستسلمة للصمت والتأمل ، فقال بصوت مفعم حبّاً : ـ يسرني أن أطلع هذا الصديق على ما خفي من

رقصة الحياة يا حبيبتي ، فهل لك في الاشتراك معي في تأديتها؟

«فرمته بنظرة حائرة فاترة مستكينة ، ولم تلبث أن نهضت من مكانها ، فأقبلت عليه ووقفت بين يديه !

«وشهدت عيناي ما ملأ نفسي شداهاً . . فقد تخاصرا وشرعا يتمايلان بحركة واحدة . . ويدوران كشخص واحد . . ويتيهان كشابين مرحين اقتبسا من القردة حركتها . . وهما لا ينفكان يتبادلان البسمات وينحنيان ويقفزان كأنهما دميتان قُدّتا من خشب ـ كانا كالصوت وصداه أو كالشبح وظله ـ حدقت إليهما ملياً ، واختلج في صدري شعور عجيب لا عهد لي بمثله . . وأحسست بقلبي تذوّبه الكآبة ويفطره الحزن . . وخيل إليّ أن أشباحاً من الماضي تضحك بينما اكتنفها الحزن . . وتعبث بينما اعتورها الأسى . . وشعرت بميلان إلى الضحك . . ولكن رغبتي بالبكاء كانت أعمّ وأطغى !

«وتوقّفا عن الرقص وقد انبهرت أنفاسهما وكلّل العرق جبينيهما ، وتبادلا نظرات التفاهم والحب وبسمات التقدير والعُجب ـ فكانت نظراتهما وبسماتهما مثل شكلهما وحركتهما تدعو إلى الدهش والاستغراب كما تدعو إلى الشفقة والرثاء ـ وما عتّما أن تأوّها آهة المتحسر وأنّا أنّة المفؤود . . وتعانقا . . واغرورقت عيونهما بالدموع !

«ولـمّا حبسا دمعهما المنبجس ، ودّعاني وانسلاّ من الحديقة . .

«ورحلت إلى الريف في اليوم التالي ، وقفلت إلى باريس بعد مضي سنتين . وبينما أنا أطوف في أحيائها المكتظة العامرة ، خطرت الحديقة على بالي ، وداخلني الحنين إلى لقاء الشيخين ، فعرّجت عليها فلم أجد إلاّ آثاراً عفت ومعالم درست . . لقد أضحت الحديقة أثراً بعد عين ، فماذا يا ترى حلّ بالزوجين المتهافتين؟ ماذا حل بهما وقد

اندثرت حديقة أحلامهما وزالت من الوجود جنة حياتهما؟! هل استجابا لداعي الحمام ففرّق شملهما الموت الزؤام؟ هل نسيا جنتهما فراحا ينشدان السلوان في الشوارع الآهلة والأحياء العامرة والرياض الحديثة؟ أم هل هاما على وجهيهما كمنفيين أو كطريدين انتفى أملهما واستعر ألمهما، ووصلا ما انقطع، فشرعا يرقصان في مكان آخر بشكلهما الزريّ العجيب، وزيهما الفريد الغريب ـ شبحان قميئان مهدمان، يترنحان ويتمايلان ويرقصان رقصة الحياة الوهمية بين الأجداث والأضرحة.. في المقبرة المقفرة الموحشة.. وفي ظلال الشجر.. تحت ضوء القمر؟!

«إن الذكريات تطوف بي فتحزنني.. وإن الفكر يلازمني فيكربني ويرمضني.. وإني كلما استبدّ بي الوجيب وتساءلت.. لماذا..؟ تختلجني الهواجس، وتتجاذبني الوساوس، فلا أستطيع أن أجيب!

ظرف زنديق

الغباوة والبلادة والهوس هي على ما أظن السبب الذي ساق عمي سوشنز ومن على سجيته من الملاحدة والدّهرية إلى المجاهرة بالكفر، كما أن الحيرة الناشئة عن هذه الصفات بالذات هي الحافز الذي يحدو غيرهم إلى التعلق بأهداب الدين والتمسك بالعقائد والسنن . . !

كان عمي بمجرد مرور أحد الكهنة به تثور ثائرته، ويتوغر صدره غضباً . . فيهز قبضته في وجهه متوعّداً ساخطاً، ثم يلمس أقرب قطعة من الحديد، ناسياً أن عمله هذا هو عوذة من العوذ، أو نوع من العقائد، يتحصن بها ضد الشر، ويدرأ عن نفسه نحس الطالع والضّر . . !

وخليق بالإنسان متى ظن أن العقائد السائدة، جاءت بالباطل وانحرفت عن الحق، أن يعتنقها جميعاً بلا استثناء . . أو أن يماري في حقيقتها ويجادل في صحتها ومنفعتها، أو يطعن في صدقها وكمالها بلا استثناء أيضاً!

وأنا نفسي دهري طبيعي لا أؤمن إلاّ بالرأي الحر والفكر الطلق، وأنقم على المذاهب والعقائد والنحَل التي خلق الخوف من الموت منها . . ولكني لا أشعر بالموجدة، ولا أحقد أو أتغضب على أماكن العبادة والصلاة . . فمحراب العبادة ـ في رأيي الذي تقع عليّ تبعته ـ يمثّل طاعة الإنسان وخضوعه واحترامه «للخالق المجهول» . . وكلما تمنطق الإنسان تزندق . . وكلّما تقدم في علمه، واتسعت آفاق تفكيره، وتعددت نواحي نشاطه العقلي، كلّما ضعف إيمانه وتزعزع يقينه . . وقلّت أماكن الصلاة . . وندرت محاريب العبادة . . ولو آل

الأمر إليّ لاستبدلت أثاث الكنائس ومقتنياتها ، من منصات ومنابر ومذابح وهياكل ، بآلات صناعية وأدوات كشفية وكتب طبية وعلمية وفلسفية . . حتى يهتدي الإنسان بهديها ، ويستظل بظلها ، ويرقى بوساطتها أسمى درجات التقدّم والتحضّر ، وأعلى مراتب الكشف والاختراع . . .

وكنّا على طرفي نقيض . . فعمي مواطن ملتهب الحماسة ، متأجج الوطنية ، بينما كنت أنا أسخر منه ومن وطنيته الخرقاء . . فالوطنية ـ كما أنظر إليها ـ نوع من الدين . . بل هي البيضة التي تُنقَف ، فتنفقس عن الحروب ليعم الخراب والتدمير وينتشر الهلاك والموت . . !

أمّا البناؤون الأحرار ، أو الأخوان الماسون ـ وهو أحدهم ـ فكنت أصارحه بأنهم أشد غباوة وأكثر سخافة من العجائز الخرفات المتعلقات بالأوهام ، الحريصات على تأدية الفروض والشعائر في مناسباتها ! وأنه إن كان لا بدّ ممّا ليس منه بدّ ، فالدين القديم أولى بأن نتمسك به ونعتنقه !

فما هي أهداف هؤلاء الماسون؟ أهي المساعدة المتبادلة فحسب بعد دغدغة اليد أو الضغط على الباهم أو سواهما من الحركات؟ !! وإني وأيم الحق لا أجد في هذه الخزعبلات ما يضير . . لأنهم ينفذون من حيث لا يشعرون السنَّة المسيحية : «افعل للآخرين ما تحب أن يفعله الآخرون لك» . أمّا الفارق الوحيد بين الدين والماسونية ، فهو تلك الدغدغة ، والمباهاة بالأعمال الطيبة ، والتمشدق بالمساعدات المتبادلة . . كلّما أعان الأخوان أخاً معدماً فقيراً .

وكان عمي يجيبني بقوله : «نحن نقيم ديناً ضد دين . . فالفكر الحر يقضي على الإكليريكية . . والماسونية هي الفكر الحر . . بل هي

المركز الرئيسي . . والقيادة العامة . . لمن يبغي قهر أصحاب المذاهب المتزمتين المتحفظين المتعصبين . . ولمن يروم سحق المبادئ والعقائد الخرافية . .» .

وكنت أسفِّه رأيه ، ولكني أردُّ بلطف فأقول : «هذا جميل جداً أيها العم العزيز» ـ وبودي لو صحت فيه : «أيها الخَرِف المعتوه» ـ بيد أني لهذا الأمر بالذات أوجّه إليكم اللوم والتقريع ، فَعن الإتلاف والتدمير استعضتم بتنظيم المزاحمة وبعثها . . وبذا هبطت أسعار الطرفين ، واتضعت قيم المعسكرين . . ثم لو اقتصرتم على أصحاب الفكر الحر والدهريين والطبيعيين ، فضممتموهم إلى معسكركم ، لاستطعت تفهّمكم ، ولتسنى لي معرفة دخائلكم ، ولنظرت إليكم كما ينظر إلى جماعة لها مبادئها التي لا تحيد عنها . . بيد أنكم قبلتم في مؤسستكم كل شخص شاء الانضمام إليكم . . فمنكم جمهرة من رجال الكثلكة . . ويقال إن البابا بيوس التاسع كان واحداً منكم قبل أن يتقلّد منصبه الخطير . . !

فيجيبني عمي مستخفاً : «أقلع عن هذه الترّهات يا بني . . فإن أعمالنا الحقيقية تستتر وراء هذا البرقع . . واعلم أن السياسة هي العمل الرئيسي الأول والأعظم شأناً . . نحن نعمل ببطء وتؤدة . . ولكننا نحرص على نجاح المسعى لنتمكن من بلوغ الوطر ، وتحقيق الأمنية والوصول إلى الغاية والهدف ، ونسف الأنظمة الملكية من أسسها ، واجتثاث الروح الملكية الخبيثة من أصولها . .» .

فقلت مقاطعاً : «لا غرو أنك تصيب كبد الحقيقة إن زعمت بأن الماسونية آلة انتخابية تملي إرادتها على المرشحين مهما اختلفت مشاربهم ومذاهبهم ، ومهما تعددت ألوانهم السياسية والحزبية . .

وكذلك إن ادعيت بأنها تستعمل فقط لتخلب لب الناس ولتحجب الحقائق عن أبصارهم ، فتبعث بهم إلى صناديق الانتخاب زرافات ووحداناً ، كما يرسل الجندي إلى ميدان القتال . . وأيضاً إن قلت بأنه لا غنى عنها لكل طموح ولكل متزعم . . لأنها تحيل من أعضائها سماسرة ودعاة لسياستهم . . أمّا إن زعمت ـ أو زعمتم ـ بأن الماسونية هي اللغم الناسف لصرح الملكية . . فأنا لا أملك إلاّ أن أقول بأن هذا الزعم مطية للكذب والتمويه . . وإلاّ فكيف يمكن أن تكون هذه غايتكم ، ويكون رئيسكم الأعظم في الأمبراطورية ، أميرها نابليون . . وفي ألمانيا ، ولي عهدها . . وفي روسيا ، شقيق قيصرها . . ويكون من جملة الأعضاء ، أمير ويلز والملك همبرت ، وسواهما من الأمراء والنبلاء في كل قطر يسوده النظام الملكي؟ !» .

فقال : «على رسلك يا ولدي . . إن جميع من ذكرت يعملون على تحقيق مآربنا من حيث لا يشعرون . .» .

ومن المشاهد الطريفة المسلية المرفهة ، رؤية عمي وهو يستقبل أحد أخوانه المدعوين على مائدته . . فهو يعانقه ويضغط على كفه . . وتبدو من الاثنين حركات مثيرة مضحكة . . كنت أعلق عليها عندما أخلو به بقولي : «إن للكلاب أيضاً إشاراتها وحركاتها التي تماثل إشاراتكم وحركاتكم . . يا عماه !» .

وكثيراً ما انتحيا جانباً ، فتخافتا وتسارّا ، ثم عادا إلى المائدة فاستأنفا الأكل والشرب ، واستأنفا الحركات والإشارات والبسمات ، ولسان حال كل منهما يقول . . «أنت وحدك تفهمني وتحترمني وتقدرني حق قدري . . .» .

وكلّما فكرت بأن الملايين يتساوون مع عمي في هذه الصفات

فيستعيرون من القردة حركاتها ، ويتشابهون معها في إشاراتها ، حتى يلتبسوا ويتشاكل الأمر . . كنت أحبذ أن أكون مسيحياً صلباً متعصباً على أن أكون ماسونياً مقتبساً من العجماوات عاداتها وصفاتها !

واتفق في ذلك الزمن أن عاش في مدينتنا جزويتي شيخ كان عرضة لسخرية عمي وتهجمه وقدحه . . . فكان يسلقه بكلامه ، ويكيل له الشتائم ، وينتقصه ويستعذب القدح بالدين على مسمع منه ويطعن في نزاهته . . حتى إنني سمعته مراراً يقول : «أفّ لهذا الجزويتي اللعين . . سيكون له معي شأن وأي شأن ـ هكذا أشعر ـ وقد أصاب في فراسته ! وإليك ما حدث :

في يوم الجمعة العظيمة المقدسة التي تسبق عيد الفصح أو أحد الفصح ، بدا لعمي أن يصنع مأدبة يجتمع فيها بأصحابه من الزنادقة والملحدين ، فعارضته في هذه الفكرة السخيفة والرأي الضعيف ، وقلت له : «إنني سأطعم ما أشاء من اللحم والجبن ، ولكنني لن أجنح إلى الهَوْش والتظاهر أمام الملإ ضد الدين والعقيدة . . فهذا العمل الذي يصر عليه ، أو هذا التظاهر ـ كما يدعوه ـ لا يتفق مع مركزه ومكانته في بلده . . وماذا يضيره إن طَعَم الناس اللحم أو امتنعوا عن تذوقه؟» .

فلم يكترث بجدلي وحواري ، ولم يحفل معارضتي ، ودعا ثلاثة من أصدقائه ليتناولوا معه الطعام في أفخر مطعم من مطاعم المدينة . . ولم يسعني إلاّ أن أكون خامسهم ما دمت في منجاة من الخسران ، لا تبهظني تكاليف الوليمة ، ولا تفدحني أثمان بنت الحان . . .

وما أزفت الساعة على الرابعة ، من بعد ظهر الجمعة ، حتى كنا مجتمعين حول خوان موضوع في صدر المطعم . . وشرع النُّدل

ينقلون إلينا صحاف اللحوم، وجاءنا السقاة بأصناف الخمور . .

فلمّا قضينا الأرب من الطعام والشراب، وفقد عمي وعيه من كثرة ما عبَّ من الراح، حملناه إلى بيته، وأضجعناه في فراشه، وغادرته وأنا واثق بأن تظاهره السلمي ضد الإكليريكية وضد التقاليد الدينية ستعود عليه بالوبال، وستنوبه بسببها نوبة حادة من الألم . .

وفي طريقي إلى مسكني شعرت بسورة الخمرة تسري في دمي، وبنشوتها تزيّن لي إشعال نار الفتنة، لأتبيّن حالة عمي والكاهن الجزويتي من الخير والشر . .

فألبست مظهري لبوس الغمّ والانقباض، وقصدت مقام الكاهن فناديته مراراً بأعلى صوتي . . وبعد لأي أطل الشيخ الثقيل السمع وسألني عن غرضي، فأجبته وقد أشربت صوتي رنة الانزعاج ونغمة القلق والهياج : «عجّل أيها المحترم، افتح الباب، فثمة رجل بائس مدنف يلح في طلبك . .» .

فارتدى الرجل الطيب مسوحه، وتقلّس واحتذى نعله، وهرول نازلاً . فأخبرته بأن عمي الرجل الضال العربيد قد دهمته العلة وفجأه المرض . . ولتخوفه من العاقبة الوخيمة، ولتوجسه من الموت، أبدى رغبته في مقابلة الكاهن وانتصاحه والاعتراف له بخطيئاته، حتى يتسنى له اجتياز المحنة وسلك العتبة الفاصلة بين الحياة والموت بسهولة وسلام وصفاء نفس . . وعقبت على ذلك بقولي : «فهذا أيها الأب رجاؤه وملتمسه، فإن لم ينفعه لم يضره . .» .

فلما استوعب الشيخ كلامي، انبسطت أساريره وأظهر الحبور والابتهاج، وقال لي : «لبيك يا ولدي العزيز لبيك . . انتظر هنيهة ريثما أقضي حاجة !» .

فقاطعته قائلاً : «المعذرة أيها الأب الموقر . . ولكنني لن أرافقك أو أماشيك . . لأن مبادئي تمنعني عن الاختلاط بك . . واعلم أني رفضت البتة أن أكون رسول عمي إليك . . لهذا أستحلفك بكل عزيز أن لا تطلعهم بمقدمي . . بل ازعم بأن شعورك الباطني أوحى إليك بمرضه . . وأن قوة خفية ألهمتك حقيقة حاله !» .

فَذَعِن لي الكاهن وانطلق يسعى إلى عمي ، وطرق عليه الباب . . وما هي إلاّ هنيهة حتى أدخل إلى حصن الآراء الحرة والأفكار الطلقة . . .

وتواريت أنتظر ما يحدث بين هذين الخصمين العنيدين . . واستترت أترقب النتائج التي تسفر عنها مقابلة هذين الندين اللدودين . .

غير أني أحسست بالبرد القارس يفري بدني . . فداخلني الندم على ما فرّط مني . . فلولا جموحي وراء مجوني لكنت الآن أغط في فراشٍ وثير دافئ . .

ومرت الساعات وئيدة بطيئة ، ولم يخرج الكاهن . . فليت شعري ، ماذا حدث؟ هل قضى عمي نحبه من الانفعال والتأثر ، حالما أبصر به منتصباً فوق رأسه؟ أم هل جنّ جنونه ، فاستل روح الشيخ من صدره؟ أم هل تبادلا اللكمات والصفعات حتى خارت قوى الشيخين وانهارت عزيمة الغريمين؟ !

وظللت في مكاني حتى رأيت طلوع الصبح وضوءه ، ولـمّا يخرج الكاهن . . فتضاعف خوفي واضطرابي ، فقصدت دار صديق من أصدقائي تطل على دار عمي ، فأيقظته من رقاده ، وقصصت عليه قصتي ، ورجوت منه أن يسمح لي بالتطلع من نافذة غرفته ، حتى

أتمكن من رؤية الكاهن فيما إذا خرج حيّاً !!

وتناوبنا الحراسة ، وتداولنا المراقبة ، أنا مرة وصديقي مرة . . ولم يبارح الكاهن الدار قبل السادسة مساء . .

فما كاد بصري يقع عليه وهو متهلّل الوجه بسام الثغر ، حتى شعرت كأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهلي . . وما عتمت أن هرولت إلى عمي فألفيته ضجيع السرير ، وقد التحف اللحاف وأخذ يئن ويتوجّع ويشتكي البَطَن . . ولمحت صورة أحد القديسين معلقة فوق رأسه . .

فقلت له مترفقاً مستطلعاً : «عوفيت يا عماه ، لماذا أراك مرتدياً رداء الضعف والاستخذاء؟ قم . . هيا بنا ، ولا تسلم نفسك للأوهام . .» .

فأجابني بنبرة ضعيفة واهنة : «أي بني ، إنها والله لإحدى المعجزات . . وإن هذا الكاهن الجزويتي الذي غادرني منذ لحظات ـ هذا الرجل التقي النقي المؤمن الذي طالما هزأت به ـ قد هبط عليه الوحي ، وألهمه الله بمرضي وَدَنفي . .» .

أوشكت أن أنفجر ضاحكاً وقد سرني جواز خدعتي وانطلاء حيلتي . . بيد أني كتمت رغبتي وأمسكت نفسي ، وقلت وأنا أتكلف الدهش : «رفقاً بنفسك يا عم . . أحقاً ما تقول؟ !» .

فقال : «أجل ! وداخل حسه بأني قاب قوسين أو أدنى من الموت ، فهرع لينقذ جسمي من الهلاك ، ويخلص روحي من عذاب السعير . . !» .

فانشغلت بأنفي أمسحه وأمرّ عليه بيدي ، حتى لا أرجّع في الضحك . . ولم ألبث أن قلت له متهكّماً : «أنت يا عماه . . تستقبل

الكاهن في بيتك؟ . . أنت الدهري الذي لا تعترف بالكنيسة ولا بالدين؟ . . أنت رجل الفكر الحر والرأي الحر؟ . . أنت الماسوني الحر؟ . . تستقبل من كنت تكره وتقلو في محراب المبادئ الحرة . . ولا تلقي به على قارعة الطريق؟ !!» .

فأجابني : «أصخ إلي . . إن هذا الرجل حدس بمرضي فصدق حَدْسه وأصابت سريرته . . وإخال العناية الإلـهية قد قيّضته ليخلصني وينجيني ويرشدني إلى ما فيه سواء السبيل . . وفوق ذلك ، فقد تحدث عن أبي ، وسرد أموراً عجيبة عن تقواه وورعه . . !» .

«عن أبيك ! أخلق بك أن لا تفوه بهذه الكلمات . . وأن لا تتسرع فتتنكّر لمبادئك الّتي طالما جاهرت بها . . فحديثه عن أبيك ليس بالسبب الكافي لهذا التحوّل . . !» .

فقال كأنه لم يسمعني : «كنت وأنا في بحران المرض أهذي كما يهذي المشرف على الدنف فهبط عليّ هذا المتديّن . . أجل . . هبط عليّ من حيث لا أدري . . فلولاه ولولا وجوده قريباً مني لقضيت نحبي ، ولما تكحلت بضوء هذا النهار عيني . . واعلم بأن لهؤلاء الكهنة خبرة الطبيب وحذقه في مداواة المرضى ومعالجة المسقومين . .» .

«ولكنه غادرك منذ لحظات كما ذكرت ، فماذا أخّره عن مبارحة البيت قبل الأصيل؟» .

«إنني ألححت عليه بالبقاء ، وابتهلت إليه أن يلازمني ويمكث معي ، وقد ذعن لرغبتي واستجاب لرجائي ، ولم يبارح غرفتي . . حتى إنه تناول طعامه فيها . .» .

«وكان اللحم واللبن من ضمن الطعام على ما أظن . .» .

فقال عـاتباً : «اربأ بنفسك عن المنكر يا غاستـون ، ولا تجنح إلى خزعبلاتك . . فقـد أظهـر لي هذا الكاهن من ضروب الإخلاص والتفاني ، ما جعلني أتبيّن خطئي الجسيم بتهجّمي عليه ، واستقباله دائماً بوجه جهم كالح كريه . . وهو هذا الأبيّ الشهم الذي اعتنى بي رغم إساءتي أكثر من أقربائي وأصدقائي . . فيتحتم عليك إن رمت مرضاتي ، أن تقتـدي بي ، وتقلع عن التعـرض له بتخـرصاتك وبهتانك . !» .

بغتّ وروّعت ، وألقي في رُوعي الاستسلام لتصاريف الزمن التي سببت هذا الانقلاب الهائل . . ولكني ضبطت مشاعري وقلت متسائلاً : «وكيف قضيتما سحابة نهاركما يا عماه؟» .

فأجابني قائلاً : «عمد إلى صلواته يتلوها ، وإلى تسابيحه يترنم بها ، وطفقت أنا أقرأ كتيّباً شاءت المصادفة أن يحمله الكاهن في جيبه . .» .

«كتيب ديني على الأرجح؟» .

«إنه يمتّ إلى الدين ، ولكنه ، على الأكثر ، حديث ممتع شائق دبجه يراع مبشر رافق بعثة تبشيرية إلى أواسط إفريقية ، وفي هذا الكتيب وصف دقيق للأعمال التي يقوم بها هؤلاء المجاهدون الأبطال . .» .

ولـمّا أيقنت بأن الرياح جرت بما لا أشتهي ، دعاني التطيّر إلى أن أرسل آخر سهم في جعبتي ، فقلت له وأنا أتحفّز للذهاب : «فأنت كما أرى صَبأت فانسلخت من الماسونية ، وتبت عن الزندقة واعتنقت الدين . . وبذا أصبحت في نظر إخوانك مارقاً ومرتداً !» .

فقال وهو يحاول أن يبرر موقفه : «الدين والماسونية صنوان ، لا نزاع بينهما . . واتجاه الواحد يتفق مع اتجاه الآخر . .» .

«ومتى يعود الكاهن الملهم لزيارتك؟» .

«لا أعلم . . بودي لو قدم غداً . . فقد علق به رجائي . . وسأقفو أثره وأتبع مشورته وأصغي إلى نصيحته !» .

وصمتُّ صمت من أفحم مضطراً لا مقتنعاً . . وانطلقت في سبيلي !

واصطليت وحدي دون غيري بالبلية . . واحترقت بنار تهوّري في المزح والمجون . . فقد جفاني عمي وأقصاني . . وأناب إلى الله وثاب ، ولزم الطاعة وأسرف في العبادة . .

وحبذا استهداؤه ، لو اقتصر الأمر على الصلاة والصوم . . لأن الدين والماسونية سيان في نظري ، لا أبالي أيهما اتّبع عمي وأيهما ترك . .

ولكن الداهية الكبرى التي بليت بها ، وثالثة الأثافي التي قصمت ظهري قسماً ، هي إقدام عمي على كتابة وصيته وحرماني من تركته . . وإيثار هذا الجزويتي «الخبيث» بثروته !!

نقمة الجمال

- ١ -

وقفت العربة الجميلة ذات المصباحين المصفّحين بالفضّة ، والجياد الدهم المطهمة ، في فناء البيت الفخم قبالة الباب المرتج .

وكان الربيع في إبانه ، والنسيم الدافئ يهب على الوجوه فيمسّها مسّاً خفيفاً لطيفاً ، وعبقت الحديقة بالبنفسج والنرجس ، وانتشر عبير الزعفران ، وتضوّع أرج الزهر ، وحمل النسيم النشر الطيب ففغم الخياشيم وفعم الأنوف .

وقرابة الساعة الخامسة فتح الباب الحديدي المطرف بالذهب ، وظهرت منه الكونتس دو مسكريت . وفي اللحظة التي همّت فيها بالصعود إلى العربة ، دنا منها زوجها الكونت واعترض سبيلها وقال وهو يحدجها بنظره الفحيص ، ويصعّد بصره في وجهها الوسيم :

ـ إلى أين تذهبين يا سيدتي؟

فرمقته باحتقار ، ثم أشاحت بوجهها عنه ، وأخذت محلها في المقعد الوثير دون أن تجيب . .

وكانت الكونتس من أجمل خلق الله وجهاً وأرشقهم قامة . . وكانت تحمل فوق منكبيها رأساً بديع التكوين يزهو بتاجه الفاحم الناعم . . وكان محيّاها الفاتن البيضي الشكل ، وبشرتها العاجية المطعمة بالذهب ، وعيناها الرماديتان الصافيتان ، أشبه ما تكون بتمثال أسبغ عليه المثّال من مواهبه ، وأضفى من إلهامه وعبقريته ، ما صيّره آية من آيات الفن والجمال . .

جرحته كبرياؤها ، وأدمته أنفتها ، ولسعته عقارب الغيرة ، فتأجّم غضباً ، ولكنه كبح جماح نفسه وكتم ما جاش في صدره ، ورقي إلى العربة فقعد قبالتها وخاطبها قائلاً :

ـ سألتك فلم تسمعي . . إلى أين أنت ذاهبة؟

فقالت مقتضبة :

ـ إن مقصدي غابة بولونيا ، ومأربي الاستراضة والترفيه عن النفس .

ـ هل تقبلين صحبتي؟

ـ العربة عربتك والجياد ملك يمينك .

فنظر إليها مشدوهاً ، ثم استحالت دهشته إلى ذهول ممزوج بالموجدة والحنق ، واتكأ على مرتفق العربة الجانبي واستغرق يفكر : ماذا اعتراها اليوم وماذا طرأ عليها؟ وود لو سبر غورها وخبر خبرها واستشف ما يجول في مخيلتها .

وتكلف الجلادة وتذرع بالصبر وأمر الحوذي أن يأخذ طريق الغابة .

وصدع الحوذي بالأمر فحث الخيل على السير ، فانطلقت في أعنتها ميمّمة غابة بولونيا ، وهي تقل رجلاً قد تقاسمته الهواجس ، وامرأة قد توزّعتها الهموم وذهبت بلبّها الوساوس . . .

لم تلتفت الكونتس إلى زوجها ، ولزمت الصمت واستحوذت عليها الخواطر ، وقدحت عيناها شرراً ، وومضت بنظرات الثورة المؤرثة المضطرمة في سويدائها . .

وضاق الكونت ذرعاً بهذا السكون الشامل ، فربت على يدها بلطف ، ولكنها أجفلت كالملدوغ وسحبت يدها إلى حجرها . . فلاذ

مكرهاً بأذيال الصمت . بيد أنه أخذ يلوم نفسه ويعنفها على حلمها وأناتها ، وهو السيد النبيل المطاع . ولـمّا عيل صبره وضاق صدره قال لها بصوت أجش يشوبه الحنق والسخط :

ـ غبرييلا؟

ـ ماذا تريد؟

ـ غبرييلا . . . جمالك اليوم يزري بنور الشمس . . .

فهزت كتفيها غير مكترثة بإطرائه ولامبالية بثنائه ، ورنت بطرفها إلى الحقول والبساتين المعشوشبة ، وأخذت تتأمل الربى المخضلة والرياض المخضرة ، وقد قطبت حاجبيها ، وبرقت عيناها ، وتضرجت وجنتاها ، فكان منظرها أشبه بملكة استحوذ عليها الغضب والانفعال .

وبدا قوس النصر العتيد من بعيد وقد ارتفع وسما متحدّياً السماء الحمراء المتضرجة ، فخُيّل إليها أن شمس العشيّ المتحدرة إلى المغيب توشك أن تهبط عليه وتغوص فيه . . وانتشر الهباء المنعكسة عليه أشعة الشمس ، فبدا كأنه ذرات غبار نارية . . .

وأضاف الكونت قائلاً :

ـ عزيزتي غبرييلا . . .

فنظرت إليه شزراً وقاطعته قائلة :

ـ آه منك أيها الرجل ! لم يعد في طوقي أن أتحمّل المزيد من الإرهاق والإعنات . . كف أذاك عني . . أرجوك !

فقال متجاهلاً ما بدر منها :

ـ ثقي بأن حسنك يشع سناه أكثر من أي وقت مضى . . ولعل التهيّج والانفعال اللذين يشوبان حركتك وكلامك قد فعلا فعلهما في

إذكاء نار جمالك . .

فقالت وهي ترعد :

ـ أما لهذا الكلام من آخر؟ أما آن لك أن ترفع نير العبودية عن كاهلي؟ ألا فاعلم بأن كل علاقة جمعت بيننا قد انفصمت ، وأن كل واشجة قد تفككت عراها وانقطعت !

فدهش الكونت وكاد الذهول يذهب بعقله . . ولكنه فاء إلى نفسه فصاح بها مستشيطاً :

ـ ماذا تقولين؟ إني لأراك في سفاهة . . تخلطين بكلام فاسد لا معنى له . . !

فخفضت صوتها لئلا يسمعها الحوذي وقالت :

ـ ليس بي سفاهة ولا في كلامي خطل . . فذرني أتم فأطلعك على خبيئة صدري ، وأقص عليك خبري . .

فقال وهو يتحرق إلى معرفة الخبايا :

ـ إيه يا امرأة ! هات ما عندك !

قالت :

ـ هل أكشف لك القناع عن كل شيء؟ هل أصف أنانيتك وأثرتك؟ هل أطلعك على ما خَفِيَ عنك من سوأتك؟ !

فاحتقن الدم في وجهه ، واحمرت عيناه ، وقال وهو يصرف بأسنانه :

ـ أجل ! أجل حدثيني ولا تخفي أمراً . .

كان الكونت مديد القامة عريض المنكبين ، ذا لحية كثة حمراء ، وكان مهيب الطلعة كريم المحتد ، تحدّر من أصل عريق في الحسب والنسب . وكان في رأي معارفه وأصدقائه مثال الزوج المخلص الوفي ،

والأب الحنون الرفيق . .

صوبت الكونتس نظرها إلى وجهه وقالت :

ـ لن يسرك مقالي . . ولكن ثق بأني متأهبة لكل أمر يتمخض عنه كلامي ، لأني أصبحت لا أخشى أحداً . . وأنت أقل من يفزعني ويخيفني . .

فقال وهو يعض على شفته :

ـ أيتها المجنونة ! انزعي ما في صدرك من غلّ !

قالت :

ـ لا . . لست مجنونة ولا مخبولة . . بل عبدة تريد الانعتاق ومظلومة تبغي العدل والإنصاف . . وزوجة فرض عليها أن تقاسي عذاب الحمل والولادة أحد عشر عاماً . . وامرأة مغبونة مقهورة تحب أن تتنسّم نسيم الحرية النقي الطلق ، بعد أن ملّت وكلّت من استنشاق هواء الذل والعبودية الفاسد الكريه . . امرأة تود أن تحيا وتعيش كما تحيا وتعيش سائر النساء . . . امرأة تصبو إلى مناقشة زوجها الغاشم الحساب ـ زوجها الذي أعطاها غيضاً من فيض وقليلاً من كثير . .

فتقلّصت عضلات وجهه وطمح ببصره إليها وقال بنبرة حادة :

ـ لا أفهمك . . لا أفهم ما تقولين . . !

ـ بلى أنت تفهمني كما تفهم نفسك . . فمنذ ثلاثة أشهر وضعت المولود السابع . . فلمّا ألفيتني أستعيد رونقي وحلاوتي ، أدركت أنك أخفقت في إبادة جمالي وإتلاف حسني ، فتاقت نفسك إلى إعادة الكرة حتى تفوز بما تمنّي به النفس ، فتراني حبلى أتعهد الجنين الثامن وأنشغل به عن شؤون الدنيا الأخرى . .

ـ هذا هذيان لا طائل تحته يا غبرييلا !

ـ أنا لا أهرف بما لا أعرف ، فإنك تستمرئ هذه العملية ، وتتمنى أن تدوم حتى يذوي جمالي وتذبل نضرتي . . حينئذ تهدأ بالاً وتقر عيناً ، ويزول ويتلاشى ما يبعث على الغيرة العمياء التي تتحرق على رمضائها !

لم يصدق الكونت أذنيه ، لم يصدق بأن زوجته التي جبلت على الطاعة والرضوخ تبلغ بها الجرأة هذا الحد . . فتلهّب غضباً واشتعل غيظاً ، وقبض على ذراعها وضم عليها أصابعه وعصرها حتى كاد يحطمها ، فكادت تصرخ من شدة ما ألمّ بها ، بيد أنها تحمّلت ألمها وتمتمت :

ـ لن تعوقني عن إتمام حديثي . . فإن حاولت إسكاتي استنجدت بالحوذي ليعرف عن خلقك ما يجهل ! إني ما سمحت لك بمواكبتي إلاّ لحاجة في نفسي أريد أن أبثها لك ! فاسمع حتى النهاية ! لقد كرهتك لأنك سدرت في غلوائك وأوغلت في تعسفك . . وما أخفيت عنك شعوري إلاّ لأنني صريحة لا أعرف التمويه . . . فقد تزوجت بي رغم أنفي . . فأكرهت أبويّ اللذين اجتاحتهما الضائقة المالية على الرضوخ والامتثال ! ولم تنفع معهما ضراعة ولا شفاعة ، ولم يرق قلباهما لدمعة أو لآهة . وهكذا تمت الصفقة ، وابتعتني كما يبتاع الإنسان جارية في سوق النخاسة . . . وعندما ألفيت نفسي في كنفك لم أجد مندوحة من إدماج حياتي بحياتك ومستقبلي بمستقبلك ، وأزمعت أن أتناسى استغلالك المشين لحالة والدي العسيرة الضنكة . . فأعطيتك زمامي وسلمتك جسمي وقلبي ، ولكنك خفرت ذمامي وضننت عليّ بالسعادة ، ولم تشأ أن تجدني أتمتع بالحياة . .

وسرعان ما وضح المخفيّ ، وبان المحجوب ، وانجابت سجف الظلام ، وتجلّت غيرتك الرعناء المستفحل أمرها المستشري شرّها . . فشرعت تلصق بي التهم ، وتصمني بكل نقيصة . وكان لجمالي أوفى نصيب في إذكاء نار غيرتك . . غير أنك لم تستطع منعي من أن أكون جميلة محبوبة أدعى إلى المآدب والولائم وحفلات التعارف والاستقبال ، فصبرت على مضض ، تنظر ، ونفسك تتلظّى على نار الغيرة ، إلى رسومي المنشورة في الصحف ، وتقرأ ، وصدرك يغلّ الحقد والضغن ، ما تكتبه عني هذه الصحف من أني ملكة الجميلات وزهرة المجتمعات . . . ورسمت لنفسك خطة تنتهجها وتعمل بموجبها فتحول بيني وبين الناس ، وتوصد في وجهي أبواب النوادي والجمعيات ، وتجعلني أقضي الحياة بين حمل وولادة ، وإرضاع وعناء وسهاد ، حتى تذبل نظراتي وتتقرح أجفاني وينضب جمالي ويزول شبابي ، فتلفظني المجتمعات ويمجّني الرجال !

لا تحاول نكران هذه الحقيقة ، فإنك بثثتها لشقيقتك ، وأطلعتني هي عليها ، لأنها تمحضني الود وتؤثرني بحبها وعطفها ، وتستعيذ بالله من جبروتك وخشونتك . .

وتحمّلت جورك أحد عشر عاماً . . وقاسيت عذاب السعير . . وأمّا ثالثة الأثافي فهي أثرتك المقيتة ، لأنك ما كنت تطمئن إلى أني أصبحت أماً ، حتى تهجرني وتلفظني ، ولا تعتم أن تتخلّص مني عندما يحين وقت الولادة . . فتبعث بي إلى الريف لأقضي بين ظهراني أسرتك فترة الحمل والوضع والنفاس . . .

ولكن سرعان ما كانت تعود إليك غيرتك الهوجاء ساعة تراني أستعيد صحتي ونشاطي وأسترجع نضرتي وقسامتي ، فتضطرم الغيرة

في قلبك وتستعر نارها في جوانب نفسك ، فتضطهدني وتعذّبني وتسومني الخسف . . حتى أنقاد لمشيئتك الوضيعة صاغرة ، وأذعن لرغبتك الخسيسة ذليلة ـ هذه الرغبة التي تراود نفسك الآن وتتنازع حسك ـ وما هي برغبة التملّك والاستيلاء التي يوحي بها الحب ، لأني ما صددتك يوماً وما جفوتك . . ولكن رغبة جعلي امرأة حاملاً . . امرأة عازفة عن المسرات . . امرأة صادفة عن الملاهي والحفلات . . امرأة واهنة يزيدها الحمل وهناً . . . هي التي كانت تخالج قلبك وتجيش في صدرك !

وبالإضافة إلى ما تقدّم فقد تعلّقت بأولادك ، لا لأنهم أفلاذك فحسب ، بل لأنهم كانوا ، وهم أجنّة في رحمي ، خير ضمان لك على ابتعادي عن الناس وانقطاعي عن ارتياد دور التمثيل ، وحجر عثرة في سبيل اختلاطي بالأصدقاء ! وكنت في ذلك الوقت فقط تشعر نحوي بالرثاء والشفقة ، رغم نقمتك وموجدتك وغيرتك !

أحسبتني قد غفلت عنك وعن نواياك؟ أحسبتني عميت عن رؤية سرورك وحبورك؟ لقد كنت ألمح بريق هذه الغبطة في ناظريك . . وكنت أرى دلائلها في حركة يديك واهتزاز شفتيك كلّما أوشكت على وضع المولود الجديد . .

أحببت أولادك كما يحب الظافر ثمرات النصر ! أحببتهم لا لكونهم من دمك ولحمك ، بل لأنهم ثمرات النصر الذي زرعت شجرته . . ومعاول الهدم التي استعنت بها للقضاء على شبابي وحسني ! وتهت فخاراً بهم لأنهم أعانوك ، وهم بعد يختلجون اختلاجة الحياة في أحشائي ، على وقف عبارات المديح والإطراء التي كانت تهمس بها الشفاه ، وعلى إسكات الأفواه التي كانت تنثال منها كلمات الإعجاب !

ولزمتهم فلزموك ، واصطحبتهم فصحبوك إلى كل مكان ، ورافقوك فيما يشبه العرض ـ إلى غابة بولونيا . . إلى البساتين والرياض . . إلى الملاهي الشعبية والميادين المنتشرة في أرجاء العاصمة . . حتى يراك من يعرفك ومن لا معرفة له بك ، فيقولون : واهاً له ! سقياً لقلبه الحنون الحادب ! نعم الأب هذا الرجل !

وأمسكت عن الكلام وتنفّست الصعداء ، ونظرت إلى زوجها نظرات الحقد والبغضاء . . ورشقها زوجها بسهام من نظراته المتأججة . . ثم انتزع يدها من حجرها وضغطها بتوحش حتى كاد يسحقها ، وقال وقد طار طائره والتهب نفسه واتقدت عيناه :

ـ لا تتهجمي . . لا تتهجمي . . إني أحب أولادي ! . إني أعشقهم . . هذا افتئات على الباطل تمخض عنه نزقك وطيشك . . بل سبة عار في جبين الأمومة . . بل لطخة لوثت بها نفسك الخاثرة . . واعلمي . . اعلمي بأنك لي . . لي وحدي . . وأنني سيدك ومولاك وولي أمرك . . وفي وسعي أخذ ما تشتهيه نفسي في كل وقت شئت ، عنوة واقتداراً !

واستمر يعصر يدها بقبضته الفولاذية ، حتى انبهرت أنفاسها ، وتندى جبينها من العرق ، وطفرت دموع الألم والقهر من عينيها . .

فأردف متهكّماً :

ـ أنا شديد القوى وأنت شديدة الضعف كما رأيت . . فاحذري مغبة التمرد الذي قادك إليه تمالؤ نفسك على الشر ، ولا تستمرئي الفتنة فعاقبتها وخيمة .

قالت :

ـ إن عـذاب الروح والحس الذي مـا برحت أعـاني برحـاءه منذ سنين ، لهو أكثر إيلاماً من عذاب الجسم الذي تفرضه عليّ بما حبتك به الطبيعة من صلابة العود وقوة البنية . . لقد تناسيت حقوقي فاستحققت عقوقي ، فأعرني سمعك . . بودي أن أطرح عليك سؤالاً . . هل تعتقد بأني امرأة نزيهة الخلق؟

فقال متعجباً :

ـ أجل . . إني واثق من طهارة ذيلك وتعلقك بحبال الله . .

ـ فإن أقسمت لك على صحة ما أقول ، هل تؤمن بي وتصدقني؟

ـ أجل !

ـ فلنعرج على الكنيسة !

ـ وما دخل الكنيسة بشأننا؟

ـ وأي ضرر في ذلك؟ لن تلبث أن تعرف كل شيء . . . فهل ترافقني؟

ـ مري الحوذي أن يعرج على الكنيسة . . .

فنادت على الرجل وأمرته أن يسوق إلى كنيسة سان فيليب .

فصدع الحوذي بالأمر ، ولوى أعنة الخيل ، وساطها بسوطه الطويل ، فمضت تنهب الأرض نحو الكنيسة . .

خيّم السكون عليهما كأنّما فوق رأسيهما الطير ، فلم يتنبّها إلاّ على صوت الحوذي ، وهو يكبح جماح الخيل ويهيب بها أن تقف .

ولـمّا توقفت العربة نزلت منها الكونتس وولجت بيت الله مطأطئة الرأس وتبعها زوجها عن كثب .

وكانت الكنيسة خالية من المصلّين ، فارتمت على أحد المقاعد الأمامية ودفنت وجهها بين راحتيها وطفقت تبتهل وتصلي . ثم

أخذتها الرجفة فاستخرطت في البكاء . . . بكت هذه المخلوقة الحزينة الجميلة بهدوء وذرفت الدمع الهتون ، كما تبكي كل امرأة عندما تأخذ بمخنقها الخطوب وتنغص عيشها الأحداث والكروب . . .

وطال عليها الأمر ، فلم يرَ الكونت بدّاً من استعجالها ، فلمّا ربت على كتفها ، هبت من مجثمها ورنت إليه بطرف كليل حسير وقالت بصوت متهدج :

ـ لم أعد أخاف أحداً . . لا لم أعد أخاف أحداً ! بوسعك أن تأخذني بالبأساء والضراء . . بوسعك أن تزهق روحي . . ولكني لن أحجم عن مجابهتك بالحقيقة المرة . . إن ولداً من أولادك لا يمتّ إليك بصلة البنوة ، إنه نغل حملته من سواك ! ! أقسم على ذلك أمام الله وفي هذا المحراب المقدس ! !

لقد كظظتني وبهظتني وملأت حياتي نكداً ، وأرغمتني على طلب الانتقام ، فارتكبت هذه الزلةِ ، لأنها أنجع وسيلة للانتقام منك عقاباً على جبروتك وطغيانك .

لن تعثر على حبيبي . . لن تقف له على أثر . . لك أن ترتاب بكل رجل . . وتشك بكل رجل . . وتتهم كل رجل . . ولكنك لن تعرفه .

لقد وهبته نفسي لا حبّاً به ، ولا انتهاباً للذة أو انتهازاً لنشوة . . ولكن . . لأشفي غليلي منك . . لأقهرك . . لأعذبك . . لأقض مضجعك . . لأستل النوم من جفنيك !

ستتساءل : مَن من الأولاد السبعة هو؟ هذا أو ذلك؟ هذي أو تلك؟ لن تعرف ! لن تعرف أي ولدك هو مهما جاهدت وكابدت . . ومهما وعدت وأوعدت . . لن تهتدي إليه مهما مالأت وهدّدت . . ومهما منيت وأنذرت . . .

كنت أتردّد وأرجئ ، وأماطل نفسي وأقنعها بالتريث والانتظار . بيد أنك اضطررتني اليوم إلى التعجيل فيما لا ندحة عنه حتى يكمل انتقامي ويتم انتصاري . . لأن الانتقام مهما كان رهيباً لا ينضج ثمره ولا تستشعر لذته ولا يتذوق الإنسان حلاوته ، إلاّ متى أدرك الخصم العنيد بأنه المغلوب وقد حسب نفسه الغالب . . وأنه المقهور وقد خيل إليه بأنه القاهر . . .

وحالما انتهت من كلامها ، غادرت الكنيسة وهي ترتعش فزعاً وترتعد فرقاً ، وتتوقع أن ينقض عليها زوجها فيبطش بها . . ولكنه لم يتعقبها أو يهجم عليها . . بل جمد في مكانه ، وقد جف لسانه ، وزلزل كيانه ، وطاشت سهامه . . وعلق يتبعها ببصره وهو شارد اللب ، فاغر الفم ، مسلوب الإرادة ، مشلول الحركة ، كمن يجثم على صدره ضاغوط لا يقدر معه أن يتحرك . . .

واستقلت العربة وأوعزت إلى الحوذي أن ينطلق بها إلى البيت . . فبغت الرجل واستحوذت عليه الحيرة ، بيد أنه لم ير محيداً عن أن يمتثل للأمر ، فألهب ظهور الجياد بسوطه ، فمرقت تسابق الريح ، كأنها تشارك سيدتها في هلعها وارتياعها . . .

- ٢ -

غربت الشمس وحان موعد العشاء ، وأحست الكونتس كما يحس محكوم عليه بالإعدام وهو ينتظر ساعة التنفيذ . . ولبثت تذهب وتجيء في مخدعها ، مطرقة الرأس تفكر فيما يكون من أمرها وأمر زوجها . . وانتابتها الهواجس وطافت في مخيلتها الوساوس ، وملأت عليها خواطرها المكان ، فأظلمت الدنيا في عينيها وتولاّها الجزع والفزع . . ماذا يفعل؟ هل يقتلها؟ أم هل ينكل بها ويعذبها ، هذا

الظالم الذي لا يتورع عن اجتراح أبشع الجرائم؟ ! لم تسمع حركة فـالبيت مخلد إلى السكون ، والصمت ضارب بجرانه ، والهدوء منسدل السجوف . . إن الساعة تدق الثمانية . . وها هو ذا الخادم يقرع الباب خفيفاً لينبئها بأن الكونت وبنيه في الانتظار . .

فحدثتها نفسها بوقوع الشر ، وأصابها روع شديد ، وأوجست خيفة من النزول بلا سلاح تدافع به عن نفسها إن رام بها سوءاً . إنها ابتاعت منذ أسبوعين مسدساً صغيراً وادّخرته لهذه الساعة العصيبة ، فلِمَ لا تخفيه في طيات ملابسها لتلجأ إليه إن أعوزتها الضرورة؟

ولكنها عدلت عن حمله في اللحظة الأخيرة ، ونزلت الهويناء .

وما كادت تلج ردهة الطعام حتى قام الكونت جرياً على عادته فحياها بإحناءة طفيفة ، ثم عاد إلى مجلسه بعد أن أخذت مكانها من خوان الطعام .

وكان الأب مارتن رائد الفتيان الثلاثة يجلس عن يمينها وبجواره تلامذته ، وجلست الآنسة سميث مربية الفتيات الثلاث معهن عن يسارها ، أما الوليد السابع فقد تخلفت به مرضعته في غرفته الخاصة . . .

ولـمّا بارك الأب مارتن الخبز وشكر الله وحمده وأثنى عليه ، وأقبل الجميع على تناول الطعام ، لم يتسن لها أن تخفي قلقها ووجلها ، فآلمها ارتياعها والتياعها ، وظلّت مطرقة برأسها مغضية طرفها حتى تتجنب نظرات زوجها المضطرمة المتوعدة ، ونظرات أولادها المتسائلة المستفهمة . . .

وتفرّس الكونت في وجوه أولاده ، وأدار عينيه فيهم ، ودقق النظر في ملامحهم وأساريرهم ، كأنه يبحث عن ضالته المنشودة بينهم .

ولـمّا طاش سـهـمـه وضـاق ذرعه وفـقـد اتزانه أفلتت من فـمـه آهة حبيسة ، وما عتّم أن دفع بيده كأس النبيذ ، فاندلقت الخمرة ، وسقط الكأس فتحطّم . . .

أجفلت الكونتس كالملدوغ ، وتلفّتت يميناً وشمالاً ، ثم اختلست إليه النظر فتلاقت عيونهما في معركة حامية الوطيس لا هوادة فيها ولا لين . .

ودهش الأب مارتن من هذا التوتر المستفحل أمره ، ونبأه حسه بوقوع الخلاف والتنافر ، فرأى أن يمخض الحديث ، ففي الأحاديث شجون وفيها ما يلين الشدة ويطفئ نار الحدة ، ويفسح في المجال للتفاهم ، فلا يتسع الخرق ولا تزداد المنابذة . . ولكنه أخفق في مسعاه ، وخاب في ملافاة الشر ، فقد اقتضب الكونت إجابته ، كأنه يؤثر الصمت على الكلام . . وجاهدت الكونتس ليكون كلامها رصيناً ولهجتها هادئة ، ولكن لسانها تلعثم وصوتها تهدج ، وفشلها كان ذريعاً . . .

وما لبث الكونت ، وقد ضاق صدره وعيل صبره ، أن مال على الخوان وقال لها :

ـ أولادك أكبادك . . أوتقسمين على رؤوسهم بأنك لم تكذبي ولم تنطقي بالإفك والبهتان؟ !

فترددت كأنها أحجمت ، وما عتمت أن نظرت إليه بعينين مشتعلتين بنار الحقد وقالت وهي ترفع يديها فوق رؤوس أولادها :

ـ يمين الله أني توخيت الحقيقة ولم أفه بالكذب !

فغلى مرجل الغيظ في صدره وقد برح الخفاء وحصحص الحق ،

وزأر زئير وحش جريح ، ونهض واقفاً فركل الكرسي بقدمه ، وغادر ردهة الطعام وهو لا يلوي . . .

فتنفست الكونتس الصعداء . . تنفست كمن ارتفع عن صدره كابوس مريع . . تنفست كما يتنفس إنسان سرّي عنه بعد المشقة والعناء . . وقالت تطمئن أولادها الخائفين :

ـ ليفرخ روعكم أيها الأعزاء ، فالدنيا دار شقاء ، وقد حاق بأبيكم مصيبة سوف يبرأ منها قريباً . .

ثم التفتت إلى الأب مارتن فشرعت تجاذبه أطراف الحديث ، ورافقت أولادها بعد ذلك إلى قاعة الاستقبال الخاصة بهم ، فأحاطوا بها إحاطة الهالة بالقمر ، وأمطروها بوابل من أسئلتهم الساذجة ، وشرع الكبار منهم يقصون على مسامعها ما يداعب رؤوسهم الصغيرة من آمال وأحلام . . ولما حانت ساعة النوم طبعت على جبين كل منهم قبلة المساء وقصدت إلى مخدعها . .

وانتظرت زوجها وقد اعتدّت للأمور عدتها ، وعوّلت على الدفاع عن نفسها حتى الرمق الأخير . ولكن الساعات تصرّمت وولّى الهزيع الأكبر من الليل ، وتصدع الظلام عن نور الفجر ولم يجيء زوجها . .

فأوت إلى فراشها واستغرقت في سبات ثقيل تخللته الأحلام المزعجة المفزعة . .

واستيقظت من نومها في ساعة متأخرة ، فأحضرت لها وصيفتها شراب الشاي وناولتها رسالة من زوجها ، فلمّا فضتها ، علمت منها أن زوجها كره البيت وكره المقام فيه ، فابتعد عنه بعد أن أمر وكيله أن يعطيها كل ما تحتاج إليه من المال !

- ٣ -

انتهى الفصل الثاني من المسرحية ، فنزل الستار بين ضجيج الإعجاب وهتاف الاستحسان ، وأضيئت الأنوار ، فوقف الرجال المزدحمة بهم القاعة في الممرات ، ورفعوا أبصارهم تلقاء أصحاب المقاصير الحافلة بالغيد الفاتنات ، المزدهرة بالوجوه الوسيمة ، الزاخرة بالحسان الجميلات المتحليات باللآلئ والماس والجوهر .

وكنّ بما أضفينه على وجوههن ، ومناكبهن العارية ، من المساحيق والمعاجين ، وما زيّن به آذانهن من الأقراط الزمردية الخضراء ، وما قلدن به أجيادهن من العقود ذات الأحجار الكريمة البراقة ، وما شبكن به شعورهن من الدبابيس الماسية المتألقة ، أشبه بنور الزهر الذي تفتحت أكمامه وانشقت براعمه .

ووقف الصديقان يتفرسان في هذا الجمال المنشور كالدر المنثور ، ووجّه روجير نظر صديقه برنارد إلى إحدى الجميلات وقال :

ـ انظر إلى تلك الزهراء المشرقة الوجه . . إنها الكونتس دو مسكريت زينة المجتمعات ، وفاتنة پاريس ، وأجمل غوانيها التي تغنى بحسنها وجمالها الرجال . .

فنظر الآخر إلى مقصورة الكونتس فشاهد النضرة والحسن ، ووقع بصره على وجه بلون العاج المموّه بالذهب ، أفرغ في قالب من قوالب الجمال الإغريقي الرائع النادر المثال . . وازدان رأسها بإكليل من الماس ، لمعت حباته في شعرها الحالك السواد ، كما تلمع النجوم الصغيرة في عتمة الليل . . . .

والتفت إلى صديقه وقال متسائلاً :

ـ كم تبلغ من العمر هذه الغادة؟

فأجابه روجير :

ـ لقد عرفتها طفلة صغيرة ، ورأيتها شابة مكتملة تزج بنفسها في الوسط الراقي . . وأظنها تناهز ستاً وثلاثين سنة . .

ـ وَيّ ! أحقاً ما تقول؟

ـ أجل . . ولها من الأولاد سبعة .

ـ لا . . لا . . لن أصدق !

ـ وجميعهم على قيد الحياة . . فإنها برّة بهم ، تعطف عليهم وتحبهم وترأمهم . وكثر ما تردّدت على منزلها الهادئ الجميل ، فوجدتها مع أطفالها تحوطهم برعايتها ، وتسبغ عليهم من فيض حبها وحنانها ما يجعلني أعجب بها وأحترمها وأكبرُها . . وعلاوة على ذلك فهي فوق الشبهات لا يتطرق إليها الشك ولا يرتاب باستقامتها وشرفها مخلوق . .

ـ ولكن زوجها الكونت كما تعرف ويعرف الجميع غريب الأطوار شاذ الطباع !

ـ يغلب على الظن أن حدثاً عائلياً مبهماً طرأ على حياتهما ، فحوّل الزوج عن زوجته ، مع أنه كان مثال الرجل المخلص لزوجه ، الوفي لأولاده . . وكان قبل أن ينقلب به الدهر ظهراً لبطن يثور لأقل سبب ويهيج لأتفه علة . . ولكنه منذ أهمل بيته وانصرف عن ولده وزوجه ، فترت همته وانفثأت حدته ، ونزع إلى اللهو ، وأقبل على الحياة العابثة الماجنة ، ينهل من ينابيعها فلا يرتوي ، ويغرف من مناهلها فلا تنقع له غلة ولا يشتفي . . إن وراء الأكمة ما وراءها ، وما

هذا الانقلاب السريع إلاّ نذير لمصير مريع ينتظره ويتربص به الدوائر . . والأرجح أنه مُني بكارثة أودت بسعادته الزوجية ، فتداعى وانهار ، واستسلم لليأس ، فنخر جسده وعاث فيه فساداً ! انظر إليه كيف أنه اكتهل قبل الأوان . . وهرم قبل أن يعجزه الزمان . .

استمر الصديقان يخوضان في سيرة الكونت ، فحدسا بأن تباين الخلق وتفاوت السن واختلاف المشارب ، هي الباعث على ما طرأ عليهما من النفور ، وما عرا أواصر الزوجية من التفكك . . بل هي الزند الذي اقتدحت منه نار الحقد والبغضاء في كلا الصدرين . . .

قال روجير الذي لم يرفع عينيه عن وجه الكونتس :

ـ إنني لأكاد أكذب سمعي . . هذه الحسناء الهيفاء المشرقة السنا ، تنجب سبعة أولاد ، ولا يذوب جمالها ولا تذبل نضرتها ولا يذوي حسنها ولا يزول رواؤها ولا تتلاشى نفحة رياها التي تعبق من ثناياها وتضوع كما يضوع النشر الطيّب الذكي؟ !

ـ ولعلّك تزداد دهشاً واستغراباً متى علمت أنها ولدتهم في مدة إحدى عشرة سنة . . ثم وضعت حداً لهذا العذاب منذ ست سنوات ، وكانت في الثلاثين من عمرها . .

ـ إني أرثي لها !

ـ وماذا يوجب الرثاء؟

ـ فكّر يا عزيزي . . فكّر ! أحد عشر عاماً مضت على هذه الحسناء لا عمل لها إلاّ إنجاب الأطفال والاعتناء بهم وتربيتهم . . فقاست الأهوال جراء ذلك وذاقت مرّ العذاب . . وضحت بشباب نضير أثير ، وحسن غزير ، وأمل حلو جميل ، على مذبح السنّة المقوتة المذمومة ـ

سنة البقاء والتناسل والتكاثر!

ـ وهل من سبيل إلى تنقيح السنن؟ إن الطبيعة فرضت هذا الواجب على المرأة!

ـ ولهذا أجاهر غير هيّاب ولا وَجِلٍ بأن الطبيعة ظالمة عاتية أرجعتنا القهقرى وأدنتنا من الحيوانية الخسيسة الدنيئة . . وثق بأن الإنسان لم يجد شيئاً وفق أمانيه وميوله في هذا الكون . . كما أنه لم يعثر على أمر واحد لازم له ضروري لبلوغ مثله العليا . . بيد أن العقل البشري القادر الثاقب المتقد ذكاء فعل الأعاجيب وصبغ حياته بألوان جمة متنوعة من ألوان السعادة والشقاء، واللذة والعناء، والفرح والترح، حبّبت هذه الحياة إليه وصيرتها جميلة في ناظريه، وجعلته يفرق من فراقها ويشفق على ذاته من مبارحتها . . . ثم طفق بما أوتي من نشاط في خياله الخصيب يتغنى بالخلق والوجود ويترنّم بمحاسن الخليقة وجمالها، ويطريها ويمتدحها كما يفعل الشعراء، ويتخذ منها مثله العليا كما يفعل أهل الفن . . ويفسرها كما يفسرها أصحاب العقول الراجحة، والعلماء الذين لا يسلمون من الخطإ، والذين لا يصعب عليهم استنباط الأسباب والأعذار، والجمال والكمال والسحر الخفي الغامض المبهم، في الظواهر الطبيعية كافة . .

إن العالم يضيق بالكائنات الغليظة الخشنة التي ترتع في جوفها الجراثيم والطفيليات، والتي تستحيل بعد قضاء جانب من أعمارها في انتهاب اللذاذات الحيوانية، إلى مخلوقات واهية عاجزة تزيدها الشيخوخة وهناً على وهن . . . لقد كوّنت هذه المخلوقات لتتعاون على الحيلولة دون الفناء والاندثار، بطريقة كريهة ممجوجة . . ثم لتموت كما تموت الحشرات السريعة الزوال ـ وأتمسك بقولي، لتتعاون

على الحيلولة دون الفناء والاندثار بطريقة كريهة ممجوجة ـ فهل يوجد أخس وأحط من هذه العملية البشعة الدميمة التي يخلد بوساطتها الجنس البشري؟ والتي يثور ضدها كل ذي إحساس مرهف وعاطفة مسقولة ومخيلة رقيقة؟!

وما دامت جميع الأعضاء الحاسة تؤدي عملين وتخدم مأربين، فلماذا لم يقع الاختيار على الأعضاء الساكنة الخالية من النزوات الحادة المضطرمة، فتناط بها هذه المهمة السامية الرفيعة؟

فالفهم الذي يغذي الجسم بالطعام يقوم بوظيفة الكلام، وينشر الفكر على الأنام.. والجسد الذي ينعش ويحيي نفسه بنفسه، تُبلغ الآراء وتذاع من طريقه.. وحاسة الشم التي يتسرب منها الهواء إلى الرئتين، تمتع الدماغ بالعرف الذكي والنشر الطيب، وبشذا الورد وعبير الزهر، وبرائحة البر والبحر.. والأذن التي تمكننا من التفاهم مع الغير تيسر لنا كذلك ابتكار الأنغام، والتحليق مع الأحلام، والتمتع بالهناء والسعادة، وباللذة الروحية والجسمانية، بوساطة الصوت..

ومع أن الرجل حرم ـ أو حرمته الطبيعة ـ من أن يرتفع ويعلو ويسمو، ويضفي على علاقته بالمرأة شيئاً من الجمال الروحي المنبثق من المثل العليا، إلاّ أنه عثر على الحب، وزين هذه العاطفة بما شملها به من زخرف الشعر والغزل، والرسم والإطراء والتشبيب، حتى أصبحت المرأة عرضة لنسيان هذا الاتصال الشائن الشاذ الذي لا تجد مندوحة من الرضوخ إليه..

ولا شك أن أولئك الذين تمسكوا بالغريزة الحيوانية ولم يسعوا إلى تهذيبها، أو أولئك الذين عجزوا عن خداع أنفسهم، قد خلقوا الرذيلة

وابتدعوا الدعارة وأتاحوا الفجور ، وهذه وأيم الحق إحدى طرق التغرير والتضليل ، والادعاء بأن لا بد مما ليس منه بد ، مع أن الإنسان ، بما وهب من توقد البصيرة ، قادر على التغيير والتبديل والتهذيب والتجميل ، كما فعل بكل أمر من أمور حياته !

وما الإنسان العادي إلاّ مثل الحيوان ، يضع الأولاد كما يضع وحش جمعه القانون بوحش آخر من جنسه !

انظر هذه المرأة التي تخفق القلوب لدى مرآها . . انظر إلى هذه المرأة التي ليست كأحد من الناس . . أليس من العار أن تضام هذه الحسناء التي خلقت لتحب وتعشق؟ فتعاني آلام الحمل سنين متوالية ، وتقاسي برحاء الولادة والوضع سبع مرات ، لأن زوجها الشره يحب أن يكثر ذريته حتى يضمن من يرثه ويحمل لقبه ويخلد اسمه؟ ! أليس من العار على هذا الرجل المتوحش ، الذي حبته الطبيعة بمثل هذه الدرّة اليتيمة ، أن يجفوها بعد أن أنجبت له سبعة أولاد ، وأن ينصرف عنها وينشغل بسواها من النساء ، ولا يتورّع عن ارتكاب الموبقة والرذيلة؟ !

وفي تلك اللحظة أطفئت الأنوار وارتفع الستار عن المشهد الثالث من مشاهد المسرحية فرجع الصديقان إلى مكانيهما . .

- ٤ -

استقل الكونت والكونتس عربتهما بعد انتهاء الحفلة ، فانطلقت الجياد تعدو في طريق تكاثف فيه الضباب ، فزاد من عتمة الليل ، حتى اضطر الحوذي ، الذي خفيت عليه المعالم ، إلى التخفيف من سرعة الجياد ، لكي لا تضل الطريق فتسقط في الأخاديد أو تعثر بالصخور أو تصطدم بالأشجار . ومضى زمن طويل قبل أن يلتفت

الكونت إلى زوجته فيقول :

ـ غبرييلا؟

ـ ماذا تريد؟

ـ ألم يحن الوقت لوضع حد لهذا الأمر؟

ـ أي أمر؟

ـ الأمر الذي أحزنني ! الأمر الذي نالني منه الحسرة والندامة !

ـ ماذا بودك أن أفعل ، وقد سبق السيف العذل؟

ـ أطلعيني على الحقيقة . . اكشفي عن اسم الولد الذي لا تجري في عروقه دمائي !

ـ هذا مستحيل !

ـ حنانيك غبرييلا ! إنني أتقلّى على نيران الشك المتأججة الضرام . . وأتحرق على سعير الوجد المتلظي . . فكري في حالي قليلاً لتعلمي كم جاهدت وكابدت .١. فما من مرة اجتمعت بهم فيها ، إلاّ وشعرت بقلبي يمزقه الشك وتمزعه الريبة . . قولي اسمه . . انطقي بهذا الاسم ولا خوف عليك ولا تثريب عليه . .

ـ لا . . لا . . لن أفعل . . لن أبوح بسرّي . . لن أطلعك على باطن أمري . .

ـ أناشدك الله أن تشفقي يا غبرييلا . . لقد تحمّلت ثقل هذا الهم سنين طويلة ، فجهدني الفكر الممض ونهش كبدي الحزن المرمض ، وعذبني الشك حتى أصبحت موزّع البال مضطرب الجنان . . من هو؟ من هو؟ هذا السؤال الحائر هو بمثابة السيف القاطع الباتر المسلط على رقبتي . .

ـ تألمت إذاً كما لم يتألم إنسان ، واصطليت بالبلية ، وذقت وبال ظلمك؟

ـ وآلم الألم الذي قاسيت هو العيش بقربك . . وأكثر منه ، شعوري بأن من لا يمتّ إليّ بصلة الرحم يقف حائلاً بيني وبين حبي للآخرين . .

ـ وهكذا مرّت عليك أيام ضيق وضنك لم تذق في خلالها طعم الراحة ، ولم تكتحل عيناك بالكرى؟ !

فأجابها بصوت متهدّج :

ـ ألم أخبرك بأن عذابي أشد نار الجحيم أبردها؟ وهل كنت أمكث معك تحت سقف واحد لو لم أحب أولادي؟ هل كنت أرضى بالذل والهوان لو لم أفضلهم على نفسي ، وأوثر سعادتهم على سعادتي وراحتهم على راحتي؟ لقد كرست حياتي لأولادي ، وشعرت نحوهم كما كان الأجداد يشعرون نحو أبنائهم . إنني لا أزال أعيش بغريزة العصر المنصرم ، وأعمل بسليقة زوج من رجال الماضي ، يحب السيادة والتملّك . . ولا يسعني إنكار غيرتي . . فقد جعلت مني رجلاً غيوراً ، لأنك امرأة من غير جنسي أو من غير طينتي وجبلتي ، ولأن طبيعتك مغايرة لطبيعتي ، وأهدافك لا تشبه أهدافي . أنا رجل من الماضي كما قلت ، لهذا لن يغرب عن بالي مهما حييت اعترافك الهائل الرهيب ، ولن تمّحي آثاره العميقة من قلبي الدامي . . ولقد ابتعدت عنك بمحض إرادتي منذ ذلك اليوم . . ابتعدت بجسمي وروحي بالرغم من بقائي بجوارك . لم أفكر في قتلك ، لأنني إن تخلّصت منك فقدت الأمل ، وطوي معك السر الخفي . .

وأمسكت على مضض ، وانتظرت بصبر وجلد ، وتألمت أكثر ممّا تتصوّرين ، ولكن ظُلمة ليلي تكاثفت وحيرة عقلي وقلبي تضاعفت ، لأني بالرغم عن حبي لأولادي ، لم أعد أجسر على محضهم هذا

الحب . . ولم أعد أدنيهم أو أضمهم إلى صدري حتى لا أقبلّهم ، ولم أعد أرفعهم بين يدي أو أضعهم على ركبتي ، حتى لا يهتف بي هاتف عميق الصوت : هذا هو . . هذا هو . .

وكانت معاملتي لك في الأعوام الستة الماضية حسنة ، كنت مؤدّباً معك ، كنت نبيلاً في مخاطبتك ، أبش في وجهك وأحترمك ولا أبخل عليك بحريتك التي ضننت عليك بها قبل ذلك . . فإلام التمنّع والمماطلة ، وحتّام التعذيب والتسويف؟ أطلعيني على الخبر اليقين ، وأعدك بل أعاهدك بأن أظل الرجل اللطيف المهذب الدمث . . !

وتمكّن بالرغم من عتمة الليل وظلمته أن يلمح ما طرأ على زوجته من التأثر ، فأدرك أن قناتها بدأت تلين ، ورآها فرصة لا تُترك ، فتابع الحديث قائلاً :

ـ إن ما ذكرته من حالي هو قليل من كثير يا غبريلا . . لقد وعدتك فلا تخشي سوءاً ، وثقي بأني لا أنطق بكلمة وأبطن ضدها . .

فتأوهت الكونتس وأجابته قائلة :

ـ لم أرتكب إثماً ولم أقترف فاحشة . . إن ما قصصته عليك كان على سبيل الخَتْل ، لأني وقد بلغت روحي التراقي ، سوّلت لي النفس أن أصدّك عني ، فأتحرر من ربقتك ، وناجاني الفكر وأفتاني أن أعوذ بهذه القصة ، وألصق بنفسي هذه الكذبة ، فكذبت الله فكنت مجرمة ، وحلفت على رؤوس أولادي وكنت مجرمة . . . فالقصة بدعة أعوزتني الحاجة إليها ، وهي من اختلاقي وتلفيقي . . فجميع أولادك قطعة من نفسك ، لأني ما انحرفت عن جادة الرشد والشرف ، وما زغت عن طريق الحق والاستقامة !

فقبض على يدها كما فعل في ذلك اليوم منذ ستة أعوام ، وهتف قائلاً :

ـ أحقاً ما تقولين؟ !

قالت :

ـ ما نطقت الآن ببهتان . . إنها الحقيقة . . .

فنظر إليها وقد تنازعته الهواجس وتجاذبته الأفكار ، ثم زفر زفرة ألم وعذاب ، وقال :

ـ ما أدراني أنك لا تأفكين الآن؟ لقد بذرت في قلبي بذوراً جديدة من الشك . . فمتى أذلت ومكرت؟ اليوم وأنت تنفين ، أم البارحة وأنت تعترفين؟ كيف أستطيع تصديقك؟ كيف يتسنى لرجل أيّاً كان أن يصدق امرأة تقسم اليمين ، ثم تزعم بأن ما قالته كان تخرّصاً وكذباً؟ ! كنت أؤثر أن تقولي : جين أو آرثر !

ووصلت العربة فترجّل منها الكونت ، وقدم لزوجه ساعده فنزلت وسارت بجانبه حتى دخلا البيت وولجا قاعة الاستقبال . ولـمّا استتب بهما المقام قال لها :

ـ من أين لي أن ألمّ بالخبر اليقين؟ لطالما تضرّعت إليك أن تتكلمي ، فكنت تعرضين عني كأن قلبك قُدّ من صخر . . ولبثت السجف منسدلة على هذا السر ، فلم أستطع اختراقها ولم أستطع النفاذ منها . . وفي هذه الليلة زعمت أن قصة الخيانة باطلة لا أساس لها من الصحة ، وأن الظروف أوحت بها إليك . . وأن سورة الحقد التي اضطرمت نيرانها في قلبك حثتك على تلفيقها ، فكيف يمكنني تصديق كلامك؟ كيف؟ !

فأجابته بلهجة تشف عن صراحتها وصدق طويّتها :

ـ لو لم أزعم قصة الخيانة لكنت الآن أمّاً لأربعة أطفال آخرين . .

فصاح مغضباً :

ـ لا يجدر بك أن تجاهري بمثل هذا الكلام! هل تكرهين أولادك؟ هل تنفرين منهم؟

فقاطعته قائلة :

ـ لا . . لا أكره أولادي . . ولكني أعجب منك كيف تتوقع أن أعطف على أولاد لم أحمل بهم ولم ألدهم؟! أمّا أولادي الذين ولدتهم فإني أحبهم وأفتديهم بحياتي . . واعلم أننا نحن النساء المنتميات إلى الطبقة الراقية المثقفة تأبى أن تكون مخلوقات مهمتهنّ إكثار النسل وتموين الكون بالخلق، حتى يعمر فلا يفنى الجنس البشري . . .

ولـمّا أتمت كلامها تأهبت لتذهب، ولكنه أمسك بيدها وقال :

ـ لا تذهبي يا غبرييلا .

قالت :

ـ ماذا تروم؟ لقد كشفت لك عن الحقيقة التي نشدتها سنين طويلة . . وأعود فأؤكد لك بأني لم أهدر شرفك ولم أثلم عرضك . . فانف ريبك لقد صدقتك القول .

قيّد الكونت نظره في وجه زوجه . . إنها جميلة . . إن عينيها الرماديتين جميلتان . . إن شعرها الأسود سواد الليل جميل . . كل شيء فيها جميل . . لقد أبدع المبدع في خلقها وأجاد في سبكها . . وشعر . . شعر ببصيرته وحسه وبصره بأن هذا المخلوق الرائع النادر المثال لم يوجد لتخليد الجنس فحسب، بل وجد لأنه الخلاصة التي أسفرت عنها الرغبات والمآرب المعقدة، التي تجمعت فينا منذ أجيال،

والتي شاء لها الخلّاق أن تنحرف عن الغاية الفطرية السامية ، فهامت على وجهها وضلّت سبيلها ، وهي تنشد جمالاً رمزياً ناقصاً لا يرى ولا يلمس . . إن الدنيا لا تخلو من هاته النسوة اللاتي يزهرن فقط في أحلامنا ، وقد تزيّن بجميع الصفات الخيالية والشعرية ، وتحلين بجميع ما تطلبه الحضارة من الرفاهية والترف والدلال والجمال والسحر ، التي يجب أن تحيط بهذا الكائن الحي ، أو هذا النصب الرائع الذي ينير الحياة ويضيئها . . .

ظل الكونت واقفاً يحدق النظر إلى امرأته ، وقد اختبل عقله وأذهله اكتشافه المتأخر للغموض والإبهام الذي يعتور كل شيء ، وكل إنسان ، وكل عاطفة وإحساس . . وتساءل بارتباك : لم لا يهتدي إلى سبب غيرته ، لم لا يعرف كنهها؟ وقال أخيراً وقد رأى في وجهها ما ينم عن صدق طويتها :

ـ أصدقك وأؤمن بجميع ما قلت ، لأني أشعر بأنك ما زغت عن المحجة ، وأنك لم تكذبي عليّ الليلة . . . أمّا في السابق فقد داخلني الريب فيما سمعت من حديثك ، ودار بخلدي أنك افتريت عليّ كذباً . .

فبسطت له يدها وقالت :

ـ فنحن صديقان إذاً !

ـ أجل صديقان . . أشكرك يا عزيزتي غبرييلا . . .

ثم غادرها ومضى ، وأخذ يتلفت وراءه ويرمقها بإعجاب وتقدير . . إنها لا تزال جميلة رغم ما عانته من الشدائد والمصاعب ! واختلج في صدره شعور لا عهد له بمثله ـ شعور غريب لم يستيقظ من سباته في صدره إلاّ الليلة . . ولعلّه أعظم من أي حب شعر به . . بل لعله أشد وأعنف من أي حب عرفه الناس !!

نجوت

اندفعت المركيزة دي ريندون الشابة داخلة وهي تضحك وتقرقر، وقد دمعت عيناها، وتضرج خداها، واهتز كتفاها؛ كما فعلت تماماً عندما بدهت صديقتها بقصة خيانتها لزوجها المركيز، يوم جشمت خفر عهده مرة فحسب ـ عقاباً له على سخفه وشططه وغلوّه في شكه وغيرته . .

فرمت البارونة دي غرانغيري الكتاب من يدها، وصعّدت في وجه صديقتها نظرة حب وولاء، ولم تستطع أن تتمالك نفسها، فجارتها في قهقهتها، وما عتمت بعد قليل أن سألتها بلهجة تشف عن لهفتها وتشوقها إلى استطلاع خبرها :

ـ ماذا بك؟ وعلام ضحككِ؟

ـ أواه يا عزيزتي ! يا عزيزتي ! إنه مضحك . . مضحك . . ولكنني نجوت . . نجوت !

ـ وماذا تقصدين؟

ـ نجوت . . أجل نجوت !

ـ نجوت ! وممّن؟

ـ من زوجي يا عزيزتي . . نجوت وسلمت ! وغدوت حرة طليقة !

ـ وكيف؟

ـ كيف؟ بالطلاق !

ـ وهل خلاّك من القيد بمثل هذه السرعة؟

ـ لا . . لم ينته كل شيء بعد، ولكن لديّ ما يسمه بميسم الخيانة، ويصمه بالتجرد من الشرف . . فسوف أستعين بشهود عيان ـ شهود

رأوا وسمعوا ـ لأثبت أمام الملإ تلبسه بالفعلة الشنعاء! بالفعلة الشنعاء التي تدينه وتبعده عني!

ـ تباً لك يا عزيزتي! لقد استثرت فضولي، فقصي عليّ خبرك، وأطلعيني على دخلتك.. فهل خانك حقاً؟

ـ أجل! أو بعبارة أكثر دقة.. لا ـ أجل ولا ـ بيد أني أملك من الأدلة ما لا طاقة له على دحضها!

ـ وكيف تدبرت الأمر؟

ـ كيف تدبرت الأمر؟ ما أسهله من تدبير! أصيخي السمع وسوف تطلعين على ما يزيل دهشك وشداهك..

أنت لا تجهلين ما جبل عليه زوجي من الأثرة والفظاظة والإسراف في الغيرة والغلو في الريبة، حتى إني أصبحت أكرهه وأضيق به ذرعاً. وقد أيقنت في النهاية بأنه من المحال دوام هذه الحال، فعولت على السعي إلى النجاة، وفكرت في الوسيلة، وحاولت أن أستدرجه إلى الاعتداء عليّ بالضرب، ولكنه أحجم. وحاولت أن أكرهه على التشهير بي، ولكنه لم يجرؤ!

كان يقلب صفاء حياتي كدراً.. وكان يرمض نفسي بعناده وصلابته وتشبثه.. وكان تناقضه العجيب شر ما لاقيت من شذوذه.. فهو يقسرني على مغادرة المنزل ساعة لا أشعر برغبة التنزه، وهو يضطرني إلى المكث ساعة أحن إلى الانفلات، وأتوق إلى قضاء نهاري في التجوال وزيارة الأتراب!

والغاية يا عزيزتي تبرّر الوسيلة؟ فقد طفقت أستطلع أخباره وأبحث عن أسراره، حتى علمت بأن له محظية يخلص لها الود ويؤثرها

على سـواها من النسـاء . . ولكنني علمت أنه حريص غـاية الحـرص على إضفاء السرية التامة على علاقته هذه ، وأنه مهر في ذر الرماد في العيون ، حتى يبقى في مأمن من المؤاخذة . .

فماذا فعلت؟ هل تحدسين؟

هرعت إلى شـقيـقي ، فرجـوت منه أن يحـصل على رسم لخليلة زوجي . فلم يخيب شقيقي رجائي ، واضطر لكي يفوز بأربه ـ بأربي أنا ـ أن يقضي ليلة ممتعة مع محظية زوجي ، وكلفه ذلك مبلغاً طائلاً من المال ، غير أنه أتاني بالرسم المنشود!

ـ أي أنه لم يفز بالرسم إلاّ بعد اضطراره إلى حيازة الأصل!

ـ نعم! وكـان مسروراً راضياً ، فإنها وأيم الحق باهرة الجمال رائعة الحسن ؛ وبجـانب ذلك فلم يكن لـه مندوحـة عن التـقـرّب منهـا ، والتودّد إليها ، وقضاء ليلة في مخدعها . . فقد طلبت منه وصفاً دقيقاً شـاملاً لقـدّها ـ من نحرها إلى أخمص قـدمـيـهـا ـ لصـدرها ولون إهابها . . لعلامات مميزة . . لإشارات فارقة . . أتفهمين؟

ـ كلاّ ، إنني لا أدرك تماماً ماذا تعنين!

ـ أف لك يا عـزيزتي! الأمـر سهـل هين . . فـإنني عندما حظيت بالصـورة والوصف الدقـيق ، قـصـدت إلى رجل يـتـعـاطى مـخـتلف الأعمال ـ رجل من أولئك الرجال الذين يتوفر لديهم الاستعداد لتأدية جـمـيع الخدمـات ، ما دام الربح الجزيل مضـموناً . . أتفهـمين الآن؟ وطلبت من رجل الأعـمال هذا ، بعد أن قدمت له صـورة الغانية ، أن يجد لي وصيفة تشبهها في القوام والملامح ، على أن تعمل في بيتي ثلاثة أشـهر ، فأنقـدها عشرة آلاف فـرنك . . فدهش الرجل وقـال : «وهل ترومين فتاة لا تسـتـثيرها الوعـود الخلابة ، والكلمـات المنطوية

على الآمال والأحلام؟» .

فاحمر وجهي وأجبته متلعثمة : «أريدها أمينة لي صادقة في خدمتي . . قوية الشكيمة ، قوية الإرادة !» .

فاستتلى متسائلاً : «أمّا بخصوص الأخلاق؟ . . .» .

فلم أجرؤ على الرد عليه ، بل هززت رأسي . فأدرك أني أريدها غادة لعوباً مستهترة لا تبالي بشيء ، بل تتسنّم ظهر المخاطر ، كما يتسنم الفارس متن جواده ! بيد أني أدركت فجأة أنه شك وارتاب ، فاستدركت أقول : «أواه يا سيدي ! إنها من أجل زوجي فحسب . . أريد أن أضبطه منغمساً في فجوره غارقاً في فاحشته !» .

فاستغرب الرجل في الضحك حتى دمعت عيناه واحتقن وجهه ، ولم يعتم ، بعد أن هدأت سورة ضحكه ، أن دنا مني فقبل يدي باحترام وإكبار ، وأنهى إليّ بأنه سيرسل لي ضالتي بعد أسبوع واحد ، وأنه لن يأخذ مني مالاً قبل نجاح المهمة . . وعلق بعد ذلك يفحص الرسم بعين الخبير المحنك ، ثم رفع رأسه وقال : «إنها كما تبدو لناظري حسنة الشكل ذات فتنة ودلّ . . فما هو نوع الطيب الذي تتعطر به ، وتضمخ به جسدها هل تعرفين؟» .

فشدهني سؤاله ولم أملك أن قلت : «لا أدري ماذا تعني يا سيدي؟» .

قال : «إن النشر الطيب ضروري لإغواء الرجل ، فالعرف الطيب يعيد إلى ذاكرته ما يرغمه على العمل ، والشذا الساطع يخلق نوعاً من الاختلاط في التفكير ، فتضطرب النفس وتجيش فيها الشهوة . . ومتى سنحت الفرصة لا يتورع عن انتهازها ولا يحجم عن قنصها ! ويخلق بك أيضاً أن تلمي بنوع الطعام الذي يؤثره على سواه في

خلال خلوته بمعشوقته، فتطهين له الطعام نفسه في اليوم الحاسم!» .

وغادرت الرجل وأنا أشد ما أكون فرحاً وانشراحاً . . فقد تعرفت أخيراً بالإنسان الذي يفهم من الإشارة ، ويدرك من الإيماءة ، ويعد لكل أمر عدّته . .

وبعد أيام ثلاثة قدمت إلى البيت فتاة ممشوقة القوام ، سوداء العينين ، حالكة الشعر ، ذات حسن يبهر وجمال يأخذ بمجامع القلوب ؛ وذات نظرة تمتزج فيها الحشمة بالجرأة ـ وهي نظرة الإغراء والإغواء التي تسلح بها الطبيعة بنات الهوى الفاتنات لاقتناص الرجال وإيقاعهم في حبائلهن!

وكانت متحفظة في حركتها ، تنظر إليّ بأدب واحترام وتهيّب ، وتنتظر مني أن أبدأها بالكلام . حتى إذا ناديتها : «يا آنسة!» ندّت من صدرها آهة طفيفة وقاطعتني قائلة : «لا . . لا . . يا سيدتي . . إن اسمي روز . روز فحسب!» .

فقلت لها : «أنت تعرفين ولا شك سبب مجيئك إلى هذا البيت يا روز؟» .

فقالت : «أجل يا سيدتي» .

قلت : «أرجو أن لا تشق عليك هذه المهمة المنوطة بك» .

قالت : «لا تقلقي يا سيدتي ، فسوف يكون هذا ثامن طلاق أضطلع بالسعي إلى تحقيقه!» .

قلت : «وهل يحتاج الأمر إلى وقت طويل؟» .

قالت : «هذا يتوقف على مزاج زوجك وطبعه ، فمتى رأيته وخلوت به ، استطعت أن أحدد لك الزمن!» .

«سوف تبصرينه عن قريب ، ولكنني لا أجد مندوحة من القول بأنه ليس بالرجل الظريف الحسن الشكل !» .

«لا أبالي بحسنه وظرفه ، لا أبالي حتى ولو كان أسود مثقوب الشفة !» .

فضحكت من قولها ، ولكنني شعرت بشيء غامض يحزّ في نفسي . . فهل كان ما شعرت به هو الغيرة والندم؟ ! لا أدري يا صديقتي ، إلاّ أني طويت كشحاً عن شعوري الغامض هذا ، وأعربت للغانية عن استعدادي لمساعدتها بكل ما تطلبه مني . .

قالت : «هل توصلت يا سيدتي إلى معرفة نوع الطيب الذي يؤثره زوجك ويفضله عمّا سواه؟» .

فقلت : «أجل ، إنه يسمى الفيربينا» .

«هذا حسن لأنني أستعمله كل يوم . أمّا محظية زوجك فماذا تستعمل من أنواع الملابس الداخلية؟» .

«إنها لا تستعمل الحرير بل تؤثر الأقمشة الناعمة الملمس المخططة بالأشرطة الدقيقة الأنيقة !» .

«فهي حسنة الذوق كما يبدو ، فالحريري أصبح شائع الاستعمال مبتذلاً ، تستعمله جميع بنات حواء !» .

وعاد زوجي بعد ساعة ، فلم تتحرك روز من مكانها ، ولم ترفع إليه بصرها ، ولكنه حدجها بنظرة الثاقب ـ وكان الشذا يعبق من ثناياها ـ فلمّا غادرت المكان وأفسحت لنا في مجال الكلام ، سألني زوجي عنها ، فأخبرته أنها وصيفتي الجديدة ، وأن صديقتي البارونة غرانغيري أرسلتها إليّ مع تحياتها وتأكيداتها بأنها مثال الأمانة والصدق

والإخلاص . .

فقال وهو يغمز بعينه : «إنها ذات خفر وحياء ، كما أنها ذات ملاحة وقسامة . .» .

«أجل يا عزيزي . . فهل حازت رضاك؟» .

«نعمَ المرافِقة هذه الفتاة ، فحافظي عليها !» .

شعرت بالفرحة تغمرني ؛ فها هي تقع في قلبه موقعاً حسناً . .

وفي تلك الليلة بالذات ، وقبل أن يستحوذ عليّ النوم ، همست روز في أذني قائلة : «في وسعي أن أعدك ببلوغ الأرب في غضون مدة لا تتجاوز الأسبوعين ، فقرّي عيناً ، فزوجك لين العريكة ، سهل الوقوع في الشرك !» .

«وكيف عرفت ذلك؟» .

«سألني عن اسمي . . وما سألني عن اسمي إلاّ ليسمع صوتي !» .

«بورك فيك يا عزيزتي ، واصلي سعيك ، وعجلي فيه قدر المستطاع» .

«اطمئني . . سوف أقاوم في الأيام القليلة المقبلة حتى لا أظهر بمظهر الفتاة السهلة الانقياد ، فأضرم بمقاومتي وممانعتي وتهربي رغبته ، وأوقظ غريزته ، وأثير شهوته ، فلا يستطيع كبت نزوته ولا ضبط أهواء نفسه !» .

وفي مدى أسبوع واحد تغيّر الحال ، فلزم زوجي البيت ؛ وشجعني على الخروج ، وحثني على زيارة صديقاتي . . وتعمدت أن أخلي له المكان ، فأكثرت من مغادرة البيت حتى يفعل في غيبتي ما يحلو له دون حسيب أو رقيب .

وفي اليوم التاسع ، وبينا روز منهمكة في نزع ملابسي عني ، قالت بصوت خفيض تجلّى فيه الروع والخشية : «انتهى الأمر يا سيدتي . . في هذا الصباح . .» .

فاقشعر جسدي ، وارتعشت كما يرتعش عصفور بلله القطر . . وشعرت بالقهر والذل . . ولعل المفاجأة التي جبهتني بها الفتاة صدمتني بعض الشيء . . إلاّ أني تغلّبت بعد جهد على هذا الإحساس الطارئ ، وأجبتها بلسان متلعثم : «وهل حان دوري يا روز؟» .

«أجل يا سيدتي ، وعليك الآن تتوقف خاتمة المأساة ؛ فمتى وأين وكيف؟ مري ، تجدينني أطوع لك من بنانك !» .

فأجبتها بعد تردد يسير : «ليكن ذلك في الساعة الخامسة من يوم الخميس !» .

«فسأصده عني إذاً حتى يحين يوم الخميس ، لأحيل منه كتلة متلظية من شوق وتحرق !» .

ولا جرم أنك تحدسين ما قمت به ، فقد طفت بوالدي وعمي ، ثم دعوت القاضي رابلث صديق زوجي ، ولم أخبرهم عما ستقع عليه أبصارهم ، بل أشرت عليهم أن يقتفوا أثري بهدوء .

وانصاعوا لي مشدوهين مبهوتين ، وتقدمتهم بحذر وحيطة ، حتى إذا دنوت من مخدع النوم دفعت الباب بعنف . . ورأيت زوجي ، ورآه أبي وعمي والقاضي . . .

ونظر إلينا زوجي نظرة معتوه فاقد الحجى ، وأدار طرفه فينا كأنه لا يفهم شيئاً ، أو كأن الأمر لا يعنيه في شيء ، ثم أطرق وذلّ وسكن !

ولكم كان منظره سخيفاً! لكم كانت هيئته تدعو إلى السخرية والرثاء! لقد ضحكت يا عزيزتي حتى خنقني الضحك.. وأغار عليه أبي يروم البطش به، ولكنني منعته عن ذلك، ورجوته أن يكبح جماح غضبه.

وأقبل الخادم بعد قليل، فجعل يعاون زوجي الخاثر على ارتداء ملابسه..

أما روز فقد تظاهرت بالخوف والحياء، وجعلت تبكي وتتأوه وكأنها تندب سوء حظها، وتتألم لمصير خليلها!

وما أكثر ما تألق جمالها في تلك اللحظة! ما أكثر ما كانت بارعة في أداء دورها! وإني أمحضك النصح فأشير عليك بأن تلوذي بها إن احتجت إلى أمر ما...

وعرض اليوم لي أن أتوجه إليك فأعلمك ما كان خبره، وأطلعك على ما أثلج صدري، وأطلقني من قيدي، وأنقذني من هذا الزوج الغشوم! فلتحي الحرية.. لتحي الحرية..!

ولم تلبث المطلقة الحسناء أن جعلت تدور في الحجرة وترقص بخفة وجذل، ولا تكاد تطأ الأرض من شدة ما دهم قلبها من النشوة والطرب..

واتبعتها البارونة اليافعة بنظراتها الحالمة الناعسة، وأمعنت فيها النظر، وما عتمت أن قالت لها بصوت عميق، وكأنها في شرود، تفكّر في أمر جلل خطير:

ـ كان أحرى بك أن تطلبي مني الحضور يا حبيبتي لأرى بأم عيني ما جرى!!

اليد المقطوعة

أحدقوا بالقاضي برموتي يستمعون إلى حديثه بعناية وإقبال ، وهو يدلي برأيه في الحادث المبهم الذي وقع في سان كلود . فقد اضطربت پاريس من أقصاها إلى أقصاها لهذه الجريمة المروّعة ، ولم يتمكن أحد من تفسيرها ، واستجلاء خفاياها ، وكشف الستر عن أسرارها .

ولـمّا رأى استعاظمهم قوله ، شرع يستعرض وجهات النظر ، ويمخض الآراء المختلفة ، ولكنه لم ينته إلى نتيجة حاسمة شافية .

وعيل صبر السيدات ، فانتصبن واقفات ، ودنون منه وهنّ ينظرن إليه ، ويتفرسن في فمه الحليق الذي كان ينطق بالكلمات الخطيرة .

وأخذ منهنّ الانفعال كل مأخذ ، وتغضّنت وجوههن جراء الخوف الذي تغلغل في سويدائهنّ . . الخوف الناجم عن فضولهنّ ، أو المتسبب من رغبتهن المشتركة في أن يشعرن بالخوف والهلع ـ تلك الرغبة الفوارة التي تلازم أرواحهنّ ، وتحتل جوارحهنّ ، فتعذبهنّ وتشقيهنّ ، كما يتعذب الجائع إذا جاع ، والظمآن إذا عطش !

وقالت واحدة منهنّ خطف الخوف لونها : «هذا مريع ! إنه لعمري أمر خارق للطبيعة ، كما أن العقلية البشرية لأعجز من أن تستوعبه وتتفهمه وتدرك حقيقته . . .» .

فحدجها القاضي بنظره الثاقب وقال : «لقد أخفقنا حتى الآن في حلّ هذه العقدة ، والأمل ضعيف في اكتناه السرّ المكنون . . أمّا ما تذهبين إليه يا سيدتي من أنه أمر خارق للطبيعة فاسمحي لي أن أخطئك وأفنّد زعمك . . فنحن إزاء جريمة حاك خيوطها امرؤ ماكر

ماهر ، وراعى في تنفيذها الدقة والإحكام ، حتى أصبحنا عاجزين عن فصل الظروف الغامضة ، التي لا يمكن اختراق أستارها ، عما يحيط بالجريمة ويكتنفها . . ولهذا التبس علينا الأمر التباساً أعيت معه كل حيلة . . وقد اضطررت مرة واحدة في حياتي العملية أن أتابع البحث في قضية بدت بحق أنها مختلطة بأمور غير عادية . . وعلى كل كان من الضروري إهمالها لعدم توفر الوسائل التي تيسّر لي أمر تفسيرها وتأويلها وكشف النقاب عمّا يكتنفها !» .

فصاحت الكثيرات بصوت واحد : «آه . . . حدثنا ، حدثنا بتلك القضية !» .

فافتر فم القاضي عن ابتسامة رزينة رصينة ، كما يخلق بالقضاة أن يبتسموا وأجاب :

«لا يخطر على بالكم أيها السيدات والسادة أني أعتقد بوجود شيء فوق الطبيعة البشرية في هذه المغامرة ، فأنا أعتقد فقط بالأسباب الطبيعية العادية . . وإننا إن استعضنا عن عبارة (فوق الطبيعة) التي نلجأ إليها كلّما فشلنا في وصف ما يعصى علينا حله ، بكلمة (غامض) ، هان علينا الأمر ، ولم نكبد بالكريهتين . . وعلى كل حال ، فالأمور التي تكتنف القضية التي سأسردها على مسامعكم الآن قد أثرت فيّ تأثيراً هائلاً . . فراعوني أسماعكم وأصيخوا إلى الحقائق والوقائع كما تمخضت عنها الأيام . .

«كنت في ذلك الحين قاضي تحقيق في أجاكيو ، وهي مدينة صغيرة بيضاء متاخمة لخليج بديع تحيط به الجبال من كل ناحية .

«وكنت معنياً في ذلك الوقت بمسائل الثارات ، ومعاضل طلب الدم المراق ، وكانت بعض هذه القضايا تتعلّق بمغامرات عجيبة ، وتمتّ

إلى حوادث بطولة وبسالة لا يكاد العقل يصدقها . .

«أجاكيو ، هذه المدينة الصخرية الرابضة في معقلها الحصين . . أجاكيو ، عجيبة الدهر والسنين . . ففي ربوعها وقعت أجمل قصص الانتقام التي يستطيع الإنسان أن يحلم بها ـ كراهية قرن من السنين ، سكنت لفترة من الزمن ، كما يسكن البركان الحيّ ، ولكن نارها لم تخمد ، وأوارها لم يهمد . . مكائد ترسم ، ومؤامرات تحاك . . قتل وسفك . . معارك تنقلب إلى مذابح مروعة تسيل فيها الدماء أنهاراً !

«السنين خلت لم أسمع إلاّ عن الدم وثمن الدم ، وعن الكورسيكي المظلوم المغبون المتأهب للأخذ بالثأر من الشخص الذي أساء إليه ، أو إلى أحد ذوي قرابته . . وقد شاهدت شيوخاً وأطفالاً قُطعت أعناقهم ، أو شدخت هاماتهم ، أو هشمت ضلوعهم ، حتى امتلأ رأسي بهذه القصص .

«وتناهى إلينا يوماً أن رجلاً إنكليزياً قد استأجر بيتاً في نهاية الخليج ، وقطن فيه هو وخادمه الإفرنسي .

«ولم يعتم الجميع أن انشغلوا بهذا الرجل الغريب الأطوار الذي نأى عن الناس ولم يخالط أحداً من الخلق ؛ وكانت ملهاته الوحيدة هي الصيد والقنص ، وقضاء ساعتين من كل يوم في التدرّب على إطلاق الأعيرة النارية من غدارة أو بندقية .

«وذاعت عنه الأقاويل ، وراجت الشائعات ، وانتشرت التخرّصات والأراجيف . . . فزعم زاعم أنه شخصية عظيمة هرب من بلاده لأسباب سياسية ؛ وزعم آخر بأنه ألمّ بهذه الناحية بعد أن اقترف جريمة رهيبة !

«وبصفتي من القضاة المسؤولين رغبت في الاطلاع على بعض

المعلومات عن هذا الرجل الغامض ، فكان من المتعذر عليّ معرفة شيء يعينني على اكتناه سره ، والوقوف على دخلته . وكل ما عرفته عنه هو اسمه ، فقد دعا نفسه (السير جون روويل) .

«وعلقت أراقبه عن كثب ! إلاّ أنه في الحقيقة لم يكن ثمة ما يثير الشبهات .

«بيد أني ، وقد لاقت التكهّنات مرتعاً خصيباً ، لم أجد مندوحة عن السعي إلى الاجتماع به . فشرعت أخرج طلباً للصيد في الأراضي المجاورة لمنزله .

«وحانت الفرصة المنتظرة أخيراً عندما أسقطت حمامة على بعد خطوات قليلة منه ، فلمّا حملها إليّ كلبي أخذتها من فيه وقدمتها للسير جون راجياً منه أن يقبل الطائر هدية متواضعة . . ثم طلبت منه الصفح على تطفّلي وفضولي !

«وكان الرجل مديد القامة أحمر الرأس ، أحمر اللحية ، وكان جسيماً قسيماً حليماً هادئ الطبع ، وكان أشبه بهرقل العصر الحديث ، ولكنه هرقل مؤدب أنيس دمث الخلق !

«ولم تبدر منه بادرة تدل على العجرفة المأثورة عن الرجل الإنكليزي ؛ وقد شكرني من كل قلبه على لطفي ورقتي بلغته الفرنسية المشربة بلهجة أبناء التيمس . .

وبعد مضي شهر واحد توثقت عرى الألفة بيننا ، وأصبحنا صديقين ودودين يكنّ الواحد منّا للآخر أسمى آيات المحبة والإخلاص . .

«وبينا أنا أجوّل في إحدى الأمسيات قريباً من منزله ، إذ لمحته مقتعداً أريكة خشبية في حديقة بيته ، وهو غارق في فكره مسترسل في تدخينه . فلمّا ألقيت عليه التحية ، دعاني إلى مشاركته في احتساء

قدح من الجعة ، ولم يكن في حاجة إلى إعادة الدعوة فقد قبلتها على الفور ، وفي نفسي ما فيها من التشوف إلى استطلاع خبره وقدح زنده ورؤية ما في بيته !

«وطفق الرجل الرصين يرحب بي ويبش في وجهي ، ثم جعل يطري فرنسا ويشيد بمديح كورسيكا ، ويجهر بحبه لهذه البلاد وهذا الشاطئ .

«وفي حرص عظيم أنشأت أطرح عليه أسئلتي . . فأجابني دون برم أو تردد بأنه جاب مجاهل إفريقية ؛ وساح في الهند وأمريكا ؛ وأضاف ضاحكاً : ـ ولم تسلم حياتي من مخاطر ، كنت فيها قاب قوسين أو أدنى من المعاطب والمهالك !

«وتطرّقت فجأة إلى موضوع الصيد ، فزودني بمعلومات طريفة عن صيد فرس النهر ، والنمر ، والفيل . . وعرّج على إنسان الغاب فكشف لي النقاب عن طريقة قنصه ، ثم تحدث عن الغوريلا فأبان وأفاد .

«فقلت له وأنا أحملق فيه مبهوتاً : «إنها حيوانات مخيفة هائلة يا سيدي !

«فضحك ضحكته اللطيفة وردّ عليّ قائلاً : ـ لا . . لا . . إن أشرس مخلوق ، بل أخطر موجود ، بل أفتك حيوان ، هو الإنسان ! وقد طالما قنصت هذا الحيوان . . وقد طالما اصطدته قبل أن يصيدني !

«وتحدث من بعد عن الأسلحة ، وطلب مني أن أرافقه إلى داخل مسكنه لأشاهد بنادقه ومسدساته» .

«وكانت غرفة الاستقبال مكسوة الحيطان بستائر حريرية سوداء ، يوشيها الذهب بخيوط هندسية بديعة .

«فلمّا لاحظ ما داخل حسي من إعجاب بهذه الروعة المتبدية في السّتائر قال : «إنها من صناعة اليابان . . وهي نادرة المثال لا تظفر بمثلها إلاّ بمشقة وعناء .

«واسترعى انتباهي على الحائط أمر غريب شاذ ، فقد لصق بقطعة مستديرة من المخمل الأحمر شيء أسود داكن ، فلمّا دنوت من اللوح الخشبي المثبت بالحائط ، علمت أن الشيء الأسود الداكن هذا هو يد إنسان ! ولم تكن اليد مجرد هيكل ليد . . ولم تكن مجرد عظام بيضاء زال عنها اللحم . . بل كانت يد إنسان جافة ذات مفاصل صفراء شديدة الصفرة ، وعروق مكشوفة بارزة يعلق بها آثار قديمة لدماء جافة قديمة ! وقد كوّن الدم لليد قشرة صفيقة كست العظام التي تراءى لي في تلك الوهلة أنها عظام يد فصلت من وسط الساعد بضربة آلة حادة ، وقُيّد الرسغ بسلسلة من الحديد ، ربطت بإحكام إلى حلقة عظيمة تكفي لشد وثاق فيل !

«ولم أستطع كتم ما جاش في صدري فتساءلت قائلاً : ـ ما هذا؟

فلم يلح على وجهه أي اضطراب أو تردد ، بل أجابني قائلاً : ـ إنها يد ألدّ عدو جبهت به . . إنها يد أشرس مخلوق شاء القدر أن أصطدم معه . . وقد جاءت من أمريكا ، فحطمت بضربات سيف باتر ، وقطعت بحجر حاد مسنون ، وجففت تحت أشعة الشمس لمدة ثمانية أيام !

«فلمست هذا العضو المتبقي من جسم إنسان ، وأيقنت أنها يد مارد جبار هائل الجرم . . فقد كانت الأصابع مفرطة في الطول ، وقد احتفظ بتماسكها أوتار العضل التي أبقتها السيور الجلدية في موضعها . .

«وقلت له أخيراً وأنا أرتعش قليلاً : ـ لقد كان لهذا الرجل ، إن صدق حدسي ، قوة هائلة !

«فأجابني مترفقاً : ـ أصبت يا سيدي ، غير أني فقته قوة واقتداراً ، وكبّلته كما ترى بهذه السلاسل حتى لا يفلت !

«فخُيّل إليَّ أن الرجل يخلط المزح بالجد فقلت : ـ وما نفع السلاسل ما دامت اليد عاجزة عن الحركة . . وما دامت ميتة لا تجد من يحركها؟ !

«فقال وهو يقطّب : ـ إنها لا تفتأ تحاول الإفلات والانطلاق . . إنها تسعى بلا انقطاع إلى التخلّص من هذه السلاسل !

«فحسبت الرجل مخبولاً فاقد الإدراك ، فحدجته بنظرة ريبة وتشكّك . . ولكن أساريره لم يتبدل فيها شيء . . فهجست في نفسي الهواجس ، واضطرب فؤادي ، وانتابني وسواس القلق . . . هل أنا في حضرة مجنون؟ وماذا يكون شأني معه لو استعر جنونه؟ !

«وأممت داره بعد ذلك اليوم في مناسبات عديدة . . ثم شغلني عنه شاغل فانقطعت عنه .

«وتعاقب الليل والنهار وتصرّم حبل عام كامل . وهرع إليّ خادمي في صباح أحد الأيام ، فنبّهني من نومي وأخبرني بأن السير جون وجد قتيلاً مضرجاً بدمائه في الليلة السابقة !

«فهببت من رقادي ، وقد اختبل عقلي وطار صوابي . . واندفعت إلى مسكن الرجل الإنكليزي ، يرافقني النائب العام وقائد الشرطة . فألفيت خادمه يعول وينتحب ، وقد أذهلته المصيبة عن كل أمر ، فلم يعِ ما يقال له ، ولم يفقه ما يوجه إليه من أسئلة . .

«فارتبت في أمره لأول وهلة ، ولكن سرعان ما تأكدت لدي براءته

من تهمة القتل ، وأيقنت أن المجرم العتلّ الذي بطش بالسير جون لا يمكن العثور عليه !

«وعندما دلفت إلى غرفة الاستقبال أبصرت السير جون مجدلاً على ظهره في وسط الغرفة ، وقد تمزقت سترته وانتزعت أكمامه ، وبدا عليه أنه قاوم مقاومة عنيفة ، وأن الصراع الهائل الذي نشب بينه وبين قاتله كان صراعاً لا عهد لبني البشر بما يماثله !

«وظهر على الوجه المحتقن ، الجامد الجاحظ العينين ، علامات الهلع والفزع ، وعض بأسنانه على شيء صغير ، وثُقب عنقه في خمسة مواضع ، ما يدل على أن آلة حديدية مدبّبة قد استعملت في القضاء عليه !

«وأجرى الطبيب فحصه الدقيق على الجثة ، وأعاد الفحص مراراً . . ولم يعتم أن قال : ـ إن المرء ليظن أن الرجل أزهق أنفاسه هيكل عظمي !

«فاقشعر بدني وارتعدت أسناني ، وتحوّلت بناظري إلى الحائط الذي شاهدت فيه قبلاً اليد المقطوعة المرعبة . . فلم أجدها في مكانها ، وإن وجدت آثارها وعلاماتها والسلاسل المحطمة !

«وتأملت فيما عضّ عليه القتيل بأسنانه ، فرأيت بين شفتيه جزءاً صغيراً من إصبع ـ إصبع اليد المختفية !

«ومضى البوليس يبحث ويحقق ويتتبّع الآثار ، ويلتقط البيّنات ، ولكن الإخفاق كان رائد رجال الأمن . . فالأبواب سليمة لم يعبث بها إنسان ؛ والنوافذ مغلقة ؛ والأثاث في أمكنته العادية . . وكلبا الحراسة لم يصبهما سوء . .

«وتكلم الخادم أخيراً فأدلى بالبيان التالي :

(طرأ على سيدي منذ شهر تغيير ملموس ، فبدا ثائراً قلقاً مضطرباً . . ووردت عليه في أثناء ذلك رسائل كثيرة أحرقها جميعاً على الفور . . وما أكثر ما كان غضبه العنيف يجعله يهرع إلى اليد المقطوعة ، فيسوطها ويستمر في لذعها بسوطه حتى يتصبب العرق من جسمه . . وفي ليلة مقتله لاذ بغرفته مبكراً ، وأزلج الباب وراءه . وكان السلاح لا يفارقه قط . وكثيراً ما سمعته يتكلم في هدأة الليل بصوت مرتفع كأنه يتشاجر مع كائن مجهول ! ولكني لم أسمع له الليلة أي حسّ أو حركة . . وعندما أقبلت على النوافذ في الصباح لأفتحها عثرت به قتيلاً !) .

«وأفضيت لرجال الأمن والمحققين بما أعرفه عن القتيل ، فنشطوا يتحرون صدق ما بثثته لهم ، ولكنهم ما لبثوا أن كفّوا عن السعي يائسين قانطين !

«وحدث بعد مضي ثلاثة شهور أن جثم على صدري في ليلة ليلاء كابوس مريع ، ضاق له نفسي . . وخيل إليّ أني أرى تلك اليد الرهيبة تارة تتخذ لها شكل العقرب ، وطوراً شكل العنكب . وقد تنبهت من رقادي ثلاث مرات وعدت فنمت ثلاث مرات ، وفي كل مرة كنت أشاهد هذه اليد الشنيعة تنتقل بسرعة جنونية في الغرفة وتحرك أصابعها الطويلة المدّببة !

«وفي اليوم التالي حمل إليّ بعضهم هذه اليد ، وقد عثروا عليها في المقبرة ملقاة على الضريح الذي دفن فيه السير جون وقد بتر جزء من سبّابتها . .

«هذه أيها السادة والسيدات هي قصتي ! !» .

فزفرت السيدات وقد ساورهنّ الفزع ، وعلا وجوههنّ الشحوب ،

وأخذتهنّ الرعدة ؛ وهتفت إحداهنّ بصوت مرتجف :

ـ وي لك أيها القاضي ! أخبرنا . . ما هي الخاتمة؟ ما هي النهاية؟

وهتفت أخرى وهي ترتعش فرقاً ويداها البضتان تختلجان كما تختلج الحياة الجميلة :

ـ لن يعرف النوم سبيلاً إلى جفني يا سيدي القاضي إلاّ متى أمطت لنا اللثام عن الغموض الذي اكتنف قصتك !

فابتسم القاضي وقال :

ـ إن رجعتنّ في هذا الأمر إلى رأيي أيتها السيدات فسوف أحطم ما يشق عليكنّ تحطيمه من أحلامكن المخيفة ! فإن صاحب اليد المقبوحة ، على ما أظن ، كان حياً يرزق ، وقد قدم إلى أجاكيو ليسترجع يده المقطوعة ولينتقم من السير جون . . إلاّ أني أجهل الحيلة التي لجأ إليها لبلوغ مرامه المزدوج ، ولا أتبيّن الوسيلة التي جنح إليها ليأخذ بثأره فيخمد أنفاس عدوه !

فقالت إحدى السيدات بصوت مهموس :

ـ إن تفسيرك للحادث خاطئ لا يقنع أحداً ولا يشفي غليل أحد . .

فاستتلى القاضي وهو ينتصب واقفاً :

ـ لقد قلت في البداية إن ما يسنح لي من رأي لن يكون له الصدى المنشود في قلوب النساء المتعطشات إلى ما هو شاذ ، الظامئات إلى كل ما ينطوي على الخوف . . فالخوف هو أحد لذاتكنّ الدنيا الثلاث !!

الآنسة فيفي

كان المطر يتساقط بغزارة في ذلك اليوم ، وكانت الكتيبة الألمانية قد أمضت ثلاثة أشهر طويلة في تلك المنطقة النائية ، الخالية من الفتيات والنساء ، ما كان يثير غضب النقيب (الكابتن) ، زير النساء ، المنهمك عادة في ملذات الحياة ، إذ وجد نفسه حبيس منفى يضطره إلى العيش في عفة فُرضت عليه فرضاً .

وعندما يحين وقت الغداء ، نتعرّف بباقي الضباط ، ومن بينهم الملازم الأول «أوتو» ، والمركيز «ولهلم ديريك» ، وهذا الأخير هو فتى أشقر الشعر ، في ريعان الشباب ، برز شارباه حديثاً ، وكان فظاً متعجرفاً مع رفاقه ، أمّا مع العدو الفرنسي المدحور فكان بلا شفقة ولا رحمة ، حتى لتحسبه أشبه شيء برصاصة على وشك الانطلاق .

ولقد لقّبه رفاقه بـ«الآنسة فيفي» ، أولاً لأنه كان مغناجاً يحبّ التبرّج ، فكان يبدو بقامته الممشوقة وكأنه تمنطق بمشدّ ، أمّا وجهه فكان شاحباً . وثانياً ، وعلى وجه التخصيص ، لأنه كان إذا استاء من أمر ، وأراد التعبير عن استيائه ، يروح يردّد العبارة الفرنسية المألوفة : Fi, fi, donc, (أي تبّاً إذاً) مصحوبة ببعض الصفير .

وكان القصر ، الذي نزل الألمان فيه ، يحمل بصمات عبثه واستهتاره ، فكنت ترى أينما وقع نظرك آثار الطلقات النارية على أواني البلّور (الكريستال) الفاخرة ، كما أن سيْف هذا الضابط لم يوفّر السّجاد ولا المفروشات الثمينة ، ما ينمّ عن النزعة الدفينة في أعماق «الآنسة فيفي» . وكان من عادته أن يحطّم كأسه بعد أن يفرغها دُفعة واحدة .

وفي ذلك اليوم الممطر بالذات ، وللتخلّص من السأم والضجر ،

اقترح الضباط أن يرسلوا أحد الخدم ، وهو جندي عجوز ، ليأتيهم ببعض بنات الهوى من بلدة روان .

وانطلق الجندي في عربة تجرّها أربعة جياد مطهّمة ، راحت تشقّ طريقها تحت وابل المطر الذي لم يكن لينقطع لحظة .

وراح الضباط ينتظرون . . فاقترح عليهم «الآنسة فيفي» ، لتمضية الوقت ، أن يتمرّنوا على إطلاق النار على تحف القصر .

وعلى الفور توجّه إلى قاعة الاستقبال ، فجاء بإبريق شاي صيني الصنع نفيس ، وملأه بمسحوق متفجّر ، وأدخل فيه قطعة طويلة من الصوفان وأشعلها ثم حملها صوب إحدى الغرف . ولم يلبث الإبريق أن انفجر وهشّم ما سبق وعجزت عن تحطيمه الرصاصات والمتفجِّرات الأخرى .

وملأ الدخان غرف القصر ، فسارع الضباط إلى فتح النوافذ ، وأطلّوا على الحديقة الواسعة بأشجارها التي بلّلها المطر . وكانت الحديقة تشرف على الوادي السحيق ، حيث تبدو قبّة الكنيسة الوحيدة وكأنها حربة تتحدّى عناصر الطبيعة الثائرة . وقبة الكنيسة هذه ، منذ قدومهم ، لم يُسمع لجرسها صوت ، ولا قُرِع مرّة واحدة . فكأن هذه الجرأة كانت المقاومة الصامتة الفريدة التي لقيها المحتلون في الجوار كله .

وكان كاهن الكنيسة يستقبل الجنود الألمان أحياناً ويولم لهم المآدب ، أو كان يشاركهم في شرب كأس من الجعة أو النبيذ ، ولكنّه لم يكن أبداً ليقبل بأن يُمَسّ الجرس . فجاء ذلك كاحتجاج صامت من قبله هو أيضاً .

كان المركيز الشاب أو «الآنسة فيفي» وحده يريد أن يُدَقّ الجرس ، وبأي ثمن ، ولو مرة واحدة ، غير أنّ رئيسه الرائد (الكوموندان) كان

يرفض ذلك رفضاً قاطعاً لتجنّب المشاكل مع الأهالي . فكان المركيز لا يجد خيراً من مفروشات القصر ورياشه الثمين ليصبّ عليها غيظه ، فيأخذ يصوّب عليها مسدّسه حتى يفرغه ، فيخمد بذلك ثورة غضبه .

*

وفي الساعة السادسة مساء عادت العربة بجيادها الأربعة ، وفيها خمس بنات جميلات ، عرف أحد رفاق الجندي العجوز كيف ينتقيهنّ بعناية .

وترجلت الفتيات من العربة من دون دعوة أو رجاء ، فقد كنّ يعرفن تماماً هؤلاء الجنود الألمان ، ويعرفن أيضاً أنهم سوف يدفعون لهن بسخاء ، وكنّ يقلن لأنفسهن : ظروف المهنة هي التي تتطلّب هذا .

وارتُئيَ كي يُراعى العدل في اقتسام الفتيات ، توزيعهنّ على الضباطَ حسب رتبهم . وهكذا كُتب لأصغرهنَّ جميعاً واسمها «راشيل» ، وهي يهودية سمراء ، أنَ تكون من نصيب أصغر الضباط سناً وهو المركيز «وِلهلم ديريك» أو «الآنسة فيفي» .

وبعد قليل ، وعلَى حين غرّة ، انتابت «راشيل» نوبة سعال وطفرت الدموع من عينيها ، ثم نَفثتَ من منخريها سحابة كثيفة من الدخان ، ولم يلبث الجمْع أن تبيّن أن المركيز نفخ في فمها ، وهو يتظاهر بتقبيلها ، بما في صدره من الدخان . ولكن «راشيل» لم تنبس بكلمة ، أو تأت بحركة ، بل ارتسمت فقط على محياها أمارات الغضب المكظومَ .

وكان الجميع قد تحلّقوا حول مائدة الطعام ، فدارت كؤوس النبيذ ، ورنّت الضحكات عالية ، وبدأت المداعبات تتمادى ، وسُمعت النكات البذيئة . . .

وكان المركيز قد أجلس «راشيل» في حضنه وراح يهصرها بين ذراعيه، ويقرصها حتى يجعلها تصرخ، ثم يقبّلها قبلات جامحة. وفجأة، وعلى إثْر إحدى تلك القبلات العنيفة، سال الدم من شفتها.

ثم دارت الأنخاب، وصاح المقدَّم:

ـ نخب انتصاراتنا على القلوب!

وإذا بالملازم الأول «أوتو»، وقد بدأت الخمرة تدور برأسه، يصيح:

ـ نخب انتصاراتنا على فرنسا!

ولم تنبس أيٌّ من الفتيات بحرف، ولكن «راشيل» استدارت نحو الملازم الأول وقالت:

ـ إنني أعرف فرنسيين لا تستطيع قول هذا أمامهم.

فما كان من المركيز، أو «الآنسة فيفي»، إلا أن أطلق ضحكة مرحة على أثر ما دار في رأسه من الخمرة وقال:

ـ أمّا أنا فلم أتعرّف إلى هؤلاء، فما إن نظهر حتى يختفوا ويولّوا الأدبار.

فانفجرت به الفتاة صائحة:

ـ خسئْتَ، أنت تكذب أيها القذر!

وحدَجها المركيز بنظرة صارمة ثم قال وهو يضحك:

ـ أجل، حدّثينا عنهم أيتها الجميلة. هل كنا وُجِدْنا هنا لو أنهم كانوا شجعاناً حقاً؟

ثم أردف قائلاً:

ـ نحن سادتهم.. وفرنسا أصبحت لنا!

حينئذ انسلّت «راشيل» من حضنه وجلستِ على كرسيها بعنفوان، بينما راحَ الضابط يردّد كلمات أخرى بالمعنى ذاته، ما أثار حميّة رفاقه فصاحوا:

ـ لتحي ألمانيا !

عندئذ وضع المركيز أي «الآنسة فيفي» كأسه المترعة بالشمبانيا على رأس الفتاة اليهودية ، وقال :

ـ سننال من كل نساء فرنسا .

فما كان منها إلاّ أن قفزت من على كرسيها ، فانسكب الشراب على شعرها ، ووقعت الكأس على الأرض فتحطّمت ، وحدّجت الضباط بنظرات تشتعل غضباً وقالت :

ـ هذا ليس صحيحاً ، لأنكم لن تنالوا من نساء فرنسا !

فأجابها «الآنسة فيفي» :

ـ يا للنكتة الطريفة ! ولكن أنتِ ، قولي لي ماذا جئتِ تفعلين هنا؟

فأجابته بسخط ونقمة :

ـ أنا ، أنا ! إني لست امرأة ! ما أنا إلاّ عاهرة . . وهذا ما يكفي الألمان !

ولم تكد «راشيل» تنهي كلمتها حتى قام فصفعها صفعة قويّة ، وهمّ بأن يعيد الكرّة ، فما كان منها إلاّ أن اختطفت من على المائدة سكيناً ، قبضتُها من الفضة ، وبأسرع من لَمْح البصر طعنته في عنقه ! فاختنقت الكلمات في حلقه ، وبقي فاغراً فاه ، وجحظت عيناه وفيهما نظرة مخيفة !

وبادرت «راشيل» فألقت كرسياً بين قدمي الملازم الأول «أوتو» وأسرعت نحو النافذة ، ففتحتها واختفت في طيّات الظلام تحت وابل المطر ، قبل أن يتمكّن أحد من اللحاق بها .

وفي خلال دقيقتين لفظ الضابط «الآنسة فيفي» أنفاسه الأخيرة ! وأراد سائر الضباط أن ينتقموا لمصرع رفيقهم بأن يقضوا على الفتيات

الأخريات ، ولكنَّ المقدَّم حال دون وقوع مثل تلك المجزرة ، واكتفى بأن أطلق خمسين من رجاله في إثْر القاتلة ، فراحوا يفتّشون عنها عبثاً تحت وابل المطر المنهمر في أعماق الغابات وفي قرى الوادي المجاورة .

*

في اليوم التالي عاد الجنود بعد أن قُتل منهم اثنان وجُرح ثلاثة برصاص رفاقهم الطائش ، وقد قلبوا الأرض رأساً على عَقِب ولم يعثروا لـ«راشيل» على أثر .

وعرف اللواء الألماني (الجنرال) بالقصة ، ففضّل أن يطمس معالمها خوفاً من أن تكوّن سابقة خطرة ، وقال لمرؤوسيه :

ـ نحن لم نخض الحرب لنأتي ونتسلّى بالعاهرات !

وهكذا لم يعطِ حجّة لجنوده حتى ينتقموا من أفراد الشعب ، واكتفى بأن طلبَ من الكاهن أن يُقرع الجرس في جنازة المركيز «ديريك» ، فامتثل الكاهن للأمر ، وهكذا عندما مرّت جثة المركيز أمام الكنيسة قُرِع الجرس من جديد بدقّاته الجنائزية المعهودة .

وكان الجرس يُقرَع في الليل أحياناً دقات خفيفة حتى انتهى أهل الضيعة إلى الظن بأن قبّته لا بدّ أن تكون الأرواح ساكنة فيها . ولكن الحقيقة هي أن فتاة كانت تعيش فوق ، لا يعرف بها إلاّ الكاهن ومساعده ، اللّذان كان أحدهما يحمل إليها الطعام كل يوم .

وعندما رحلت القوات الألمانية عادت «راشيل» إلى مهنتها السابقة . وفي أحد بيوتات الهوى رآها مواطن غير متزمّت فأحبها لعملها النبيل واقترن بها وجعلها سيدة محترمة تضاهي كثيرات سواها من سيدات المجتمع الراقي .

الفهرس



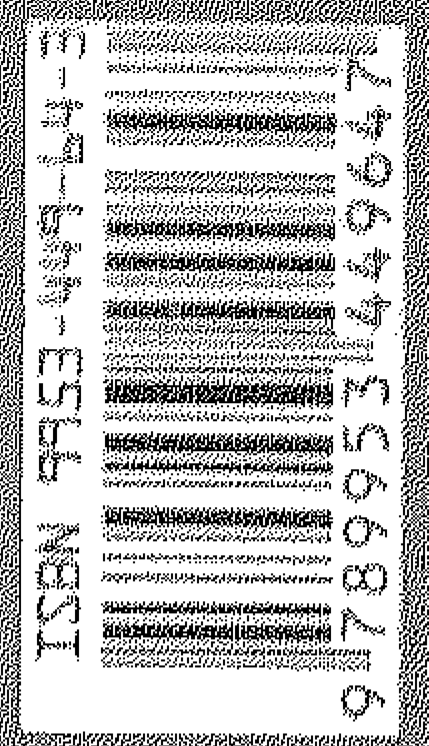
الراقصان...

لم يبقى من الراقصين المُسنَّيْن إلَّا آثار عفت ومعالم درست، فماذا حلَّ بالزوجين المتهافتين؟ هل استجابا لداعي الحمام ففرّق شملهما الموت الزؤام، أم هاما على وجهيهما يترنحان ويتمايلان ويرقصان رقصة الحياة الوهمية بين الأجداث والأضرحة في المقبرة المقفرة تحت ضوء القمر.

وفي العقد...

احتاج إلى المال فاضطر إلى الإقتراض، ولم يجد بدًا في نه التفكير في بيع ما يقيل بثمنه عثرته ويجبر ما انهاض من حالت على باله الجواهر الزائفة التي كانت بالأمس القريب مثا وسخطه، وناجاه الفكر أن يتخلص منها، واختار أن يكون ذلك العقد الكبير الأثير عند زوجته الحبيبة..




ISBN 9953-449-64-3
9789953449647


دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع